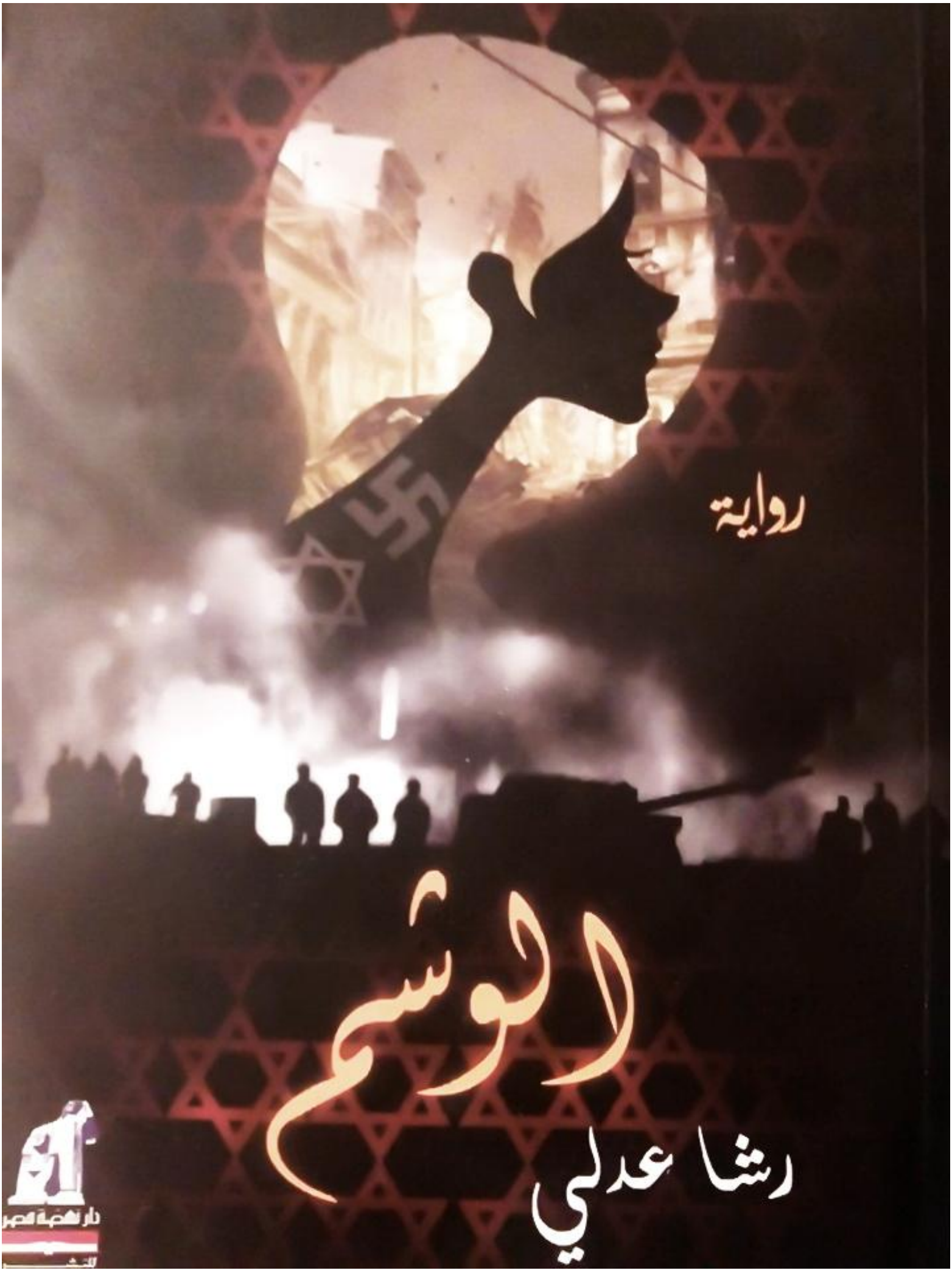
رواية
الوشم
رشا عدلي
دار نهضة مصر

العنوان

الوشم
(رواية)

تأليف

رشا عدلي

إشراف عام

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-4893-8
رقم الإيداع: 9726 / 2014
الطبعة الأولى: مايو 2014

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

جميع المعلومات الحربية والسياسية الخاصة بالعمل صحيحة وموثقة فى الدراسات والكتب التي تناولت فترة الحرب العالمية الثانية .

جميع ما يخص معسكرات النازية فى هذا العمل صحيحة وموثقة عن دراسات وكتب تخص هذا الجانب وبخاصة سلسلة كتب وابحاث دكتور " رمسيس عوض " الباحث والمفكر السياسي التي تناولت هذا الجانب بالكثير من الحيادية والشفافية .

بطلة الرواية وجميع الأحداث التي مرت بها من وحي خيال الكاتبة مستوحاة من الأحداث التي مرت في تلك الفترة الزمنية وهي شحصية لا تمت للواقع بصلة .

عن الرواية

هذه الرواية لا تظهر تعاطفاً مع أحد ، فلا أحد يستطيع إنكار حدث تاريخى قد حدث بالفعل و على مرأى ومسمع من الجميع , وأنا ككاتبة و باحثة أرى أن الفلسطنيين لا ذنب لهم فى حدوث ما حدث لليهود على ايدى القوات النازية بل إنهم دفعوا ثمن جريمة ارتكبت فى الغرب، كما أن جرائم الهولوكوست لا تبرر استخدام إسرائيل القوة المفرطة ضد الفلسطينيين، خصوصا النساء والأطفال، اردت ايضاً أن اوضح الفرق ما بين الهوية والأنتماء وكيف أن فى أمكان أى شخص أن لا ينتمى بالضرورة للبلد التى تعلن خانة الجنسية فى اوراق اثبات شخصيته أسمها , اليهود في مصر كانوا جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع ولا نستطيع أن نغفل ذلك أو ننكره وهناك خلط كبير ما بين الصهيونية كحركة سياسية ودولة اسرائيل والديانة اليهودية , كثيراً من يهود مصر اقاموا حركات سياسية ضد الصهيونية نفسها وعلى رأسهم المحامي اليهودي الشهير (شحاتة منير) الذى ظل يناضل ضد السياسة الصهيونية حتي موته في مصر التي رفض أن يغادرها بالرغم من اصابة ابنته فى مطلع الخمسينات بمرض لوكيميا الدم وطلب منه الطبيب سفرها لفرنسا لعلاجها وكان عليه فى ذلك الوقت حتي يسافر أن يحصل علي استمارة الخروج بلا عودة فرفض ذلك وأختار التضحية بفقده لابنته عن أن يفقد عودته لمصر مجدداً, أتمني أن ذلك العمل قد يلقي بعضاً من الضوء على فترة واحداث مهمة و مهملة في التاريخ ...

رشا عدلي

الإهداء

إلي عمر خالد

إلى أحمد خالد

أحبكما

رشا عدلي

صباح يوم جديد علي وشك القدوم ، ولا يزال الظلام يجسم علي السماء بعد ليلة شتوية حالكة . الخامسة فجراً عندما كانت كقطة شريدة متمهلة السير باتجاه قدر ما . الكل يغط في نوم عميق ولا من صوت سوى دموع القناديل تحت المطر و وقع لخطوات عسكرية تتفقد الأمن ليلاً بأحد الشوارع الضيقة المتفرعة من شارع الملكة نازلى. وجدت نفسها تدخل مسرعة للمبني المحاذي لها وتتوارى خلف جداره حتي مر الرجل بسلام دون أن يراها ثم خرجت مرة أخري للطريق .كانت لا تزال في الخامسة عشر من عمرها عندما غادرت هي وأهلها لفرنسا بنية اللارجوع . تتذكر جيداً هذا اليوم الذي مر عليه أكثر من عشر سنوات كما تتذكر تماماً البناية التي كانت تقطن بها فها هى قد لاحت من بعيد بلونها الذى غدا أشد قاتمة . هل لأن الأحداث التى عاشتها هنا لا تُنسي تظل دوماً متربعة علي عرش الذاكرة أمَ لأنها الطفولة بكل ما تحمله معها من جمال وبراءة ، أمَ كلتيهما معاً ؟

أنها البناية تماماً كما تركتها منذ زمن مضى وقد أصبحت أكثر بؤساً و تلك الرائحة التي تتسرب من شققها المغلقة علي نعاسها , روائح للطعام مختلطة بأنفاس البشر .وبدلاً من أن تصعد الدرج وجَدت نفسها تهبط مسرعة تحت "بئر السلم" وعلي الدكة الخشبية المفروشة بغطاء ممزق من الصوف الخشن آلقت بجسدها النحيل .

مجموعة من الجرذان الصغيرة أنتشرت هُنا وهُناك بعدما تفرقت خوفاً من وقع الربكة التي صنعتها واحتلالها لفراشهم . أنكمشت علي نفسها أكثر وقد سندت جسدها علي الجدار وضمت ركبتيها علي بطنها وعقدت ذراعيها حولها مُنكسة الرأس لأسفل . تساءلت منذ العام بالتحديد كان مجرد أسم الجرذ يصيبها بالخوف والأشمئزاز الأن وها هي تراهم أمامها مباشرة يذهبون ويجئون حولها ولم ترتجف حتى . ربما لأنها كانت منذ عدة أشهر تشبههم تحيا حياتهم , تركض مثلهم وتخشْي وتتبهل وتنتحب لينيجها الله من هذا الكائن البشري العملاق ضخم الجثة والذى كلما مر جلب الضوضاء بوقع خطوات حذائه القوية . تأوي ليلا لحجرها وتقتات علي فتات الطعام . حتى ملامحها الجميلة تحولت لتشبه ملامح جرذ مذعور . العيون جاحظة , زائغة ,ملمس رأسها الحليقة يشبه ملمس جسده . ولكن هل الجرذ يملك وشماً هل يحظي بشرف أن ينحت له وشماً حول ذراعه هذا الوشم هو هويتها الجديدة في عالم الجرذان هُناك حيث لا توجد أسماء بلا أرقام .

تذكرت كيف كانت أنيقة وجميلة وهي تهبط الدرج في ذلك اليوم البعيد كانت لا تزال تخطو خطواتها الأولي في عالم الأنوثة ولكنها كانت تخطوها بثقة يحتمها عليها جمالها. ها هي مربيتها الايطالية تقبض علي يدها بكف وبالكف الأخرى تشد وثاقها علي أخيها الأصغر سناً . بينما قبلات جارتهم ديدمونة تُطرقع وهى تنهال علي خد أمها الشاحب . يسبقهم الحمالون بالحقائب والصناديق الكبيرة المحملة بسنوات عمرهم . جاء قرار أبيها بترك البلد والسفر لفرنسا بعدما اغراه أحد أصدقائه برغد العيش هناك وبأنه كخبير فى تجارة القماش يمكنه هناك الحصول علي حرير "ديجون" بأسعار رخيصة وتوزيعه في أنحاء العالم بأسعار باهظة . ودعت صديقاتها بمدرسة ليسيه فرانسيه باب اللوق بالكثير من الدموع وعلي وعد بأنها ستكتب لهن غادرت مدرستها . وطوال الطريق من القاهرة للإسكندرية لاستقلال الباخرة لم يتفوه أحد بكلمة ،كان الصمت والحزن يخيمان على السيارة . أنتبهت من ذكرياتها على صوت لوقع اقدام على الدرج. اقدام أعتادت الذهاب للمسجد لأداء فروضها ، والأن هي ذاهبة لأداء صلاة الفجر وتأكدت انها للجار في الدور الأخير من البناية فهي لم تراه يوماً سوى وهو فى طريقه لهناك ومسبحته الخشبية الطويلة بيده . أنكمشت علي نفسها أكثر وأكثر حتي غادر.

أستسلمت لغفوة سريعة لتستيقظ على الجلبة التى أحدثها بائع الحليب الذى يأتي يومًيا فى السادسة صباحًا ومعه دلو وسطل معدني ليزن به الحليب كان صوته أجش وهو يصيح " حليب يا لبن " ابتسمت عندما تذكرت كيف كانت طفلة صغيرة تقف من خلف النافذة لتراقب بائع الحليب وهو يصطحب معه جاموسته وماعز صغيرة ويقف فى الشارع الخلفي الذى تطل عليه نافذة بيتها ويقوم بحلبها أمام عيون زبائنه الذين يلتفون حوله بدوراقهم المعدنية . لفحة هواء باردة عبرت مسرعة فزدادتها أنكماشًا على نفسها وأخذت تشد من جونلتها الصوفية

القصيرة التى كانت ترتديها لتخفي بها ركبتيها المرتجفتين من البرد ،فكرت لحظة أن تضع الغطاء الصوفي فوقها وتدثر به ولكن رائحته العفنة منعتها من ذلك .

تساءلت إلى متي ستمكث هنا ؟ لقد حان موعد أستيقاظ الخالة ديدمونة ، مجرد التفكير فى طرق باب تلك السيدة كان يصيبها بالخوف والحزن معًا فهى لم تحبها يوماً بل فى المرات القليلة التى كانت تطرق بابها لأمر ملح تبعثها أمها فيه كانت ترفض أن تدخل الشقة وتصر أن تنتظرها على عتبة البيت ، العتمة التى تتسرب من الداخل وبؤس فقره ومظهر السيدة كل ذلك كان كفيل بأن يجعلها تخشى المرور للداخل وبخاصة عندما تسمع دبيب قباقبها الخشبي وهى تصيح بصوت أجش لتسأل " من بالباب ؟" ولكن كيف الهروب من قدر كان قد قُدر لها مسبقاً؟

أخيراً كانت قد قررت الصعود وقفت تهندم من مظهرها ولكن أى مظهر هذا؟ ذلك المعطف الصوفي بكاروهات الأحمر القاتمة مع الأخضر ومن أسفل أرتدت جونلة صوفية مقلمة ،كما أن جواربها البيضاء كان قد أكلح لونها وتحول للرمادي .

ـــ يا ألله ها أنا أشبه البهلوان فى هذه الملابس !!!

وبدون أن تدري وجدت نفسها تربت على شعرها فى محاولة منها لترتيبه ولكن إين هو شعرها ؟ فلم يكن سوى شعر نبتت جذوره فقط وتأبي أن تطول وكأنها ترفض أن تلمسها مرة أخرى يد تلك السيدة المتوحشة التى جمعتهن فى طابور طويل ذلك اليوم وجردتهن من شعورهن الواحدة تلو الأخرى بدون حتي أن تتفوه بكلمة وبتلك النظرة الباردة والجامدة، ثم قامت بأزاحتِهن بمنتهي القسوة لحارسة بمحاذاتها والتى تمسك شفرة حلاقة حادة وتقضي على البقية الباقية من شعورهن ليصبحن كُلهن ذوات رءوس حليقة .

حدثت نفسها قائلة :

ـــ ولكن هل ستتعرف علىَّ خالة ديدمونة وهل ستوافق على إقامتي عندها وماذا على أن أقول لها ؟

كانت تحدث نفسها وهي تصعد الدرج :

ـــ ديدمونة ياله من أسم قبيح يشبهها كثيرًا.

الطابق الثاني وجدت نفسها تقف متسمرة أمام باب الشقة الخشبي ،بشراعته الزجاجية ، كان باب أمْن ينغلق على أسرارهم لم يشِ يوماً بأحزانهم أو بأفراحهم . كم مرة خطت عتبته وهى متوهجة متعطرة متأنقة ؟ كم من مرة وجدت نفسها تنزلق إلى الداخل وينغلق سريعاً وراءها ليقوم بحاميتها من غدر الزمان ؟

كيف فكر أبوها ذات يوم أن يبيع الشقة ولم يسمع لتوسلات أمها عندما أثنته عن فعلته تلك ، ولكنه أصَرَّ على ذلك فقد كان يريد أن يقطع كل شيء يربطه بهذه البلاد عكس أمها التى كانت حقيبتها دوماً معدة للرجوع لمصر مجدداً ، وإذا بها وهى متمسرة فى أفكارها أمام الباب، يُفتح على رجل طويل القامة عريض المنكبين يرتدى بذلة بنية وطربوشاً أحمر ، فوجيء الرجل بها وأنتابه خوف وقلق لدرجة أنه أغلق الباب سريعًا فى حركة لا إرداية منه ثم قام بفتحه مرة اخرى وأخذ يتأملها ثم تمتم قائلاً

_ أستغفر الله العظيم ما هذه الخلقة في الصباح هل أنتِ رجل أم امرأة ثم لماذا تقفين أمام الباب هكذا ؟

لاحقها الرجل بالأسئلة ولشدة أرتباكها أجابت بصوت مرتجف :

_ طاب صباحك سيدى . لا لا أنا لست رجل أنا فتاة ، وأحضر فى زيارة لخالتي ديدمونة ولكن مر الكثير من الزمن لم أحضر إلي هنا لذلك ، لم أتأكد جيداً من الطابق.

أجابها الرجل وهو لا يزال يتأملها :

_ ديدمونة ... هكذا إذاً لا أستغرب . أنها فى الشقة التى تعلونا تماماً .

_ شكراً سيدي .

قالتها وركضت على الدرج بينما علقت عينه بالطرف الأخير من ثيابها .

فى الطابق الأعلى وقفت أمام شقة ديدمونة وطرقت على الشراعة الزجاجية طرقة ثم أخرى . لم يمر الكثير من الوقت حتى جاءها صوت أجش وبخطوات كانت تقترب حتى توقفت أمام الباب مباشرة :

_ من بالباب ؟

_ أنا خالتي ديدمونة .

_ أنتِ من ؟

_ أنا إيفا .

_ إيفا من ؟

ـــ إيفا خالتي "إيفلين " ابنة جارتك إيديث التي كانت تسكن فى الطابق الأسفل .

كررت السيدة الأسماء بصوت يشوبه الحذر:

ـــ إيفلين و إيديث !

ـــ نعم .

ثم فتحت الشراعة الزجاجية وبعيون لم تزل ناعسة ظلت تتأملها من خلف قضبان الحديد المشغول .

ـــ من أنتِ أيتها اللصة الكاذبة ؟

ـــ أنا لست بلصة بحق الرب ،أنا إيفلين .

ـــ ولكن تلك ليست هيئة إيفلين الفتاة الجميلة الأنيقة من أنتِ وماذا تريدين ؟

هل أخطأت عندما فكرت فى أن تلك السيدة هى الأكثر أماناً فى مصر لتلجأ إليها , فعلاقاتها محدودة بل تكاد تكون منعدمة ولست بكثيرة الثرثرة .

يسكن فى مصر أكثر من ثمانين ألف يهودي من جميع الطبقات بدءًا من الطبقة الأرستقراطية التى تقطن فيلات وقصور الزمالك وجاردن سيتي , والطبقة الأكثر فقراً التى تقطن حارة اليهود وفيما بينهما كانت تلك الطبقة المتوسطة التى تنحدر منها .كانت تعلم أن الكثير من الأقرباء والأصدقاء بإمكانهم أستقبالها والترحيب بها ولكنها كانت تخشى من الثرثرة والفضول والأسئلة التي لا ولن تنتهي، كان من الصعب أن تخبرهم بأنها هاربة من معسكر نازي ستقاد منه بعد حين لمحرقة أعدت خصيصاً للتخلص من اليهود، ذلك الجنس البشري الذى يرى هتلر أنه يجب التخلص منه على الفور وهى بعد لم تفهم لماذا ؟ هل تلك الخدعة التى سكبها فى أذن العالم قد أنطلت عليه بأن ذلك الجنس لا يرتقي لجنس بشرى ويجب التخلص منه فوراً .

وهل كان بأمكانها أن تصرح بذلك لأحد من المعارف، فهى قد نفدت بأعجوبة وتعلم جيداً أن هرب يهودي من معسكر نازي3* سيقيم الدنيا ويقعدها خوفاً على الأسرار التى قد تعرف .

1: كان يسكن بمصر عشرين الف يهودى فى النصف الأول من القرن العشرين

تلك الأسرار التى قد تقود ذلك الرجل للمشنقة وتقديمه كمجرم حرب ولكن كيف وبمجرد ذكر أسمه كان كافي بأن ترتجف الأجساد خوفاً ورعباً ؟ لذلك كان هناك الكثير من الأحتمالات عند أكتشاف هروبها والبحث فى ملفها أن يعرفوا أنها من مواليد القاهرة وغادرتها عن عمر الخمسة عشر عاماً لفرنسا ومن السهل التخمين بأنها قد فرت لمصر . لم تكن هي اليهودية الوحيدة التي فرت لمصر فكان أكثر يهود أوربا يفرون لمصر لما تتمتع به بسمعة طيبة فى معيشة اليهود بها . هذا بالأضافة أنها الأرض التى مستها أقدام أنبياء اليهود فهي بالنسبة لهم أرضاً أمنة , وكان الأكثر منهم رعباً من تعقب الجيش النازي لهم يفرون للجنوب الأفريقي .

لم تكن مصر بمنأى عن الحرب فمصر تحت الحكم الأنجليزي أحد دول التحالف ضد هتلر والأسطول الأنجليزي بالبحر المتوسط متمركز فى مدينة الإسكندرية ، ومؤكد يوجد الكثير من التنظيمات السرية النازية بمصر ، خاصة أن مصر يقطن بها الكثير من اليهود الذين أمر" هتلر" بتعقبهم للقضاء عليهم ، كما لو أنهم مجموعة ضالة من الجرذان نفذت من أحد الحجور لهذا العالم في غفلة منهم .

أجابتها السيدة بعيون متشككة :

ـــ ولكن هذه ليست بهيئة إيفلين تلك الفتاة الأنيقة الجميلة !

ـــ لقد حدثت أمور كبيرة مؤخراً بفرنسا ألم تسمعي بأمر الحرب ؟

ـــ إذن أقتربي حتى أري عيونك . فأنا أتذكر اللون الرمادي لعيون إيفلين الذى كان يشبه كثيراً لون عيون مشمش قطي .

أقتربت إيفا من القضبان الحديدية للشُراعة ونظرت لها السيدة بكثير من التمعن ، وأخيراً خلعت من عنقها ذلك المفتاح المعدني الكبير الذي يتدلي من حبل مجدول ويقف تماماً على مقدمة صدرها ثم أدراته فى الكالون وتكة ثم اثنتين أعقبتها أخرى وقامت بفتح الباب بقدر يسمح بجسد نحيل للفتاة ليمر .

تأملتها لفترة من الوقت ثم توقفت عند حذائها الذى يشبه الأحذية العسكرية وأبتسمت فى خبث وكأن هذا الشيء هو الوحيد الذى أستوقفها من مظهر الفتاة .

اخذت تتجول بعينيها فى أنحاء المكان لتكتشف فقر الأثاث ورداءة ذوقه ، كان عبارة عن طاولة مستطيلة أصطفت حولها عدد من الكراسي الخرزانية , وسجاد أحمر أندثرت نقوشه منذ الزمن , فى الجانب الأخر وضع طقم للجلوس أكل الدهر عليه وشرب ولا يصلح سوى أن يمنح لبائع الروبابكيا هذا إذا قبل الهدية .السقف عالي بما فيه الكفاية يتدلي منه خيط من السلك ينتهى بلمبة توزع إضاءة خافتة في أرجاء المكان . الغبار كسا أنحاء البيت ورائحة عطنة تفوح منه، فمن الواضح أن النوافذ لم تفتح منذ الأمد . ونجمة دواد تعلق كالعادة على مرأى البصر .

أشارت السيدة لها بالجلوس على أحد المقاعد و ما أن جلست حتي سقط بها للأسفل .ألقت إيفا نظرة سريعة على هيئة السيدة التى يصعب معها تحديد عمرها . ينسدل شعرها الأبيض المختلط بالأسود على ظهرها بينما تربط مقدمته بمنديل من البفتة البيضاء , ترتدي قميص نومها من الكستور وتضع فى قدميها زوجين من الجوارب الصوفية . تدل بكرة الكرة الصوفية وأبرة الحياكة التى وضعتها فوق المنضدة أنها هي التى قامت بغزلها فى زمن ما.

ـ أحكي لي ما الذى حدث لك وإين هم أهلك هل حضروا معكِ ؟

عُقد لسانها عن الكلام بماذا كان عليها أن تخبرها !!؟

انتظرت السيدة برهة من الوقت ثم قالت :

ـ ربما قد تعرضتِ لأمر مؤسف حقًّا ليبدل مظهرك من تلك الفتاة الجميلة لما أنتِ عليه الأن ولكن يجب أن أعرف الحقيقة حتي أستطيع مساعدتك أنا للحين لم اتأكد بعد أنكِ إيفلين !

ثم صمتت ودخلت فى تفكير عميق لتنطق بعدها قائلة :

ـ إذا كنتِ حقاً إيفلين أخبريني عن لون المعطف الصوفي الذى قمت بغزله لأمك لترتديه فى أحد الشتاءات الباردة ؟

بينما الفتاة أخذت تحدث نفسها قائلة :

ـ ما أمر تلك المرأة وأى معطف صوفي هذا الذى تتحدث عنه , لقد مر أكثر من عشر سنوات على مغادرتنا البلاد فكيف لى بالتذكر! ولكن أمها كانت مصابة بالحساسية من الصوف فهى تتذكر جيداً أنها لم ترتده سوى مرة واحدة فى ذلك اليوم العاصف، عندما ذهبت للتبضع وما أن دخلت للبيت كانت قد خلعته وألقت به أرضاً وبشرتها قد أكتست باللون الأحمر .

ـ كان بلون السماء الصافية .

ـ تماماً هذا لونه ، ربما لا تستطيعين الحديث الأن سأمنحك فرصة لبعض الوقت.

ثم بحركة بطيئة قامت من المقعد وأتجهت للمطبخ وهى تقول :

ـ سأعد طعام الأفطار .

هي التى كانت تتجاهل النظر فى المراة حتى لا تقع صاعقة المفاجأة عليها, كيف لها أن تمنع نفسها من النظر فى المراة الكبيرة للبوفيه الخشبي الذى يشغل الصالة، لذلك وجدت نفسها تقف متسمرة أمام ما أَلت إليه نفسها، رأس حليقة وعيون يحدها السواد وجسد نحيل . حاولت أن تبتسم كما عادتها دائماً كلما نظرت فى مراة لتضيف مظهر أكثر جمالاً ولكن من إين للجمال أن يأتى!! ؟

وضعت السيدة طبقين بكل منهما قطعة من الجبن الأبيض وزيتونة وكوبين من الفخار ؟،سكبت فيهما الحليب المغلي ودعتها للفطور .

ضحكت إيفلين عندما تذكرت أنها كانت تقضي على أكثر من عشر زيتونات دفعة واحدة الأن لا بأس بزيتونة!! وضعت الزيتونة فى فمها واخذت فى عصرها لأمتصاص سائلها ثم أخذت فى قضمها واخيراً لم يتبق غير البذرة فأخذت تلوكها بفمها ببطء ذهابًا وايابًا, فنظرت لها السيدة بإشمئزاز .

ـ عفواً فأنا أحب الزيتون كثيراً .

ـ نعم كان من السهل ملاحظة ذلك . ولكن لا تنسَى أن البلد تمر بأزمة تموينية والحصول على التموين يحدث بأعجوبة لذلك من الجيد أن نقلل كميات الطعام .

ثم وبلهجة جادة :

ـ أشربي الحليب لقد بَرد الأن .

ـ عذراً ، لا أحبه .

ـ ولكني سكبته وحليته بالسكر ومن المستحيل أن أسكبه فى الإناء مرة أخرى .

وعلى مضض أخذت ترشف من الحليب .

بعد أنتهاء الأفطار طلبت منها السيدة أن تنظف المائدة . إيفلين التى لم تزح طبقاً من مكانه ولم تجلب لنفسها كوب من الماء يوماً فقد كانت دوماً محاطة بفريق من الخدم لخدمتها ليل نهار ولكن الأن الأمور قد تبدلت وعليها أن تعلم ذلك جيداً لذلك أمتثلت لأوامر السيدة بكل أدب .

ـ أنا بحاجة للأغتسال فمنذ أكثر من ثلاثة أسابيع لم أتحمم .

رددت السيدة الكلمات في ذهول :

ـ ثلاثة أسابيع !

ـ نعم ...كيف كان لي لأحصل على ترف الأستحمام وأنا أختبيء بقبو المخلفات بالسفينة مع مجموعة كبيرة من اليهود الفارين .

ـ حسناً يمكنك نقل "وابور الجاز" من المطبخ للحمام وأشعالِه و وضع السطل النحاسي فوقه حتى يسخن الماء ولكن أحرصي على غلقه مباشرة بعد أن يسخن الماء لأن هناك أزمة فى الكيروسين هذه الأيام.

وكأنه لم تسمع شيئاَ مما تفوهت به السيدة سوى :

ـ وابوار الجاز وسطل معدنى !!!

ـ نعم وما فى ذلك ؟

ـ ولكني أجهل أشعال وابور الجاز .

ـ حسناً... تعالي معي لأريك طريقة أشعاله حتى يتسي لك بعد ذلك أشعاله بمفردك.

بعد أن أشعلت السيدة الوابور ماركة "بريموس" تأكدت إيفا أنها لن تستطيع يوماً أشعاله فطريقة أشعاله صعبة وخاصة رائحة الكيروسين التي كانت تكرهها بالأضافة لصوت الفرقعة التى يحدثها .

وضعت السيدة الموقد بالحمام وفوقه السطل النحاسي ودلو صغير معدني وأمرتها أن تجفف الحمام بعد الأستحمام . أستغربت إيفا لعدم وجود مغطس فى الحمام وليس هناك مواسير تحمل إليها الماء الساخن كحمامها الباريسي الفاخر .كان سقف الحمام متهالك يكاد يسقط فوق رأسها , والأرضية من بلاطات أكلحت لونها . نظرت حولها تبحث عن تواليت لتقضي حاجتها فلم تجد سوى حفرة محاطة ببلاطات عريضة على الجانبين.

ـ يا الله هل مازال أحداً يقضي حاجته فى مثل تلك المراحيض ما أمر تلك السيدة ! ؟

وفى هذا الحمام المتواضع وجدت إيفا نفسها تتأقلم مع كل الظروف الجديدة . ربما لم يكن هذا هو الحمام الذى كانت تحلم بأن تأخذه بعد كل تلك الأيام الصعبة التى مرت بها وكل تلك الروائح الكريهة التى علقت بجسدها ولكن على أى حال كان أرحم من حمام المعسكر النازي ورابت السيدة الباب وناولتها منشفة نظيفة وجلباب من الكستور خاص بها وطلبت منها أن تقوم بغسيل ملابسها المتسخة .

فى المساء وبينما هما تجلسان فى مقابلة بعضهما الأخرى.كانت السيدة ديدو كما طلبت من إيفا أن تطلق عليها- تغزل شالاً من الصوف تحرك الإبرتين بيد عصبية وتتدلى البكرة الصوفية على الأرض مستقرة بين قدميها ، بينما كانت إيفلين تبدو ضئيلة الحجم داخل الجلباب الكستور الخاص بالسيدة ديدو تخفى أكمامه الطويلة يديها وتجلس متأملة فى السقف تفكر فى مصير أهلها الذى كانت تعلمه تماماً ولكنها كانت تطمع فى معجزة من السماء تنقذهم من ذلك المصير المريع .

ـ هل من عادتك قلة الحديث أم أنك لا تردين الحديث معي ؟

ـ أبداً خالة ديدمونة أقصد ديدو ولكنك لم توجهين لى أيًا من الأسئلة كما أنى وجدتك مشغولة بالحياكة.

ـــ هيا أحضرى السبرتاية والكنكة لنصنع لنا فنجانين من القهوة وتقصي على قصتك ؟

لم يكن من عادة إيفلين شرب القهوة فى المساء ، ولكنها خشيت أن ترفض فتصب تلك السيدة جام غضبها عليها .

لقُّمَت السيدة القهوة وأخذت فى تقليب المحتويات بالمعلقة الذهبية الطويلة وبكسل شديد نضج البن وقامت بصبه فى فنجانين من الصيني المنقوش عليها مشهد غرامى لرميو وجيوليت . فاحت رائحة جميلة فى أنحاء المكان .

ـــ هيا قصى لى قصتك .

قالتها ديدو وهى ترشف من القهوة .

وكأن رائحة القهوة قد أنعشت الذاكرة فربعت إيفا ساقيها على المقعد الوثير ،وحضنت فى يدها فنجان قهوتها وأستعدت لسرد حديث قد يطول .

جاء سفرنا لفرنسا لرغبة أبي لتحقيق طموحاته في الثراء السريع ، كثيراً كنت أسمع أمى تثنيه عن هذا القرار ولكنه كان متشبث الرأي كطفل صغير ، وخاصة بعدما تفرقوا أخواته فى شتى الدول الأوربية , بل والأكثر من ذلك أنه سافر نازعاً وراءه أى أثر له فى تلك البلاد فكل أملاكه كان قد باعها حتى الشقة التى طلبت منه أمي أن يبقى عليها تحسباً لأي ظروف وحتي تكون مأوى لها إذا فكرت يوماً القدوم لمصر لقضاء عطلة مع الأهل والأصدقاء ولكنه رفض وبشدة وسخر منها قائلاً :

ـــ سيكون معك من الأموال وقتها ، ما يتيح لك بالإقامة بفندق شبرد أو الهيلتون .

غادرنا البلاد أنا وأمى بالكثير من الدموع والذكريات بينما كانا أخي فبيان وأبي يملؤهما أمل وتفاؤل ولم يعيرا للماضي أنتباهاً ، قطعنا المسافة من القاهرة للإسكندرية دون أن يتفوه أحد بكلمة كان الحزن يجثم على السيارة الأجرة التى أستقللناها. أتذكر كيف كنت أدير رأسي فى مقابلة الزجاج الخلفي للنافذة ،أودع الشارع والصبية الصغار من اطفال الحي الذين كانوا يركضون وراء السيارة يلوحون لنا بكفوفهم الصغيرة . توقفت عن الحديث عندما تذكرت قامة فارعة للشاب الذى يقطن فى المنزل المواجه لها والذى كان يبادلها النظرات بدون التفوه بكلمة، خرج هو ايضاً فى وداعها لكنه وقف بمحاذاة الرصيف يلوح لها فى حزن، تراه إين هو الأن ؟

وأخيراً أستقللنا الباخرة التي سوف تنقلنا لباريس . لم يغادر الحزن أمي بل ظل مرابطًا لها حتى أنها طوال الرحلة لم تغادر قمرتها إلا لتناول وجبات الطعام ، بينما تخليت أنا عن حزني وذكرياتي وبدأت فى التخيل للحياة الجديدة التى فى طريقي إليها كنت كثيراً ما سمعت عن باريس من رحلات صديقاتي المتكررة لها وكيف أنها مدينة الفن والجمال، لذلك عقدت الذكريات الحزينة المحتشدة فى ربطة وخزنتها بعيداً في زواية ما من الذاكرة وأفرغت مساحة كافية لبلد ساحرة فى طريقي إليه . أما عن أبي وأخي فكان الأمل يملؤهما بما فيه الكفاية .

غادرنا الباخرة وأستقللنا القطار لمدينة باريس وهناك لم نكن قد أستقررنا، بعض لذلك كانت أقامتنا فى فندق متواضع فى شارع "فابورج بواسوانيار " وهي منطقة يكثر بها بها اليهود . دَّبر صديق لأبي محل ليتاجر فيه ببيع الأقمشة فى زقاق ضيق وشهير ببيع الأقمشة والأزرار و تحتشد فيه البوتيكات الصغيرة لبيع الفراء بجميع أشكاله وأنواعه . نجحت تجارة أبي و أنتقلنا بعدها للأقامة فى العيش بشقة فى المنطقة السادسة عشر وهى من أرقى مناطق باريس و قبل أن تمر أقامتنا بها على العام ، كنا قد أنتقلنا للسكن فى فيلا خاصة فى حي سان جيرمان الأكثر رقيًا و يجاورنا في السكن أعلى طبقات باريس أرستقراطية .

مع الوقت سطع نجم أبي فى تجارة الأقمشة وخاصة أنه كان على علاقات جيدة بتجار الأقمشة فى الشرق الأوسط ،فكان يستورد منهم الديباج والمخمل والأقمشة الغريبة والغير معروفة والتى سال لها لعاب الفرنسيين . سريعاً قام بشراء أكثر من متجر فى أنحاء باريس التجارية الشهيرة وذاع صيت محاله ولم يكتف بذلك بل أدخل فى هذه المحال كل ما يلزم الحياكة من حُلى و مشغولات . وكان المُورد الأول لأكثر مصممي أزياء باريس شهرة " لوماندى" و" كوكو شانيل *1 التي أرتبطت مع أبي بصداقة عميقة وكانت من أحد أسباب شهرته في تلك البلاد . لم يتوقف طموح أبي على ذلك، بل أفتتح مصنع لصناعة أوفريول العاملين فى المصانع الحكومية ومع الوقت أحتكر صناعة هذا النوع من الملابس . وبذلك كان من السهل أن يتغلغل داخل الأوساط الفرنسية الراقية، ومنها للمجتمع السياسي والجلسات السرية التي تعقد بين كبار رجال الدولة والصناعة والتجارة ، لذلك وبعد فترة قصيرة ونظراً لأنشغال أبى بأعماله كنت قليلاً ما المحه , وقد كان يحدث ذلك أثناء مروره

فى الردهة مساء أو تلويحي له صباحاً من خلف النافذة الزجاجية وهو يهم بركوب السيارة السوداء الكبيرة التي يقف سائقها فى بذلته الرسمية ويقوم بفتح بابها له بالكثير من الاحترام .

أما أمي فلم تتبدل ، لم يغيرها المجتمع الفرنسي بحضارته وأناقته فظلت كما هي منغلقة على نفسها .ترتدى الملابس الأكثر بساطة والأقل أناقة حتى أن مدام كوكو شانيل كانت قد أخبرتها بأنه من غير اللائق أن تكون زوجة أشهر تاجر للأقمشة ببلد الأناقة وترتدي مثل تلك الملابس,ودعتها لزيارة متجرها الجديد لأختيار ما يعجبها من أزياء ولكن أمي كعادتها هزت رأسها موافقة ثم تركتها وذهبت . ولم أذكر أنها زارت متجرها قُط ، حتي الفساتين التى أرسلها متجر كوكو شانيل فى صباح أحد الأيام الباردة لم أذكر أني رأيتها وقد ارتدت أيًا منها يومًا. ربما اكتفت بوضع العطر الذى ينتجه بيت أزياء كوكو شانيل ، سكبت بعضاً من قطراته على عنقها ورسغيها.

أخذت نفس عميقاً ثم أكملت حديثها :

كانت حزينة وحيدة وإنشغال أبى عنها زاد من أحساسها بالوحدة كل ما كانت تصنعه هناك فى باريس هو التجول فى أنحاء المدينة سيراً على قدميها تحت المطر حتى تصل للمكتبة الوطنية الفرنسية والجلوس هناك بالساعات للقراءة فقد كانت معلمة اللغة الفرنسية بمدرسة قطاوى الخاصة قبل أن ترتبط بالزواج من أبي ، وكانت تعشق القراءة كثيراً . نصحها أبي بالأنضمام لرابطة اليهود التى تعقد ندواتها في أيام السبت بعد الصلاة ، حيث تناقش هناك مشاكل اليهود فى أنحاء العالم وخاصة فرنسا والعمل على وحدتهم وأتحادهم ، ربما أنصاعت لكلامه وذهبت مرة أو أثنتين ولكنها لم تذهب مجدداً . كانت ترى أن يهود أوربا الاشكناز1* يختلفوا اختلاف كلي عن يهود الشرق من السفارديم2* فى كل شئ فلم يكونوا على هذا القدر من التدين والتمسك باعتقاداهم الدينية .كل همهم أن يتوحد اليهود ويكونوا أكثر تماسكاً أم تلك الاختلافات الجوهرية من يهودي قادم من مصر أو من سوريا أو المانيا فلا يهم وقتها . وكان اكثر شيء يدعو لغيظ أمي منهم تلك النظرة المحتقرة ليهود الشرق فدوماً كانوا يعتقدون بأننا أقل شأناً منهم .

ديدمونة لم يعنيها من حديث إيفا شيء ولم يستوقفها منه سوى تلك العبارة الأخيرة " اقل شأناً منهم " لذلك قطعت حديثها قائلة :

_ لذلك سنظل دوماً مشتتين فى أنحاء الأرض ولن نجتمع أبداً .

كانت أمي كثيراً ما تنزوي فى ركن ما من حياتها السابقة ،حيث تستعيد ذكريات الماضي ولم تكن لتمل من مشاهدة البوم الصور لها هي وأهلها فى مصر.

_ مسكينة أمك فهي كانت دوماً مطيعة وهادئة حتى بالكاد كنت أستطيع أن أسمع صوتها وهى تتحدث بينما صوت أبيكِ كان يصُم الأذان.

_ نعم كانت أمي مختلفة عنه تماماً وربما لم تحبه يوماً .كان هذا واضح فى نظرة الحزن التى بعينيها ولكنها لم تستطع يوماً أن تعبر عن ذلك أو حتي تعترض على شيء .

دمعة ساخنة تسللت من عين إيفا وببطء شقت طريقها على وجنتيها، عندما تذكرت أى قدر مؤلم عاشته أمها ، وأى نهاية أكثر ألماً كانت من نصيبها .

فى محاولة من ديدو لتخرج إيفا من الذكرى المريرة أبتسمت قائلة :

ـ وأنت ماذا عنكِ أعتقد أنكِ جعلت كل شباب باريس يقعون فى غرامك ؟

ربما كانت تحاول أن تخرجها من أحزانها ولكن كان لسؤالها وقع غير ذلك تماماً عليها ، لأنها فتحت أبواب لذكريات أكثر ألماً فأخذها ذلك السؤال هناك على شاطئ الريفيرا، ذات صيف عندما كانت تعتلى المنصة بعدما أذاعوا أسمها فى المذياع لحصولها على لقب ملكة جمال الشاطيء حيث كانت الفتاة الأكثر أناقة وجمالاً فى المجتمع الباريسي . فى صيف 1940 كانت تعتلى المنصة بكثير من علياء وهى ترتدي مايوه الجيرسيه المطاطي وضعت عليه علامة الصنع الخاصة بمتجر أزياء كوكو شانيل .كانت ملامحها مختلفة كثيراً عن الفرنسيات بشرتها ذهبية اللون وعيناها مزيج من الرمادي والأخضر، بينما شعرها فاحم السواد، وفي قوامها الممتليء شيء من أنوثة تشي بها شرقيتها التي تضج بتضاريس وحرارة هذه البلاد ، لذلك كان من السهل ملاحظة أنها غير فرنسية ومن الصعب أيضاً التكهن بهويتها ولكن ألم يكتب في خانة الجنسية " بلا هوية " !؟.

عندما توقفت أمام تلك الخانة ذات يوم ألمتها الكلمة، بالرغم أنها لم تكن بسن كافية لتدرك بعد ماذا تعنى بلا هوية، ولكنها وهي شديدة الذكاء والاهتمام بالتفاصيل لم تمر عليها هذه الجملة مرور الكرام لذلك عندما وزع أبيها على كل فرد من أفراد أسرتها جواز السفر الخاص به فى ذلك اليوم قبيل سفرهم لفرنسا بعدة أيام هي الوحيدة التي سألته .

ـ ولكن أبي... ما الذي تعنيه (بلا هوية) أولسنا مصريين ؟ ألم اولد فى ذلك البلد وأعيش وأحي بها!! ؟

عقدت المفاجأة لسان أبيها الذى لم يكن ليتصور أن تلك الكلمة ربما تسوقف أحد من أبنائه، ولكنه تدارك الموقف سريعاً قائلاً :

ـ لا عليك ... سنذهب إلى فرنسا وهُناك سنتدبر أمرنا وسنحصل على الهوية الفرنسية و وقتها سننتصر على من رفض أن يمنحنا أنتماءنا لهذه الأرض , ها قد رأيتِ بنفسك لماذا أُصر علي أن أترك هذه البلد بلا رجعة .

أخرجتها ديدو من أفكارها عندما سألتها :

ـ هل فلحتِ فى أن تجعليهم يقعون فى غرامك ؟

ـ لم أكن أسعى لأجعل أحد يقع فى غرامي وحتى لم أكن أبالي ، فى الوقت الذى ذهب كل من أفراد عائلتي للدرجة القصوي فى كل شيء سواء فى الحزن أو الفرح فى التمتع بالحياة الجديدة أو العيش فى أجترار ذكريات الماضي .كنت على عكس الجميع معتدلة فى كل شيء، لم أذهب لمنتهي أي حالة من الحالات ، لم أحزن وأنغلق على نفسي كما أمي ، و لم أنطلق فى طرقات الحياة الجديدة كأخي فابيان الذى كان يقضي وقته صباحاً فى الذهاب للشواطيء والفنادق لاحتساء قهوته واللهو، ومساءاً فى علب الليل والحانات وأصبحت طاولة القمار هى كل ما يطمح إليه بدءاً من العجلة الدوارة إلى الطاولة الكبيرة الخضراء، وساعده فى ذلك طبعاً الأموال التى كان أبي يغدق بها عليه ولا يسأله أبداً فيما كان ينفقها ، بينما أصبح أبي شاغله الشاغل هو الواجهة الأجتماعية المشرفة والتى لم يكن ليوفرها له سوى الثراء السريع . تفككت أسرتنا الصغيرة المترابطة ولم تعد تجمعنا طاولة طعام واحدة حتى مائدة السبت التي كانت أمي تتفن فى صنع أصنافها الخاصة, وتنتظر رجوع أبي وأخي من المعبد بعد أداء صلاة السبت ونحن نجلس لندعو الله أن ينهى أبى صلاة الطعام بسرعة حتى يتثني لنا أن نلتهم الطعام الشهي اصبحنا لا نجتمع على مائدة الطعام سوى فى هذه الأحتفالات التي نَدعو إليها أو تلك التي يقيمها أبى ويدعو فيها الكثير من الشخصيات

البارزة فى المجتمع . كنت عندما أهبط درجات السلم الرخامي وأجد الخدم يعملون على قدم وساق فى نظافة وتنظيم المكان ، ترص إيزابيل الكاسات الكرستالية أمامها على المائدة الخشبية المستديرة وتحرص على تلميعها بمنشفة خاصة بها الواحدة تلو الأخري . ايزابيل اختارتها كبيرة الخدم فى المنزل مخصوص للعمل هذا الشيء بعدما أختبرت نحافة ورشاقة أصابعها التى تولج داخل الكاسات بسهولة وخفة لنظافتها .

_ دعينا من إيزابيل وأحكي لي ماذا كنت تفعلين بحياتك؟

_ فور استقرارنا بمسكنا الجديد التحقت بمدرسة ليسيه فرانسيه، وأنهيت تعليمى الثانوي بها وحصلت على أعلى الدرجات. قدمت أوراقي هناك فى السوربون لدراسة القانون . كان حلمي الألتحاق بهذه الجامعة التي تعد من أعرق جامعات باريس ,لذلك عملت جاهدة لأصل لذلك الشرف ورغم صعوبة المواد التى تُدرس بها فأنني أنهيت تعليمى بتقدير جيد ، وفي الوقت الذى كان نادراً ما تلتحق فتاة لتتعلم القانون كنت أحوز على أعجاب أساتذتي وغيرة زُملائي الذين كانوا أباؤهم يعملون فى السلك القانوني فى البلاد ولكني كنت أفوقهم تقدماً ونجاحاً . بالرغم من ذلك كنت أحرص على التمتع بحياتي فكنت أخرج لأحتساء القهوة بالحليب والرغوة على وجه فنجانها فى مقاهي "الشانزليزيه" فى الأيام الباردة أو التجول مع الصديقات والتمتع بأكل الأيس كريم المثلج اللذيذ فى الأمسيات الصيفية . كنت أتبضع من متجر كوكو شانيل وأذهب لاشهر مصففي شعر باريس لذلك كنت محط أنظار الجميع لأني أملك قدر كبير من النجاح الدراسي والثقافي و قدر موازياً له فى الأناقة والجمال .

مرت الأيام سريعاً وتخرجت من الجامعة بتفوق، بينما أخي كان متعثراً فى صفوفه الدراسية بالكاد ينهي عاماً دراسياً ،بعدما يدخل اعادة للمادة المرة تلو الأخري . كان كل شي يمر بهدوء ويُسر .حتى جاء نبأ الحرب وأنقلبت حياتنا رأساً على عقب . كل شيء تبدل وخاصة مع الأخبار المؤلمة التى كانت تطالعنا بها الصحف . كان سكان باريس يتركون شققهم ويذهبون للريف الفرنسي والمناطق النائية التى لن تطولها الحرب وأصبحت بيوتهم موصدة كقبور موتاهم ،بعدما أصبح جراء غارة ليلة واحدة أن تختفي فيه من الوجود معالم حي وشوارع وطرقات بأكملها ، أصبح الكل يملك ما يكفيه من ذعر على حياته ومتلكاته كنا نخطط للنزوح للريف الفرنسي وطلبت أمي من أبي غلق محلاته ومصانعه مؤقتاً ,ولكنه رفض وبشدة فمصانع أبى وقبل الحرب بفترة زمنية قصيرة وأزاء صفقة كان قد أتمها مع رجل حرب فرنسي أوكل له مهمة خياطة ملابس الحرب للجنود الفرنسيين من نوع مختلف من الأقمشة نوع قوي ومتين ، على أن يحصل على أموال طائلة مقابل ذلك . كان "هوجو بوس" هو مصمم الزى الخاص لجنود النازية ، ذلك الزى الذى أشتهر بكآبة مظهره وطلب رجل الحرب من أبي شيء شبيه بذلك على أن تقوم بتصميمه مصممة الأزياء الأكثر شهرة فى فرنسا كوكو شانيل .

تورط أبى فى ذلك العمل ،لأنه ببساطة كانت قد وصلت أخباره لقادة النازية وفى الوقت الذى كان يحرص اليهود على أخفاء هويتهم ، فالنازية أعلنت التخلص من ذلك العرق الذى لا يمت للبشرية بصلة بل هو أساس خراب العالم. وفى الوقت الذى كنا نخطط فيه للفرار من طريق الحدود الفرنسية السويسرية للذهاب لأبعد بقعة فى العالم وأن كانت جزر واق الواق ، وجدنا أنفسنا في أحد الصباحات الضبابية يقبض علينا ونقيد ونلقي فى شاحنة مظلمة مخصصة لنقل الماشية بها عدد كبير من اليهود الفرنسيين الذى لم يمكنهم حظهم العسر من الفرار، ومن الشاحنة للقطار وبعد أن هبطنا منه، كان علينا أن نسير لمسافة طويلة حتى نصل للمعكسر الواقع فى الريف البولندي ، وكان من يمرض أو يسقط تعباً و وهناً من تلك الرحلة يضرب فوراً بالرصاص للتخلص منه دون السماح لأحد من أقاربه بمساعدته أو حتى بوداعه الأخير وإلا قد يلقى نفس المصير . أتذكر مشهد تلك السيدة التى ركعت أرضاً لتطوق جسد أحد أطفالها الذى أنهكه التعب فما كان منهم ألا أن افضوا

فى جسدها الضعيف رصاصة اردتها قتيلة ، حذروها بأن تواصل السير ولكنها كانت تجهش بالبكاء وسط بركة دماء أبنها ولم تذعن لأوامرهم فالقوا عدد لا بأس به من الرصاصات لتثقب الجسد وتفضي بالروح وتنتقل للعالم الأخر وهى راكعة فوق جسد طفلها تتوسده.

بعد زفرة ألم :

ـــونهاية تلك الرحلة المؤلمة معكسر " اوشويتز " النازى الذى يعد من أكبر معكسرات أبادة اليهود

عند معسكر " اوشويتز " توقفت عن الكلام وكأن غصة فى الحلق منعتها أن تستكمل . وأعتذرت للسيدة بأنها غلب عليها النعاس قادتها السيدة للغرفة التى سوف تبيت فيها لياليها .كانت غرفة واسعة بفراشين مرتبين وكأنهما على انتظار جسد متعب و روح منهكة لتلقى على أياً منهما ,كانت الستارة من الحريرية مسدلة على النافذة الخشبية وهناك منضدة للزينة وضعت عليها فرشاة للشعر وبرواز لصورة فتاة جميلة . وفى ليلتها الأولى على هذا الفراش طارد إيفلين الكثير من الكوابيس التى منعتها لتنعم بنوم هاديء ومريح .

كان صباحاً شتوياً مشمساً . عندما كانت الحياة تستيقظ فى هذا الشارع ، نسوة يفتحهن شرفاتهن ويضعن اغطية الفراش فى الشمس لتنال قسطاً من التهوية، وأخريات تقمن بنظافة منازلهن .. اطفال يركضون باتجاه مدراسهم يرتدون المرايل التي فصلت من القماش (الدمور) ويحملون حقائبهم الجلدية فوق ظهورهم ، يقف عم أحمد امام سطل الزيت المغلي يلقي فيه بكرات الفلافل ليقليها فى الزيت فتنبعث منها رائحة شهية ، بينما بائع الجرائد ينادي (أقرأ الخبر) ولكن أى خبر هذا وكل الأخبار تشابهت؟ !

ألقت بتحية الصباح على ديدو التى كانت تجلس على مقربة من المذياع الذى يشبه صندوقًا خشبيًا كبيراً وتبث منه أخبار الحرب . وغالبا كانت هذه السيدة من الصعب أن تجلس دون أن تشغل يديها بفعل شيئاً ما. فها هي تضع سطل كبير من الخضار أمامها وتقوم بتنظيفه وأعداده للطهي ، ألقت عليها أيفا تحية الصباح .

_ الأفطار مُعد على الطاولة يمكنك صنع كوب من الشاى لكِ اذا أردتِ .

جلست لتتناول الطعام الذى كان يشبه أفطار الأمس تقريباً عدا كوب الحليب المغلي .

_ هل فكرت فيما سوف تفعلينه فى حياتك ؟

_ لا ليس بعد.. لا أملك أى خطط .

كانت هيئة الفتاة كفيلة بأن تشي بأى فقر هي ، وبأنها ربما لا تملك الكثير من الأموال بل لا تملك أموال من الأساس ، لذلك لم تخجل ديدو وهي السيدة الأكثر حرصاً على أن تخبرها :

_ كما تعلمين أنا لا أعمل وليس هناك من معاش أو أرث لى لأعيش منه، ولولا تلك المنحة التى تمنحني أياها جمعية أوفياء الوصايا العشر الخيرية ، لما كنت أستطيع العيش ، وللأسف تلك المنحة بالكاد تكفي مطالبي، لذا أنا أسفة أن أخبرتك أنه يجب أن تحصلي على عمل لتتكفلي بإعاشتك ، أما عن إقامتك هنا فاهلاً وسهلاً بك .

_ نعم .. هذا ما أفكر به ، ولكن أحتاج بعضاً من الوقت لأتدبر أمري ، لعلك تتساءلين لماذا أنتِ دون عن الأقرباء والأصدقاء واسعي الثراء التى لجأت اليها ؟

_ نعم... هذا تماماً ما كان يشغل بالي ، ولكني أمتنعت أن أسالك حتي لا تعتقدي أني لا أرحب بكِ هنا .

_ أنا فارة من معكسر نازي ومعي الكثير من الأسرار التى تحرص النازية على عدم البوح بها ، وللأسف يتمتع معارفي بجبهم للثرثرة بجانب أنهم أول من ستفتش بيوتهم بحثاً عنى هناك ، لذلك فكرت كثيراً ، وأخيراً كان قد وقع أختياري عليك حقاً نحن لا تربطنا علاقة قوية ، ولكني كنت أثق فى ترحيبك بي ، وأتمني أن لا تخبري أحداً بأمري ايًّا كان ، حتى أسمي يجب أن نستبدله بأخر، أما عن شكلي فكما ترين لقد تبدل بما فيه الكفاية عن إيفلين التى تركت مصر وهي مازالت فى الخامسة عشر والأن هي فى الخامسة والعشرين .

فجأة وبدون سابق أنذار سألتها:

_ متى حلقت رأسكِ ؟

_ منذ ما يزيد عن ثلاثة اشهر .

_ ولماذا لم ينمو شعركِ ؟ فقد مر وقت كافٍ ليَنمو الشعر مجددًا ؟

_ لا أعلم ولكن هل يضايقك منظري هكذا ؟

_ لا .. لا يضايقني، ولكن مظرهك هكذا سيكون مدعاة للشك والفضول، فيجب أن تطوقي رأسك بإيشارب أو ترتدي قبعة أو شعراً مستعار .

مر الأسبوع الأول سريعاً فى هذه البلاد ولم تخطُ قدم إيفا الطريق ، ولكن على أى حال كانت قد أستعدت بعض عافيتها، فالهالات السوداء التى كانت حول عينيها قد أختفت، ولون بشرتها الشاحب قد تورد مجدداً .

لم تكن السيدة ديدو بمثل ذلك السوء الذى كانت تعتقده عنها ، فهى تملك من الحنان الكثير .كانت تهتم بها وترعاها لولا حرصها الشديد فى الأنفاق كان لا يعيبها شيء ، ولكن الحرص الشديد أنه من عادة اليهود جميعهم وخاصة يهود الشرق فما العيب إذن ؟

كان هناك سر ما وراء تلك السيدة التى كانت من عاداتها يوميًا فى السابعة مساء ، أن تتأنق وتتعطر وتصفف شعرها وتجلس على البيانو الأسود الموجود بحجرة الصالون تلك الحجرة التى وضع بها طقم صالون مذهب ، وفي إحد الزوايا وضع بيانو أنيق الماني الصنع هو أفخم ما يوجد فى المنزل ، لكأن وجوده هنا بين كل ما يحتويه المنزل من كراكيب مهانة له . تعزف ديدو على البيانو مقطوعات موسيقية كمحترفة وليست كهواية تمتد المقطوعة الواحدة لوقت طويل وتندمج ديدو مع الأنغام تعزف بكل ما أوتيت من حب ومن حنان ومن أحتياج وفقد . تجلس إيفا تستمع لعزفها وتراقب أنحناء ظهرها المنحني فوق البيانو و تتابع حركات يديها العصبية تارة والهادئة في أخري ، تاخذها الموسيقى لهناك لمسافات بعيدة عبر الزمن وعبر القارات عندما كانت تضع الأسطوانة فى الجرامفون وتستمع (لشوبان)إعازفها المفضل هل هناك شبه بين عزف شوبان وعزف ديدو ؟ لماذا تشعر أن هناك شيئاً ما يربط فيما بين عزف كلاً منهما ؟ ذلك الشجن المشوب بالحزن والذى يجعلك رغماً عنك تبكي , تبكي كما لم تبكِ من قبل .

بعد أن انتهت ديدو من عزف المقطوعة سألتها ايفا وهى تصفق بحماس بكلتا يديها وعيناها قد أغرقت بالدموع :

ـــ برافو ولكن إين تعلمتي ذلك ؟

نابت أبتسامة حزينة عن جوابها ولم تجيب .

كانت ديدو طباخة ماهرة تتفنن فى صنع أصناف كثيرة ولذيذة من الطعام، وكان من عاداتها أن تضيف الأعشاب العطرية لكل أصناف الطعام فتكسبها طعمًا جميلًا . فى يوم الجمعة حرصت على نظافة المنزل والاستحمام. وكانت قد أحضرت معها من السوق فى اليوم السابق اللحوم والخضروات الطازجة وضعت الأنية النحاسية الكبيرة على نار هادئة لتسوية الدفينة وهى وجبة طعام دسمة مليئة بالتوابل ، وطلبت من إيفا مساعدتها فى تنظيف المنزل ولأن إيفا لم تكن تتقن أن تضع السجاد على سور الشرفة ونفضه بالمنفضة الخشبية لأزالة الغبار عنه ولا حتي في أستطاعتها أن تضع الماء فى الدلو المعدني وتقوم بدعك الأرضية بالفرشاة ثم تجفيفها بقطعة قماش من الخيش القاسي .لأنها لم تتقن هذا أو تلك أكتفت بأنها مسكت الريشة المخصصة لازالة الغبار من على الأثاث و قدمت يد المساعدة بذلك . بينما تكفلت ديدو بالمسح والكنس ثم توجهت للمطبخ للأعداد لمائدة طعام كبيرة تسَعُ أكثر من عشر أفراد . سألتها إيفا مستغربة :

ـــ ولكن هل سيزورنا ضيوف ؟

ـــ نعم احياناً أخواتي الذكور بعد إنتهاء صلاة السبت يأتوا لنتناول غذاءنا جميعنا بينما تسبقهم زوجاتهم وبناتهم، وقد اخبروني بقدومهم غداً .

ساعدت إيفا فى إعداد المائدة مع ديدو أوكلت لها مهمة صنع الأصناف السهلة كطبق السلطة وتقشير البطاطس وقليها بالزيت . رصت

الأطباق على الطاولة وتوسط المائدة صحن الدفينة والتى تتفنن ديدو فى طهي هذا الطبق المتوارث عن أجيال بعيدة من الأمهات والجدات.

كانت إيفا تجلس فى غرفتها عندما طرقت ديدو الباب عليها ودخلت دون أنن يؤذن لها . تحمل بيدها شماعة علق عليها فستان حريرى أزرق و قبعة مستديرة مزينة بفيونكات من الساتان وضعت الفستان على الفراش الأخر ونظرت لإيفا قائلة :

ـــ هذا لك . عليك أن ترتديه الأن قبل وصول الضيوف .

وخرجت من الغرفة مثلما دخلتها. بينما كانت إيفا تفكر ما أمر تلك السيدة التى ولكأنها لا تعرف سوى أن تلقي الأوامر ولا تملك فن المحادثة ولكن على كل حال قد أعجبها الفستان كثيراً .وقفت أمام المرأة واخذت تلتف يمنة ويسرة لتتأكد من حسن مظهرها .كان الفستان على قياسها تماماً وغالباً لم يلبس قطُ بالرغم أنه غير جديد فتصميه كان موضة منذ عدة سنوات مضت تتذكر جيداً عندما كانت أمها ترتدي هذا الموديل . أخيراً احكمت وضع الشابو فأخفى رأسها الصلعاء فعادت جميلة كما كانت في السابق ، فقط كان ينقصها حذاء عالى الكعب لأن حذاءها العسكري كان لا يليق مع فستان يحمل كل تلك الأنوثة فى طياته .

عندما خرجت للصالة كانت ديدو لا تزال منكبة على وجهها ترص الملاعق والشوك عندما نظرت إليها وأبتسمت بملء فمها وهى تقول:

ـــ إنظرى ما أجملك أنه على قياسك تماماً .

ـــ نعم لمن كان هذا الفستان ؟

وكعادتها فى تجاهل الرد على الأسئلة تجاهلت الرد على السؤال وبدلت مجري الحديث قائلة :

ـــ ابحثي فى خزانة الأحذية على حذاء على قياسك ربما تجدي أحدهم .

وفى خزانة الأحذية كان هناك الكثير منها بكعوب عالية وعلى أحدث صيحات موضة سنوات مضت ،تساءلت إيفا :

ـــ ترى لمن كانت ؟

فديدو عند خروجها تحمل بيدها حقيبة من الكانفاه و ترتدي معطف صوفي وتعقد إيشارب فوق شعرها بينما لم تضع في قدميها يوماً سوى زوج من الأحذية من الجلد الأسود اللامع بدون كعب يشبه الأحذية المدرسية . أما عن كل تلك الأحذية النسائية ذات الكعب العالى فربما كانت لأخت من أخواتها . لمحت حذاء مناسب للون الفستان وعلى قياسها تماماً فأبتسمت فرحة والتقطه سريعاً .

رنين الباب لا يتوقف ... حضرت أخوات ديدو وزوجات أخواتها وبناتهن، بينما الرجال ذهبوا لقضاء الصلاة فى معبد بوابات السماء .كانت الأعمار مختلفة والوجوه متشابهة ، فيهود الشرق تجمعهم جميعاً سحنة واحدة ومن السهل التعرف عليهم وكأنهم نسلوا من أب واحد عكس يهود أوربا مخلطي الأعراق ، عرَّفتهم ديدو على إيفا قائلة :

ـــ ناديا أبنة إحدى صديقاتي من الأسكندرية ونظراً للظروف السيئة التى تمر بها الأسكندرية بعثت بها أمها للقاهرة لتبحث عن مسكن وعمل لها هنا فالأمور هناك تزداد سوء و لا تنبأ بخير .

تعالت همهماتهن :

ـــ اووووه ... نووووو ... يالأسف !

ثم أخذت كلاً منهن تصافحها و تتفحصها و هى تعرفها بنفسها . أسماء كثيرة مرت عليها :

ـــربيكا ,كارلا, الكسندرا, ريتا, رافيل , لولا , لوليتا , و .... و .... و ... و

لم يعلق برأسها سوى كاتيا بنت أخو ديدو الفتاة الأكثر جمالاً وأناقة والتى تقريباً من نفس عمر إيفا وتعمل مدرسة بمعهد أيطالي للفنون ,

أخيراً ضج المكان بالصخب الأنثوي بعد كل هذا السكون الذى كان يسكنه . تعالت الضحكات النسائية وشغلت المساحات الفارغة من الهواء بأرواحهن وانتشرت عطورهن ، طقطقت الأرضية الخشبية تحت وقع الكعوب العالية ، وتهامست الألسن بأحاديث إباحية خاصة جداً ، و صراخ الأطفال كان يرج جدران المكان .

وفجاءة توقف كل هذا الصخب عند قدوم أصوات ذكورية جاشة يسبقها سعالها الجاف رجال بأعمار مختلفة يحملون الكتاب المقدس بيد وبالأخرى العشبة العطرية من زهرة القرنفل التى يوزعها عليهم الحاخام بعد كل صلاة ,تلك العشبة البرية التى تفرك فى اليد فتخلف ورائها رائحة جميلة فاحت فى أرجاء المكان . توالت ربيكا اخت ديدو مهمة تعريف الضيفة الجديدة . شدوا جميعهم على يديها بحرارة اللقاء وحده العم شالوم والد كاتيا بساقه العرجاء وعينه الضيقة الحادة ، نظر لها بكثير من الريبة والشك وأخذ فى ملاحقتها بالأسئلة ، أين كانت تعيش بالإسكندرية ؟ وماذا كانت تعمل ؟ و و و ؟ أنقذتها منه ديدو عندما طلبت من أيزاك الأخ الأكبر سناً أن يتلو الصلاة لأنهم يتضورون جوعاً .

تعالت أصوات أحتكاك الشوك والسكين بالأطباق ولم يمنعهم الغذاء الذى كانت يملأ أفواههم عن الثرثرة والكلام ثم توقف الحديث عندما طرق الباب عدة طرقات على الشراعة الزجاجية فأبتسمت ديدو قائلة

ـــ مؤكد هذا يوسف .

ركضت كاتيا إلى الباب لتفتحه طلت قامة طويلة لشاب وسيم فى بداية عشرينات العمر تقريباً ؟، يرتدى بذلة رمادية أنيقة ويصفف شعره للخلف مستعيناً بكم كبير من الفازلين، بينما فاح عطره الرجالي القوى فى أنحاء المكان . أبتسموا جميعهم عند رؤيته ورحبوا به كان يرد تحيتهم وعيونه متسمرة عند ايفا ... فيما تولت ديدو مهمة تعريفهما .

ـ يوسف أبن اختي فابيولا .

ـ ناديا بنت أحد صديقاتي من الأسكندرية .

بادلته الأبتسامة التى حياها بها وذهبت كاتيا للمطبخ لتحضر له طبق وشوكة وسكين , سأله شالوم بنبرة حزينة:

ـ هل من أخبار ؟

ـ لا منذ تلك الرسالة التى قد تلقيتها من مؤسسة الصليب الأحمر ليس هناك من أخبار جديدة .

ـ عليك بالألحاح عليهم فى طلبك حتى يتابعون الأمر ولا يكفوا عن البحث .

كان عكس شالوم الذى يتحدث بينما يتناثر الطعام من فمه فمضغ الطعام ببطء وأنتظر حتى بلعه ثم أجاب:

ـ وما الفائدة من ذلك لقد أخبرنى الصليب الأحمر أنه تم القبض عليهم أثناء فرارهم من الحدود الإيطالية ونقلوا بقطار ليلى لمعكسر اوشويتز!

أنتاب إيفا رعشة عند سماعها اسم المعسكر على أثرها أرتجفت الشوكة بقوة ولكن لم يلاحظها أحد .

ردت ريبكا بصوت واهن:

ـ مسكينة أختى فابيولا يا ترى ما هو مصيرها الأن؟

بينما علق صوت من أخر الطاولة :

ـ الأن أصبح كل يهود مساكين ويجب أن يتحرك المجتمع الدولى ومنظمات حقوق الأنسان والمؤسسات الخيرية للرعايا اليهود لوقف تلك المهازل التى تحدث فما معني أن يساق اليهود كالحيوانات الضالة إلى معسكرات وسجون وهناك يعلم الله وحده ماذا يحل بهم ؟

ـ ليس الله وحده الذى يعلم ما يحل بهم فأنا إيضاً أعلم وبأمكاني أن أخلع القبعة من فوق رأسي لترى نتيجة ذلك وإذا أصابتك الصاعقة من جراء هذا سوف أخبرك إيضاً أن هناك عدد لا بأس به من النساء قطع لهن المشرفين أصابعهن وأرسغهن حتى يتثني لهم الحصول على الخواتم الذهبية أو الأساور التى ضاقت للحد أن لا تخلع فيه سوي ببتر العضو .

تفوهت بتلك الكلمات فى سرها فقط . غادر الجميع شهيته على أثر تلك الأخبار السيئة التى بدلت الطعام اللذيذ لطعم أكثر مرارة .

بعد الغذاء ساعد الجميع فى تنظيف المائدة وأجتمع الرجال حول المذياع الكبير يستمعون لأخر أخبار الحرب والتى من الواضح بها أن هتلر وموسليني حققا تقدماً ملحوظاً. وضعت ريبكا صينية القهوة فى حين رصت لولا صواني الحلوي الشرقية والفواكه على مائدة الطعام . كان

من الواضح ان كاتيا مغرمة بأبن خالتها فكانت تجلس على ذراع المقعد الذى يجلس عليه وتنظر له بعيون تملؤها الحب، بينما تجاهلها هو ونظر للضيفة الجديدة ذات الفستان الأزرق وسألها :

ـــ ماذا تدرسين ؟

ـــ حصلت على شهادة البكالوريا من مدرسة ليسيه فرانسيه بالاسكندرية والأن أنا ابحث عن عمل هنا بالقاهرة .

ردت الكسندرا التى لم تتفوه بكلمة طيلة الوقت :

ـــ العثور على عمل فى تلك الأوقات كالعثور على أبرة فى كوماً من القش .

رد شالوم :

ـــ أحتاج مساعدة فى محل الخردوات عندى فى الفترة الصباحية إذا أردتِ .

بينما جاء صوت ريبكا غليظ بسبب الحلوي التى تحشو بها فمها :

ـــ هناك عائلة يهودية تحتاج مربية لطفلين تجيد الفرنسية والإنجليزية بمرتب كبير .

أبتسم يوسف وهز رأسه تعبيراً عن سخطه وعدم رضاه من تلك لعروض فكيف بها وهى خريجة الليسيه فرانسيه أن تلتحق بالعمل فى محل خردوات أو كمربية !؟

ـــ اذن تجيدين الفرنسية ؟

ـــ نعم اجادة تامة تحدثاً وكتابة .

ـــ حسناً ... البنك الذى أعمل به يحتاج لموظفة تجيد الفرنسية لمراسلة العملاء الذى ينتمون للجنسية الفرنسية وهو بنك فرنسي إن لم تمانعي، يمكنني أن أحدد موعد لك للقاء مدير البنك أعتقد أنها وظيفة ملائمة وخاصة أنها بمرتب مغري ، كما أنه من الصعب الحصول على عمل اخر فى هذا التوقيت الصعب .

هزت رأسها بالإيجاب وتشابكت أعينها فى نظرة ما ، لها مغزي تفهمه هى جيداً ولكن هى المتخمة بكل تلك الوجبة الدسمة من الألم هل كانت مستعدة حقًّا لمثل تلك الأمور؟ لذا فضت هذا التشابك بسرعة . كانت كاتيا تراقب الموقف ومسها بعضاً من الغيرة عندما وجدت يوسف مهتم بضيفة الخالة ديدو .

كعادتها ديدو أحكمت غلق الباب بالمفتاح بعدما ودعت الأقرباء حتي الطرف الأخير منهم وأطفأت الأنوار ودلفت لحجرتها. كانت أيفا سبقتها لغرفتها فكانت تشعر بصداع حاد من أثر الثرثرة العائلية . أزاحت ديدو الباب ودخلت لتجد أيفا تجلس فى نصف الفراش وتمسك رأسها بيديها .

ـ فى درج المنضدة المجاورة لك أقراص من الأسبرين يمكنك أن تتناولي وأحدة حتى يزول الصداع . علينا فى الغد الذهاب لسوق (الكانتو1) لشراء ملابس لك حتي يتثني لك الذهاب للوظيفة الجديدة .

ـ ولكن سوق الكانتو ؟

كانت تريد أن تخبرها أنها هي التي أعتادت أن تلبس لأكبر مصممي الأزياء الفرنسيين ومن أشهر المتاجر الفرنسية عار عليها أن تخطو حتي لذلك السوق . ولكنها أيقنت أنه من الغير الجائز لها أن تعترض فيكفي أن هذه السيدة فكرت حتي أن تشتري لها ملابس حتي وأن كانت من سوق الكانتو .

فى أحد الصباحات الشتوية الباردة كانت سيدتان تسيران بمحاذاة بعضهما الأخرى . إحدهما ترتدي معطفها الصوفي فوق جونلة صوفية زرقاء, والأخرى ترتدي معطفها من الكاروهات على جونلة من التقليمات .كلٌ منهما تعقد اسفل عنقها ربطة للأيشارب الحريري الذى تضعه فوق رأسها . كلاً منهما تخفي شيئاً ما. ديدمونة تخفى شعرها الأشيب بفعل تراكمات الزمن على عمرها بينما تخفي إيفلين مرارته وتقلباته .

توقفتا أمام تاجر يعرض بضاعته فى جوال كبير . ملابس مستعملة وأخري جديدة ولكنها بها عيوب تصنيع ، والغريبة أنها ملابس فرنسية الصنع ومن نفس المتجر الذى كانت تشترى منه ملابسها . أمام أفريول من اللون الأزرق بمجرد أن وقع بصرها عليه علمت أنه من أنتاج مصنع إيبها أجهشت عيونها بالدموع حينما وجدت العلامة التجارية الخاصة به على جانب الأفريول . ديدو التى كانت تراقبها كان من السهل عليها أن تتكهن بما ألّم بها , بينما بائع الملابس نظر إليها فى أستغراب .

غادرتا المكان ب (صُرَّة) كبيرة سوداء حزم بها الرجل الملابس التى قامتا بشرائها , بينما كانت تفكر وهى فى طريق الرجوع، أن كل ما تحتاجه تلك الملابس بعضاً من مسحوق الغسيل لإزالة الأتربة التى علقت بها ، ثم تذهب للمكوجي ليقوم بكيها وتصبح كالجديدة ، لا فرق بينها وبين تلك التى تشتريها من فرنسا سوى العلب الكرتونية الكبيرة و ورق لف الهدايا المزركش الذى يضفي على المشتريات الكثير من الفرح والأناقة .

فى صباح اليوم الذي يليه ، كانت أيفا ترتدي كامل أناقتها (تايير) من التويد الأزرق يزين ياقته واسواره الفرو الأسود بينما أحكمت شد جوربها من الفوال الأسود على ساقيها ، وأضفي الكعب العالي على قوامها المزيد من الأناقة والرشاقة .أخفت صلعة رأسها بباروكة من خصلات ذهبية صففت على شكل الكاريه .
وعندما وقفت ذات الصباح تلقى نظرة أخيرة فى المراة لتتأكد أنها حسنة المظهر بما يليق بموظفة فى بنك فرنسي ,أبتسمت لنفسها بأعجاب فقد كانت فى الأونة الأخيرة سيئة المظهر بشكل كبير وإن كان مظهرها الجديد على جماله إلا أنه لم يرتقِ لمظهرها السابق سواء فى الجمال أو الأناقة أنما كان قد أعجبها هيئتها الجديدة فى الخصلات الذهبية التى أضفت لها المزيد من الجاذبية .

وعلى ناصية شارع شامبليون بوسط البلد ، ألتقت يوسف ..كان أنيقاً بما ينبغي لشاب نصفه مصرى ونصفه إيطالي أن يكون . أبتسم عندما شاهدته كذلك وبعيون تملؤها الدهشة والأعجاب.

_ تشبهين الإيطاليات.

أبتسمت بدون أن تجيبه ... أجتازا معاً البوابة الدوارة لمبني البنك وقدمها للحارس مفتول العضلات الذى يقف مباشرة خلف البوابة :

ـ ناديا الموظفة الجديدة .

كانت ستقول تقصد إيفا... عندما تذكرت أن أسمها الجديد هو ناديا . ردهة البنك فسيحة مزدحمة بمكاتب الموظفين . يفصل كل مكتب عن الأخر حاجز من الزجاج . صعدا الدرج الرخامي والتقت بمدير البنك مسيو ديلفنس الذى أثنى على أجادتها بالتحدث بالفرنسية ثم أختبر قدرتها الإملائية ، قدم لها ورقة بيضاء وطلب منها أن تكتب ما سيمليه عليها بينما .

ـ ترى بون .

كانت تلك الكلمة التي أجتازت بها (الأنتر فيو) مع مدير البنك و بنطقه لها اصبحت أحد الموظفات بهذا البنك الفرنسي الشهير تجلس فى أحد الغرف امام الألة الكاتبة لتنسخ عليها ما يطلبه منها مديرها . و عندما سألها عن اوراقها الشخصية وشهادتها الدراسية لكي يحتفظ بها فى ملفها الخاص ، سبقها يوسف بالرد :

ـ لقد تعرض مسكنهم بالاسكندرية للقصف أثر غارة قوية وللأسف أختفي كل شئ فى ركام الهدم .

تبدلت ملامح المدير للحزن قائلاً :

ـ حمد الله على نجاتك عندما تهدأ الأوضاع هناك يمكنك أستخراج أوراق أخرى ولن أجعل من هذا الشيء عائق أمامك .

هى خريجة الحقوق السوربون أعرق جامعات فرنسا وأشهر جامعات العالم ، لا بأس بأن تقبل العمل كموظفة للنسخ على الألة الناسخة لمجرد أنها تجيد الفرنسية تحدثاً وكتابة . عَّرفها يوسف على زملائها فى القسم وأطمأن حتي جلست على مكتبها الخاص بها وتركها وذهب ليباشر مهام عمله من خلف الحاجز الزجاجى الذى يفصله عن عملائه فقط تلك النافذة الزجاجية الضيقة التى بإمكانه منها أن يستلم منهم الأموال أو يسلمها لهم .

مر اليوم سريعاً وكموظفة جديدة وجميلة أثارت فضول الزملاء والزميلات الذين يشاركونها المكان ، لذلك كانت تحاول أن تبدو لطيفة بالرغم من فضول لا حياء لأصحابه . فكانت تضع أبتسامة حانية على وجهها ونظرة عطوفاً وتستعمل إجابات مختصرة، ولكنها عميقة كانت أخبار الحرب تشغل الجميع فى هذا المكان الذى يعمل به الكثير من الفرنسيين والأنجليز وهي محتشدة الروح والجسد بكل تلك المشاهد الدموية وأصوات القنابل والصواريخ التى تنهال فوق الرءوس تركت لهم نيشان الحديث وأكتفت هي ببريق الصمت .

عرض عليها يوسف أن تتناول الغذاء معه بمحل بجروبى ، ولكنها أعتذرت مؤكدة أن الخالة ديدمونة تنتظرها على الغذاء ولكن هل حقاً كانت ديدو فى أنتظارها ؟ كانت محاولة حتى تهرب من تلبية الدعوة فلم تكن بحال تسمح لها بالجلوس فى أحد المطاعم لتتناول غذاء مع شاب لم تعرف عنه الكثير سوى أن عيونه كانت متخمة بالإعجاب بها . ولكن يوسف الذى لم يكن من هذا النوع سريع الإحباط فأخذ يصر على دعوته لها وعندما فشل أكتفى بالقول :

ـ حسناً لنؤجل الغذاء يوماً أخر ولكن دعينا اليوم نتناول القهوة أو الشاى فى جروبي المكان قريب من هنا وأحتساء فنجان من القهوة لن يأخذ الكثير من الوقت.

ماذا كان عليها أن تفعل أمام ألحاحه وبدون أن ينتظر منها أجابة كان قد سحبها من يديها وسار بمحاذاتها تماماً .

ما أن دخلت المكان الذى تنبعث منه روائح الحلوي والكراميل حتى أجهشت عيناها بالبكاء وكأنها كانت غيمة محلقة تنتظر أن يؤذن لها بالهطول . كانت كثيراً ما تأتى لهنا بصحبة أمها ، بل ربما كان هو المكان الوحيد الذى كانت تشعر بالسعادة فى الذهاب اليه ، بالرغم من أن هناك الكثير من المحال على شاكلة جروبى كالأريزونا وجولى فيل وتراس فندق شبرد ومقهى الهيلتون ، ولكنها لم تكن تسعد إلا بذهابها لجروبي ، كانت تعشق المرور على فاترينات العرض لتشاهد قوالب الجاتوه المزينة بالكريم شانيته الذى كانت تطلب من البائع دوماً المزيد منه . تتذكر أيضاً كيف أنها فى ذكرى عيد مولدها من كل عام يأتي عامل محل جروبى بعلبة كارتونية كبيرة وضعت فيها تورتة(البولد ناج) التى نُقش فوقها بالكريمة عبارة " عيد ميلاد سعيد إيفا " . عندما سافرت لفرنسا تأكدت أن جروبي لم يقل أناقة عن (الباتسيري) هناك علي العكس كان يتمتع بعبق خاص به يجعله فريداً ومتفرداً عن كل الأماكن .

كالعادة كان المكان يعج بالأجانب من شتى الجنسيات ،ولكنها كانت المرة الأولى التي تراه فيها مزدحماً بالجنود الأنجليز بزيهم الأخضر الغامق الذي يبعث على الأكتئاب. أختار لهما طاولة بعيدة عن الصخب .

ـــ هذا مكاني المفضل ربما تكون تلك زيارتك الأولى له ولكنها لن تكون الأخيرة أبداً ، أنه يشبه محل (ديليسيس) بالأسكندرية مؤكد قمتِ بزيارته .

ـــ نعم .. نعم .

سحب سيجارة من علبة سجائره وقدمها لها .

ـــ شكراً.. لا أدخن .

بينما أشعل سيجارته وأخذ فى النظر إليها من بين دوامات الدخان .

ـــ لماذا أشعر أنك تخفين أمراً ما وراءكِ ؟

أرتبكت عندما قال ذلك ولكنها سريعاً ما أخفت أرتباكها بأبتسامة قائلة :

ـــ كيف ؟

ـــ لا أعلم ولكن أشعر أنه هناك سرًّا كبيرًا !

ـــ سر ... و كبير !!

حضر النادل فطلب الشاي وجاتوه الشكولا

ـــ أحياناً أشعر أن صمتك وراءه شيء ... تخشين أن تتحدثى فيفضحك لسانك به .

ـ لا.. ليس هناك من شيء .

أدارت رأسها فى الأتجاه الأخر تتابع المارة من خلف الوجهة الزجاجية .

ـ ولكن إليس من الغريب أن إدراة البنك تكون فرنسية وتقبل بتعين موظف إيطالي بها؟

ـ وما فى ذلك ؟

ـ فرنسا إحد الدول الأعداء لإيطاليا , فهى تتحالف مع الإنجليز , بينما موسوليني مع هتلر .

ـ ربما كان هذا الأمر فى الدول الواقعة تحت الحرب إنما هنا بالقاهرة فالأمر أقل تعقيداً .

ـ أتعتقد أن مصر بعيدة عن الحرب ؟

ـ هذا يتوقف على ما يعده" روميل" فى العلمين* إذا فلح فى دخول البلاد مؤكد ستدمر مصر وسوف يعمها الخراب تأكدي من ذلك .

ـ وأنت إلى أى جهة تنتمى ؟

بعد أن رشف رشفة كبيرة من فنجانه :

ـ أجدادي في الأساس يهود من اسبانيا عند اجتياح أوربا للأندلس منذ عهود تفرقوا فى الأرض منهم من ذهب لايطاليا ومنهم من جاء لمصر , ولد أبي وعاش فى ايطاليا حتى مقتبل حياته ثم تركها وجاء للإسكندرية حيث كان يعمل فى تجارة الدخان وكانت السوق رائجة فى الإسكندرية لمثل هذا النوع من التجارة فى أوائل القرن . أبي كمثل يهود إسبانيا من السفارديم الذى يعتنقون الربانية ومنذ وصولهم لمصر هناك عدواة بينهم وبين طائفة القرائيين التي تعيش فى مصر منذ أقدم العصور و تجيد اللغة العربية ، بل منهم علماء فى هذه اللغة ويتمسكوا بأفكارهم المختلفة عن الربانية لذلك انغلقوا على صرامة عقيدتهم . لم يكن من المسموح ان يتم التزواج ما بين العائلات القرائية والربانية للاختلاف الكبير فيما بينهم ألتقت به أمي فى أحد الحفلات وأحبته كثيراً فى حين رفض أهلها المتعصبون دينيًّا من زواجها به .

ـ نعم أعلم عن ذلك التعصب .

ـ لذلك رفضه أبوها ولكنها أصرت على الزواج منه وتركت المنزل بحقيبة سوداء وضعت فيها أمتعتها الشخصية ، تم الزواج الذى لم يحضره أحداً من أهلها ، وعاشت معه فى الإسكندرية لمدة خمس سنوات أنجبتني فى السنة الأولي منه ثم سافرا معاً إلى إيطاليا وتركاني هنا مع جدتي لأبي لتتولي تربيتي حتى يتثني تدبير أمرهما هُناك ، لا أعلم كم من الوقت تغيبا عني ؟ ربما الكثير ولكني لم اهتم لذلك , لأن جدتي كانت تمدني بالحنان اللازم . حتي فى أحد الأيام وبدون سابق موعد تعثرت بهما أمامي تماماً عند عتبة البيت ولم أتعرف عليهما إلا عندما تذكرت أن تلك الوجوه قد رأيتها مسبقاً فى أحد الصور الفوتغرافية التى بعثت لي بها أمي ذات مرة عندما كان يقضون الصيف على أحد شواطيء روما .كانت أمي قد أنجبت أختي استر وأخي دافيد وبصعوبة كان علينا أن نندمج معاً . أرادا أن أغادر معهما البلاد لميلانو حيث كانوا يقيمون ، ولكني رفضت وأكتفيت بالتردد عليهما فى الأجازة الصيفية والمناسبات .

ـ وهل ظلت علاقة أمك بأهلها مقطوعة إلى ذلك الحين ؟

ـ عندما رجعت مرة أخرى للقاهرة كان جدي قد غادر الحياة وجدتي في نزعها الاخير وكثيراً ما كانت تردد أسمها أثناء نومها ، لذلك كانت زيارتها لهم مدعاة للفرح والسعادة ولم يلومها أحد أو يعاتبها.

حلقت ذكري حزينة على وجهة الذاكرة تبدلت معها نبرة صوته لأكثر حزناً :

ـ مسكينة أمي و مسكين أبي تراهما أين هما الأن ؟

ـ أوليس هناك من أخبار جديدة ؟

ـ لا ليس هناك من جديد . أنه هتلر ونزعته الدموية ، حقاً أتمنى لو أستطيع أن أفتح رأس هذا الرجل لأرى أي عقل طائش يحكمه وهل المحشور بين الضلوع هو قلب أم قطعة من الصخر ؟

ـ كراهيته لليهود لا حدود لها حتي ولكأن هناك ثأرًا بينه وبينهم !

ـ الغريبة أن هناك الكثير من القادة يشاركونه الرأي ولا أعرف هل عن أقتناع أم عن خوف .

ـ كموسولينى مثلاً !

ـ نعم أنظري كيف سلم له يهود إيطاليا والنازحون إليها من الدول الأخرى ظناً منهم أنهم سيكونون في مأمن هناك .

ـ تماماً مثلما حدث عند سقوط باريس وكأن اليهود هم غنيمة الحرب فى تلك البلاد لقد تم الأستيلاء على أموالهم بالبنوك وأملاكهم الخاصة وجردوهم حتي من كل شيء حتى ملابسهم، يستوي فى ذلك الأطفال مع النساء والمرضى والعجائز !

ـ وهل تصدقين خدعة معسكرات التأهيل تلك التى يخدعون بها العالم ؟

كانت تريد أن تخبره أنها أخر شخص فى هذا العالم يمكنه أن يصدق تلك الخدعة لأنها كانت قد وقعت فى فخها وبأعجوبة نفذت منها .

ـ وهل سنكتفى بالمكوث عنها والكلام ونتركهم يقومون بإبادتنا ؟

ـ إبادتنا ،أعتقد أن الأمر لم يصل لهذه المرحلة بعد .

أخذتها الحماسة قائلة :

ـ بل وأكثر .

ـ ولماذا انت متأكدة هكذا هل تملكين معلومات ؟

كان ماذا عليها أن تجيبه ربما كان من هذا النوع الذى يجبرك على الثقة فيه، ولكنها خشيت أن تتفوه بشيء.

ـ ابدًا مجرد تخمين .

كانت نظرته إليها يملؤها الشك ولكنه فى نفس الوقت لم يشأ أن يلح عليها بالاسئلة .

ـ أريد أن أذهب الأن .

طلب من الجرسون بأن يأتي بالحساب وأخيراً وهما يستعدان للذهاب :

ـ هناك جلسات خاصة تعقد للنظر فى امور الحرب و مشاكل العالم إذا أحببتِ أن تنضمين إلينا ؟

أخذت تلاحقه بالأسئلة :

ـ أين ومتي ؟

ـأتركي لى تهيئة الأمر وعرض طلبك بأن تنضمين لتكوني عضوًا بالمجموعة على الرئيس .

ـ أتمنى ذلك حقًّا .

ـ حسنًا أعدك سأحاول .

لم تكن تكذب إذاً، عندما أخبرت يوسف أن ديدو تنتظرها على الغذاء، فها هي أعدت حساء الأرانب الشهي والأرز والملوخية، وتجلس في أنتظار حضور ايفلين، التى كان من المقرر لها أن تكون فى المنزل عند الثالثة، ولكنها أوشكت على الرابعة فى الساعة الجدارية التى كانت تراقب دقائقها بالكثير من الصبر لذلك بلهجة يملؤها العتاب قالت :

_ لقد تأخرتِ كثيراً.

_ أسفة لم أشأ أن أجعلك تنتظرين ولكن أصر يوسف على دعوتي لأحتساء فنجان من القهوة معه .

أبتسمت ديدو بخبث. كانت ايفا ستشرح لها أن الأمر ليس بمثل ما تعتقده، ولكنها كانت قد شبكت يديها وبدأت فى الصلاة، رددت أيفا الكلمات ورائها ثم أكلتا بشهية .

_ أشكرك خالتي ديدو على أهتمامك بى وأعدك بأنى سوف أقوم بوضع ثلاثة أرباع مرتبي تحت تصرفك هذا الشهر بينما سأحتفظ لنفسي بالباقي.

أبتسمت ديدو بدون أن تنطق . نظفت إيفا المائدة ثم استسلمت لغفوة بعد الظهيرة ، لتستيقظ على عزف ديدو على البيانو وتتأكد أن الساعة قد حانت السابعة كعادة ديدو فى العزف على البيانو فى ذلك التوقيت كل يوم .

أنتظرت حتى أنهت عزفها ثم قامت بالتصفيق لها وهي تقف عند عتبة الباب ، فتدير ديدو رأسها للخلف وتكتشف إيفا أن عيناها أغرقتا بالدموع , بخطوات بطيئة تذهب اليها وتربت على ظهرها كانت الدموع تغسل مفاتيح البيانو وكانت إيفا يملؤها تساؤل ولكنها أبت أن تسأله فقط أكتفت بأن تركتها وذهبت .

فى صباح اليوم التالي ، أستيقظت على رائحة جميلة تملأ المنزل، أرتدت ملابسها وخرجت لتجد الخالة ديدو تضع مربة العنب بالقرنفل الشهية فى برطمان زجاجي وتحكم غلقها، بينما ترتدي كامل ملابسها أستعداداً للذهاب . صنعت لها سندوتش من المربة التي صنعتها ولم تكن قد تذوقت هذا النوع مسبقاً فأعجبتها كثيراً . لاحظت أن ديدو وضعت البرطمان فى حقيبتها الممتلئة بأشياء أخرى فأيقنت أنها فى زيارة لأحد الأصدقاء أو الأقرباء وتريد أن يتذوقوا صنع يديها .

غادرتا معاً فى صباح كانت سماؤه تنذر بأمطار غزيرة وعند مفترق الطرق ودعتا بعضهما البعض على وعد أن إيفا لن تتأخر على موعد الغذاء . فجاءة وبدون سابق أنذار وجدت ايفا قلبها يخفق بشدة بحب تلك المرأة التى تخفي الكثير من الحنان والطيبة تحت ستار من ملامحها الجامدة وتأكدت أن الله يحبها لأنه ألهمها بتلك السيدة التى كانت غائبة تماماً عن تفكيرها منذ أن غادرت البلاد لأكثر من عشر سنوات، ولكن فور قدومها لمصر ظل وجهها يتحرش بها للمرور عليها والأقامة عندها . جلست على محطة المترو تراقبها وهى تغادر للجهة الأخرى بمعطفها الصوفى تدثر به فوق ظهر منحني قليلاً ، وشالها الذى تعقده حوله عنقها وحقيبة مشغولة بخيوط الكانفاه بها برطمان من مربة العنب، تساءلت فى ريبة لماذا هى كثيرة الغموض وبخاصة فى عزفها على البيانو؟ فهذا العزف نتاج نوتات موسيقية خاصة لا يقوم بعزفها سوى المحترفين .

منذ دخول إيفلين المنزل هذا اليوم لم تسمع ديدو تتحدث بأى كلمة أكتفت فقط بإلقاء صلاة الطعام قبل تناولها الغذاء وتسللت لغرفتها حتى موعد عزفها فى السابعة مساءً. الذى كان أكثر حزناً وأخفت وقعاً .تساءلت إيفا ترى هل كان لمشوار ذلك الصباح دخل فى ذلك ؟

ـ خالتي ديدو :ما لي أراك حزينة ؟ هل حدث مكروه ؟

رتبت على يديها بحنان :

ـ لا تشغلي بالك بعض الوقت وسأكون بخير .

هكذا هي دائماً تفضل الصمت عن الكلام، وأختزان الأحزان بدلاً من التفوه بها .كانت تجلس لتحيك معطفاً صوفيًا، بينما كانت إيفا تطالع الجرائد لتعرف أخر أخبار الحرب . لذلك أصطحبت معها عدد كبير من الجرائد الناطقة بالفرنسية والعربية لتعرف أهم الأحداث . مر الكثير من الوقت دون أن تتحدث إحداهما للأخرى كُل منهما متخمة بما ألم بها ، ثنت إيفا الصحف بعد قرائتها ووضعتها بحذر على المائدة .

ـ هل من جديد ؟

ـ أنباء متضاربة هُنا وهُناك, أكتاسحات لروسيا فى حين إخفاقات لألمانيا وترحيل الألاف من اليهود للمعسكرات النازية حتي يتسني للألمان الأستفادة منهم فى التشيد والعمران، وبالرغم من كل شيء تحرص القيادة الألمانية على توفير الراحة والرفاهية فى تلك المعكسرات فمباريات كرة القدم للرجال ونوادٍ ومقاهٍ للنساء وألعاب ترفهية للأطفال .

قهقهت بصوت عالي :

ـ أنه الكذب بعينه... ليس هُناك سوى العمل الشاق وليس من حق أحد الشكوى أو التبرم ، وألا سيكون مصيره الضرب . تصوري أن المرضي هناك يضعوهم فى عنبر كبير حتي الموت أو يقوموا هم بتلك المهمة بأنفسهم .

ـاريد فقط أن اعرف لماذا كل هذه القسوة ؟

ـ لأننا لسنا ببشر ولا يحق لنا ترف العيش .

ـ إذن فليقتلنا ويريحنا من هذا العذاب .

ـ وما إدراكِ بأنه لا يفعل !؟

قالتها هامسة وهي شاخصة بنظرها بعيداً حيث ترائ لها دخان ينفذ من المداخن بالبرج البعيد ونفذت رائحة الشواء الكريهة الي أنفها تلك الرائحة التي لم تشمها مسبقًا، أنها من أكره ما أشتم أنفها . أصابها الغثيان تماماً ، كما كان يصيبها هناك وكأنها مازالت لم تغادر مكانها .

طرق خفيف على الشراعة الزجاجية للباب نظرت كلٌّ منهما للأخرى بحذر، فالساعة شارفت على الثامنة مساءً من عساه أن يزروهما الأن دخلت إيفا للحجرة مسرعة لتضع الباروكة فوق رأسها بينما وقفت ديدو من خلف الباب وهي تسأل :

ـ من ؟

ـ أنا يوسف خالتي .

نظرت السيدة خلفها لتتأكد من وضع أيفا للباروكة فوق رأسها ثم قامت بفتح الباب . دخل يوسف بذلك الصخب والبهجة اللذين يبعثهما فى أنحاء المكان محملًا بعلبة من جاتوه الشكولا وضع فى كارتونة بيضاء نقش عليها " بيت جروبى " .

ـ مفاجأة أليس كذلك ؟

أجابته ديدو بخبث:

ـ نعم فمنذ متي لم تطرق بابي محملًا بالهدايا أو بالحلوي ؟

أحمر وجهه خجلاً، ثم نظر إلي إيفا قائلاً:

ـ هيا أرتدي ملابسك سنذهب لنشاهد فيلًما امريكًيا يعرض بسنما ريالتو .

ـ ولكن يوسف أنا لست مستعدة لمشاهدة أفلام الأن .

ـ وهل مشاهدة فيلم تحتاج أستعدادًا ، السينما على بعد خطوات منكِ أنها بجوار مدرسة دو لاسال، خمس دقائق ونصل لهُناك . هيا قبل أن يبدأ العرض .

ثم أنتهز فرصة دخول ديدو للمطبخ لتضع الحلوي بالأطباق وهمس قائلاً :

ـ لقد رتبت لك موعد مع المجموعة وهما فى أنتظارنا الأن هيا أرتدي ملابسك بسرعة .

جاءت ديدو تحمل بيديها صينية كبيرة عليها اطباق من الحلوي واكواب للعصير وعندما شعرت بها إيفا صاحت قائلة :

ـ لقد شوقتني لرؤية هذا الفيلم سأذهب لأرتداء ملابسي .

جلس يوسف يتحدث مع ديدو التى بدأت حديثها بشيء من اللوم قائلة :

ـ ولكن ألم يكن من الأحرى بك أن تدعو كاتيا لرؤية ذلك الفيلم ؟

ـ ولماذا كاتيا ؟

ـ يوسف لا داعي للأنكار فأنت تعلم جيداً أن الفتاة تحبك كثيراً .

ـ وهل لأنها تحبني علّى أن أبادلها مشاعرها !؟

ـ ليس هذا ما أقصده ولكنك كنت تشجعها فى التمادي بعواطفها نحوك . كنت أراك تبالغ فى الأهتمام بها والأثناء على جمالها وأناقتها .

ـ وهل هذا بمثابة تشجيع؟ أى جنتلمان مكاني سيفعل ذلك .

ـ هكذا إذاً فأنت تنوي على إيذاء مشاعر تلك الفتاة .

تجهم وجه يوسف وتبدلت ملامحه للغضب، ولولا خروج إيفا فى ذلك التوقيت لكان أحتد الخلاف بينهما . ما أن رأي إيفا حتى قام وفتح الباب مودعاً خالته .

ـ اورفوار.

مالت إيفا على ديدو وطبعت قبلة على وجنتها قائلة :

ـ لماذا لا تأتين معنا ؟

ـ لا أفضل مشاهدة الأفلام الأمريكية لأني لا أفهم اللغة ، ونظري ضعيف لا استطيع قراءة الترجمة .

كان الهواء أشد برودة فى الخارج لذلك أحكم كلٌ منهما غلق المعطف .

ـ هل لك أن تخبرني بعضًا من التفاصيل ؟

ألقى يوسف سيجارته ودهسها بعصبية بقدمه .

ـ تعد تلك المنظمة من أكبر المنظمات السرية للتجسس فى الشرق ، تابعة للمخابرات الإنجليزية وهي تضم عددًا كبيرًا من الجنسيات، وشعار تلك الجماعة(الكل في واحد) ليس هناك وجود للمصالح الخاصة أو للمنافسة أو الخوض فى مسائل لا تفيد، كل مبتغانا هو حزم المعركة لصالح قوات التحالف.

ـ ولكن من الواضح أنها لم تنجز شيئًا فمازال العالم واليهود يساقون كالنجاع لحتفهم .

ـ لا عزيزتي أنها تنجز ، ولكن بشكل غير مباشر للقضاء على الأنتهاكات النازية، يلزمك الكثير من الوقت والخبرة والتصدي لهتلر والعمل بشتى الطرق على خسارة الحرب لذلك هناك، عدد كبير من القوات الخاصة أنضم للجمعية.

ـ أنتظر ... أي قوات خاصة ؟

كانوا قد وصلوا لناصية الطريق فأستوقف(تاكسي) وهو يقول :

ـ لقد تأخرنا .. أنتظري حتي نصل وسأخبرك بكل شيء .

أمام مبني مكون من دورين وضعت يافطة كبيرة عليه " نايت كلوب" بمنطقة جاردن سيتى، توقف بها التاكسي هي لم تكن تعي شيئاً مما يحدث، بينما كان هو فى كامل انتباهه ليتأكد بأن أحداً لم يتبعه . يسير بهدوء واضعاً أبتسامة على وجهه .

ـ ولكن هل تقيم تلك الجماعة أجتماعاتها فى نايت كلوب ؟

ـ أتمني لو أنك تكّفين عن الأسئلة وتضعي على وجهك أبتسامة.

شاب مفتول العضلات ، يقف على بوابة الملهى الذي ما إن أقتربا منه حتي تسللت إليهما أصوات لموسيقى التانجو ، اومأ له بالتحية فافسح لهما بالدخول . المكان مظلم بالداخل إلا من إضاءة خافتة لتساعد لرؤية خطواتك . حلبة الرقص بالجانب الأيمن مزدحمة بفتيات وشباب يرقصون على أنغام التانجو والتشاتشا. تدور الفتيات بقوة وسرعة بفستاينهن الكولش القصيرة فتكشف ثيابهن الداخلية . على البار جلس عدد كبير من الجنود الأنجليز يطرقعون الكاسات ويطلقون النكات الماجنة، بينما فى الدور الأعلى كانت طاولات البوكر متراصة الواحدة بجوار الأخرى وعلى اختلاف الجنسيات التي تجلس عليها إلا أنهم يشهرون ثراءهم فى وجه الجميع بالسيجار السمين والبذلات المستوردة والمجوهرات البراقة .

ـــ هل تجيدين الرقص ؟

ـــ نعم .

سحبها من يدها لحلبة الرقص ليتمايلا معاً على أنغام الموسيقى . بعد أداء عدة رقصات منهكة ضمها له وسحبها لخارج الحلبة وإذا به يلتقط شفتيها فى قبلة طويلة حاولت الفكاك منه ولكنه كان مطبق بقوة عليها . سحبها خارج الحلبة وهو يسير بها، وهما على ذلك الوضع حتي زواية مظلمة تنتهي بدرج رخامي يقود لأسفل على ممر به غرف العاملين . وأمام غرفة علق عليها يافطة نحاسية كتب عليها " لا يسمح للدخول لغير العاملين " أزاح اليافطة التى لم تكن مثبتة تماماً لتظهر تحتها لوحة مفاتيح ضغط على كود سرى فلم يمر سوى ثوانٍ أعتذر لها خلالها عما بدر منه بخصوص تلك القبلة واخبرها أنها أحد التمويهات . ثم تكة قوية ويدير المقبض ويفتح الباب وإذا بهما أمام طاولة أجتماعات مستطيلة جلس حولها الكثير من الرجال بينهم ثلاثة من الفتيات أصبحن أربعًا الأن بعد أنضمام إيفلين لهن .كانت العيون تراقبها بحذر وبترقب .

يدير الاجتماع رجل فى منتصف العمر تقريبًا يتحدث العربية بصعوبة . رحب بها ودعاها للجلوس ثم طلب منها أن تقوم بتعريف نفسها . نظرت للوجوه التى كانت تضم كافة أشكال وهيئات البشر والكثير من الجنسيات الأجنبية .

ـــ إيفلين يعقوب سركسيان .

كانت تقوم بنطق اسمها وتنظر ليوسف لترى وقع المفاجأة عليه، ومن الواضح أنه كان يتوقع أمرًا مثل هذا لأنه أبتسم عندما سماعه الاسم

ولكن ما الذى أدي بها للبوح بهويتها هي التي حرصت كل حرص ألا تظهر ذلك حتي لا تتعرض لبطش النازية مرة أخري ؟!ولكن فى مثل هذا المكان و بمصاحبة تلك المجموعة التي أصبحت الأن عضًوا بها ،كان عليها أن تصرح بحقيقة هويتها وإلا كيف ستقص عليهم وقائع مهمة وهي متخفية تحت شخصية أخرى. شخصية لم تغادر مصر إلى فرنسا يوماً ولم تتعرض لمثل تلك الأهوال يوماً .

ثم أضافت بصوت أكثر وهناً :

ـــ أحد الفارات من معسكر اشويتز النازي .

وقتها تعالت الصيحات بعدم التصديق. شاب تظهر عليه ملامح أجنبية يتحدث بالألمانية لتصاب بالهلع . هل هذا كمين ليقبض عليها أم ماذا؟ ولجهلها باللغة الألمانية لم تفهم شيئاً ولكن تولي الرجل الذى يدير الأجتماع الترجمة قائلة :

ـ لقد منح لك الله عمرًا جديدًا ، هكذا يقول ساشا وهو ضابط من النازية سابقاً وأنضم للمجموعة .

ـ ضابط نازي ولكن كيف هذا ؟

ـ لا تستغربي، ستجدين على تلك الطاولة من هو نازي ومن هو يعمل تحت أوامر موسليني ومن هو يتبع الجيش الأحمر ولكن جميعهم يرفضوا ما يفعله هتلر ،ونحاول معاً أن نقضي عليه بطريقة أو بأخرى فليس الحرب وحدها هي التي تدور على أرض الواقع هناك خطط فى الخفاء ألم يخبرك يوسف أنه من قوات الكوماندوز تلك القوات الخاصة للجيش الإجليزي ؟

ـ لا في الحقيقة هو لم يخبرني !

أجاب يوسف بصوت خافت :

ـ لم أرد أن أخبرها بشيء تمامًا مثلما أخفت عني حقيقتها .

ثم نظر اليها نظرة ذات مغزي واضاف

ـ أو ربما كانت أحتاج بعضًا من الوقت

رد الرجل بصوت تملؤه الثقة :

ـ حسناً ... الحذر مطلوب .

ثم بعد نفس عميق :

ـ الأن وفي تلك المرحلة الخطرة التي تتعرض لها ألمانيا وبخاصة بعد عدوانها على روسيا ، تلك الدولة التى قصمت ظهر نابليون من قبل وها هي الأن تكبد المانيا المزيد من الخسائر فى أرواح جنودها من الشباب وعلى وشك أن تحتل عاصمتها .

رد جابيلو شاب روسي من القوات الخاصة الروسية المنضمة للمجموعة :

ـ الروس وحدهم الذين يعرفون معني كلمة الحرب الشاملة، ويملكون المقدرة على ممارسة تلك الحرب من الألف إلى الياء ، وحدهم بأمكانهم أن يقطعوا مسافات هائلة سيرًا على الأقدام وأن يناموا على الجليد بغير غطاء وأن يعيشوا على طعام مكون من جذور النباتات الباقية تحت الجليد .

رد القائد قائلاً :

ـ الجليد هو الذى فتك بجيش نابليون القوي ،كما بإمكانه الأن الفتك بالقوات النازية .

أجاب جابيلو بمزيد من الثقة :

ـ ربما طبيعة البلاد كانت أهم عوامل أنتصارها على الأعداء .

فتح بعض الأوراق بيده قائلاً:

ـ أنه مخطط بعثت به فرقة الكوماندو الفدائية لشن غارات على معكسر رومل بالصحراء الغربية ، سوف نقوم بدراستها ونرى من منكم يود المشاركة فيه بجانب الفدائيين لأنجليز . القضاء على معسكر روميل فى الصحراء الغربية سيعد أكبر أنجاز للقضاء على خطة المانيا في الاستيلاء على مصر ومنها للشرق وبذلك تصبح سيدة العالم بلا منازع . وهى حريصة طبعًا للقضاء على يهود الشرق الذين يقطنون البلاد فأستيلاء ألمانيا على مصر سيكون ورقتها الرابحة التى ستقودها فى الانتصار فى الحرب وبخاصة أن مطرقة الحرب الثقيلة أخذت تهوي على المانيا فستنالينجراد ضاعت وإيطاليا تململ طلباً فى الأنسحاب ولكن موسليني يجبرها على الاستمرار فيها .

أنهي الرئيس كلمته وتوالت المناقشات والجدال ولكن الجميع أجمعوا على أهمية القضاء على مخطط روميل فى احتلال البلاد ،وإلا بذلك سيكون قضى نهائياً على أى فرصة بأنتصار قوات التحالف بإلاضافة سيصبح اليهود بين فكي الأسد .

كان كل من يريد التحدث بشيئاً عليه رفع يديه حتي يأذن له وبيد مرتعشة رفعت إيفا يدها :

ـ لقد تعرضت فى معكسر نازي لأمور وحشية أنا واليهود من النساء والرجال ،حتي الأطفال والمرضى لم يشفع لهما ضعفهما وأملك من الأسرار والحكايا الكثير بمجرد نشرها وعرض تلك الأنتهاكات لحقوق الأنسان بالجرائد العالمية سيضعف من أمر النازية وسيحول كراهية العالم لها أكثر وأكثر ..

ثم بحركة عصبية كانت قد خلعت الشعر المستعار الذى ترتديه :

ـ أنظروا هذا أقل شيء ، بإمكانهم صنيعه فور دخولنا للمعكسر ليس فقط الأكتفاء بقص شعر النساء ولكن التأكد من حلقه بشفرة حلاقة هل تعرفون لماذا ؟

ضحكت بسخرية قائلة :

ـ ليس كما يدعون حتي لا تنتشر الأمراض وحرصاً على النظافة ، ولكن لأنهم يدخلون هذا الشعر فى صناعات خاصة ومنها مثلاً الدمى البلاستيكية ، هذا ما سمعته من احد السجينات .

تعالت الهمهمات والأهات :

ـ أنا خريجة حقوق جامعة السوربون وسأكتب دعوى لوقف ما يحدث هناك من مهازل ترتكب فى حق اليهود بالأضافة طبعا أني شاهدة على كل ما حدث .

رد القائد

ـــ وبأى حجة يمكنك أن تترافعي؟ حتى منظمات حقوق الأنسان لم تتخذ موقفها بعد، والصليب الأحمر موقفه أكثر ضعفاً ،وخاصة أن العالم هذه الأيام على حافة البركان ؟

ـــ يمكننا بإجراء أولى الخطوات وهو عرض تلك الأفعال والجرائم على العالم بنشرها والتنديد بها .

ـــ حسناً يمكنك البدء فى كتابة كل ما كابدتِه من معاناة وألم وسنقوم بعرضه على الصحف العالمية التى تمتاز بالشجاعة لنشر تلك المواضيع على صفحاتها .

أنتهي الاجتماع ومن باب جانبي ضيق يفتح على أحد الشوارع الهادئة من الجهة الأخرى للطريق خرجا . أخبرها أنه من الأفضل أن يوحي مظهرهما بأنهما تحت تأثير الخمر وفي حالة من الثمالة كما يليق بمرتادى نايت للكلوب يخرجا منه فى الساعات الأولى للصباح .

وضعت يدها على رأسها للتأكد من إحكام وضع الشعر المستعار فلم تكن قد اعتادت عليه بعد. وطوق يوسف ذراعها وتخطا البوابة سوياً كانت الساعة بعد منتصف الليل بقليل كلاً منهما يسير بمحاذاة الأخر حتي وصلا لناصية الطريق ،وجدا نفسهما وجهاً لوجه مع نهر النيل . كل منهما متخماً بأفكاره ، سألته وهى تجلس على مقعد خشبي :

ـــ أتمنى أن لا تكون المفاجأة شديدة الوقع عليك ؟

ـــ كنت متوقعًا أن وراءكِ سَّرا ما ولكن لم أكن أتوقع أنه بمثل تلك القسوة .

لم تجيبه ظلت مسلطة نظرها هناك عند مركب صيد صغير، و ضوء خافت للمبة الجاز يتسرب منها .

ـــ وأنتِ هل أصبتِ بخيبة الأمل ؟

أبتسمت بسخرية :

ـــ أتعتقد أنه هناك مفاجأة يمكنها أن تكون أشد وقعًا وأكثر تاثيرًا علَّي بعد ما لاقيته فى المعكسر والألم الذى عانيته هناك . مما حدث من أشياء لن أهتز ولن تحرك لى ساكنة .

ثم أضافت :

ـــ ومع ذلك ما هو أمر تلك القوات الخاصة التى تنضم إليها ؟

ـــ بعد أنضمامي للمجموعة عرض علَّي أحد الاعضاء وهو ايطالي و واحد من معادين لسياسة موسليني وهتلر الانضمام لقوات "الكوماندو" وهى فرقة أعمال خاصة و تجسس وتخريب لخطط العدو تتبع قوات التحالف كانت تريد عدداً من الشباب الفدائيين للانضمام إليها وبعد دخولي اختبارات كثيرة ومعقدة والتأكد من حسن نيتي فى المشاركة معهم تم قبولي بينهم .

_ ولكنها مهمة خطرة لماذا أقدمت عليها ؟

_ فى البدء كان الأمر ثأرًا لأهلي الذين اقتادوا كالنعجاع الضالة لمعكسرات اليهود بدون أى جريمة أرتكبوها, وبعدها إيقنت بوحشية ما يفعله هتلر فى العالم أجمع انظري كم جنديًا يلقى حتفه يوميًا ؟ وكم من أبرياء لا همَّ لهم فى الحياة إلا أن يجدوا قوت يومهم، فإذا بهم جثث هامدة فى الطرقات ، و ينضم له موسليني و يتبعه رغماً عن أنف الشعب الإيطالى والملك "عمونايل" بذاته .

_ الموضوع أكبر بكثير مما نتصور ، أنه يحتاج معجزة من السماء .

_ الأمل كله متوقف الأن على وقف زحف الجيش الألماني والإيطالي لإفريقيا عن طريق الصحراء الغربية أذا اجهضنا هذا المخطط ستكون ضربة قوية لألمانيا ، وخاصة بعد انهيارها امام روسيا ، كما أن هناك الكثير من قادة الجيش الإيطالي كارهين لما يحدث، ومنهم عملاء مزدوجون .

جلس بجوارها ينفث من سيجارته ويتابع ضباب تبغه بينما كانت هناك فى الجهة الأخرى من الذاكرة تفكر أين يمكن لأهلها أن يكونوا الأن وهل هم بهذا العالم أم أتجهوا مرغمين صوب العالم الأخر ؟

وهى تهم بالخروج ذلك الصباح أخبرتها ديدو بأن غذاء السبت سيكون فى مسكن العم شالوم، سيجتمعون هناك بعد الصلاة . أعتذرت بأنها ستكون متعبة، كما أن المسافة من وسط المدينة لضاحية مصر الجديدة حيث يسكن العم شالوم يقطعها الترام في وقت طويل هذا بالإضافة أنها تنهي عملها فى وقت متأخر يوم السبت ، أستعدادًا لأجازة البنك الأسبوعية فى يوم الأحد .

كانت الأمطار غزيرة فى الخارج وبالرغم من ذلك لم تمنع مظاهرة كبيرة خرجت لتنادي بالاستقلال والأحتلال البريطاني للبلاد، تمنت لو بإمكانها الخروج بمظاهرة لتنادي هي إيضاً بما يفعله النازيون بالبشرية وأخذت الفكرة تكبر فى رأسها وتتسع مع كل خطوة تخطوها، لماذا لا تنظم مظاهرات تندد بإنهاء الوحشية النازية ؟ فمصر يسكنها عدد كبير من اليهود وخاصة بعد توافد عدد كبير من يهود أوربا اليها بعد الحرب ، ومؤكد أن هناك عدد كبير من الجاليات الأجنبية المنتشرة فى مصر بل والمصريون أيضاً سيشاركون فى ذلك، فليس هناك دين أو عرق بإمكانه مباركة ما يفعله هتلر فى اليهود والعالم كله . تبلورت الفكرة فى رأسها أكثر وجعلت منها أكثر حماسة .

لاحظت زميلتها إيمان التى تشاركها المكتب المجاور لها . أن بعد اسبوعها الأول فى البنك كانت به كالسنجاب المذعور ،أصبحت اليوم تنشر ابتسامتها فى أرجاء المكان وتشترك فى الأحاديث .

قالت لها إيمان ممازحة :

ــ أخيراً زالت مخاوفك وأعدتِ على المكان.

ــ فى خطواتي الأولى داخل أى مكان حتي خلال مراحل الدراسةالمختلفة كنت أحتاج بعضاً من الوقت حتى أعتاد الناس و المكان.

ربما كان فى كلماتها تلك جزُء من الحقيقة ,ولكن بعد الفاجعة التى تعرضتت لها مؤخراً كانت تظهر بشكل أكثر ضعفاً لمواجهة الأخرين والأندماج معهم .كانت إيمان من هذا النوع الذى يسرب دفئاً وحميمة فى أرجاء المكان جعلت إيفا التى تبحث عن صديقة أن ترتبط بها أكثر وأكثر لذلك أندمجتا معاً في أحاديث خاصة كالتي تشغل الفتيات فى مثل هذا العمر وتخلت أيفا عن حذرها وأصبحت الكلمات تنساب من فمها بدون توقف ، لكن الجمت لسانها المفاجأة عندما وجهت لها أيمان السؤال قائلة :

ــ حقًا إذا لم تكوني من الأسكندرية وهذه هي أول زيارة لك بالقاهرة لكنت تأكدت من أنك تلك الفتاة الجميلة التى كانت تتجاور معى فى المقعد الدراسى فى مدرسة ليسيه فرانسيه .

نابت أبتسامة عن أجابة إيفا بينما واصالت أيمان حديثها :

ــبالرغم أنه مر وقت طويل ولكني أذكرها تماماً ليس لأنها كانت من أمهر فتيات الفصل ولكن لأنها كانت دوماً منزوية ووحيدة فى مدرسة تديرها الراهبات كانت هي ومجموعة من الفتيات اليهوديات لا يتعدين اصابع اليد الواحدة ،كلٌ منكن تمتلك ذات النظرة والابتسامة، الفرق الوحيد هو أن شعرها كان فاحم السواد وتجدله فى جديلة واحدة سميكة تصل لمنتصف ظهرها .

كانت تتحدث وهى ساهمة فى المدى البعيد و ذهبت ايفا معها لهناك ، وتذكرتها للتو فقط عندما أخبرتها أنهما تجاورتا معاً فى مقعد دراسي واحد إلا أنها عند رؤيتها للمرة الأولى شعرت بأن هناك ألفة ما فيما بينهما .

ـــ هل تقصدين بأنها كانت منبوذة ؟

هل كانت توجه السؤال لها أم لنفسها ؟ نعم كانت تشعر أنها منبوذة من الفتيات اللاتي كن ينفضضن من حولها عندما يعلمن أنها يهودية بالرغم من عدد اليهود الكبير فى مصر. إلا أن أندماجهم فى المجتمع لم يعد بالشكل الواسع ،كما كان مسبقاً لذلك كانت الطائفة اليهودية كثيراً ما تتوحد وتلتحم مع بعضهم الاخر كدائرة محكمة الغلق على عاداتهم وأفكارهم فكانوا حريصين على احياء طقوسهم الدينية والأجتماعية التي تجمعهم معاً كغذاء السبت مثلاً وحرصهم الشديد على الألتفاف حول مائدة واحدة ،كذلك كما فى أفراحهم وأحزانهم تجتمع الجالية اليهودية كلها حتي وأن كانوا المدعوين لا يمتون بصلة لبعضهم الأخر ،ولكن فقط ليمنحوا أنفسهم ذلك الأحساس بالقوة والثقة .

منذ أن أشعل(أحمد عرابى) فتيل الثورة فى قلوب وعقول المصريين الذين عاشوا لعقود طويلة تحت الأستعمار أصبح الشعب المصري يكره كل من هو خارج نسيج المجتمع ، وكانت الطائفة اليهودية وعلى كثرتها وتسلقها سلم الأقتصاد وتربعها عليه فقد كان هناك رفض لهم داخل المجتمع المصري، ومع بداية القرن الجديد أخذت تلك الفجوة تتسع شيئاً فشيئاً ، وبالرغم من ذلك كان يهود مصر هم أكثر يهود الشرق دلالاً وثراء . حتى قيام الحرب العالمية الثانية ولجوء يهود العالم أجمع لمصر الواقعة تحت الأحتلال البريطانى أحد دول التحالف ضد هتلر لتكون بمثابة حصن الأمان لهم .

ـــ ربما لم تكن منبوذة ولكنها كانت تفضل الوحدة على الصحبة .

هى نفسها تلك المشاعر التى ظل أبيها يفتقدها لذلك قرر مغادرة البلاد حتى يتسني له العيش حياة أكرم وأفضل .ولكن هل نجح حقًّا فى فعل ذلك !!!؟

يخطأ من يعتقد بأن كل صفحات العمر من السهل طيها، هناك صفحات عصية عن الطي متكبرة عن الثني، كلما شرعت فى البدء فى صفحة جديدة فإذا بها متربصة بك تعيدك إليها من جديد

تماماً مثلما أوصلها سؤال ايمان لتلك الصفحة من العمر .

ـــ هل تقبلين دعوتى لكِ على الغذاء اليوم ؟

بدون تفكير أجابت بالأيجاب فهى تعلم أن ديدو لن تنتظرها على الغذاء كما أنها وجدت فى ايمان الصديقة التى كانت تبحث عنها ربما كانت اول خطواتها فى الاحتكاك بعالم جديد . بعد أنتهاء يوم السبت المزدحم بالأعمال ،كان سائق العربة السوداء الفخمة ينتظر إيمان كعادته دائماً امام بوابة البنك عند الثالثة عصراً للعودة بها للفيلا التى تقيم بها بحدائق القبة.

أستقبلتها والدة ايمان بوجها البشوش وبحرارة اللقاء دعتها للجلوس فى الصالون بينما دخلت ايمان المطبخ لتطمئن على إعداد الطعام . دقائق معدودة وحضر والد ايمان بالكثير بهيبة الوقار بعد أن القى التحية حضر السفرجى ليخبرهم بأن المائدة أعدت . نظرت الأم بالساعة الجدراية التى امامها ثم قالت بتوسل :

_ أحمد على وشك المجئ دعونا ننتظره ؟

بينما الأب الحريص على دقة المواعيد رفض قائلاً :

_ الساعة الرابعة موعد الغذاء نحرص جميعًا على أن نكون هنا قبل هذا الموعد فلماذا لا يفعل مثلنا ؟

_ ربما هناك امر ما تسبب في تأخيره .

مد الرجل يده لأيفا يدعوها للمائدة وبينما هم على وشك الجلوس دق جرس الباب ليأتى الخادم ويخبرهم :

_ أحمد بك وصل.

كعادته دخل تسبقه جلبة وهو يعاتبهم على أنهم قد بدوا فى تناول الطعام بدونه ولكن لسانه انعقد عندما نظر ليجد هناك ضيفة تشغل المقعد المجاور لأخته , ضيفة على قدر كبير من الجمال والجاذبية، جعله يسمر النظر عند وجهها بدون أن يتفتَّوه بكلمة تاركًا مهمة تعريفه بها لأخته ايمان عندما قالت :

_ أحمد أخي يعمل بالمحاماة .

_ ناديا زميلتي بالبنك .

لم تعتقد ايفا أن قلبها سيكون سريع الخفق فى يوم من الأيام عند تشابُك عينها بعيني ذلك الشاب الوسيم الذى كان فى مقتبل الثلاثين بعيون سوداء واسعة تظللها رموش طويلة وبشرة سمراء وقوام فارع كما هو الحق الذى يطالب به ، على الرغم من كل الوجوه التى رأتها لشباب ورجال أكثر وسامة وجاذبية منه ألا أنه كان يملك شيئاً ما جعلها لا تستطيع أن تحيد النظر عنه.

كان الغذاء شهيًا والأشهي منه كان لقاءها بأحمد الذى جاء بغتة فى عتمة الحياة ليضئيها مجدداً ،ولكن هل كانت بحال تجعلها تقع تحت إغراء ذلك الأمر لذلك عنفت نفسها مؤنبة .

ولأنه هو رجل القانون والمذكرات الممتلئة بالحجج والبراهين لم يكن من الصعب عليه أن يخلق حوارً على قياس لقائها الأول.

سألها _ لماذا تركت الأسكندرية وجئتِ للقاهرة ؟

كم كان يلزمها من الأكاذيب لتقنعه بشخصيتها الوهمية ؟

_ على إثر غارة قوية تحطم منزلنا ومات اهلي فلجأت لأحد معارف أمى للعيش عندها هنا بالقاهرة .

وبنظرة بها عدم أقتناع بما يليق برجلٍ يعمل بالمحاماة .

_ ولكن أليس لك أى أقارب بالإسكندرية ؟

_ لا هُم بين بلدان العالم المتفرقة.

هز رأسه وأمسك بفنجان القهوة بين يديه ثم مال بظهره على المقعد واضعًا ساقًا فوق الأخرى.

_ربما بعد أختطاف موسيليني وأن كانت تلك الأشاعات عن قتله صحيحة يصبح هناك أمل مجدداً فى القضاء على القوة الألمانية .

ما إن سمعت هذا الكلام وقد مسها الفرح تارة والدهشة تارة أخرى وأخذت فى ملاحقة أحمد بالأسئلة :

_ أحقًا ما تقوله موسيليني قد قتل ؟ومن فعل ذلك؟ ومتي ؟

ـ ألم تسمعي الأخبار اليوم كل الإذاعات لا هم لها سوي إذاعة الخبر ؟

ـ لا فى الحقيقة لم أسمع أخبار ولكن من فعلها ؟

ـ هناك أقاويل أنه الملك عمونايل ملك إيطاليا وفرقة ثورية إيطالية ترفض سياسة موسلينى وأتحاده مع هتلر .

فجأة قامت واقفة وأعتذرت بأن عليها الذهاب .

ـ أنتظري حتي يوصلك السائق .

ـ لا ،أفضل السير لأول الطريق ومن هناك سوف أستقل الترام .

ـ إلى اللقاء .

أستغرب للطريقة التى أنهت بها الحديث وإعلانها الرحيل هكذا بدون سابق أنذار، قام بتوديعها حتى البوابة الحديدية للفيلا بينما أكتفت إيمان بتوصيلها لعتبة الباب .

ـ أين تسكنين ؟

ـ فى منطقة الظاهر فى أحد الشوارع المتفرعة من شارع الملكة نازلي .

ـ احترسي لنفسك .

وبنظرة وكأنه يطوقها بها رحلت بها . وصلت لناصية الطريق حيث كابينة عمومية للهاتف، أحكمت غلق بابها ورائها وأدرات أربع أرقام أجابها صوت كسول وكأنه لايزال فى نعاسه بعد :

ـ الو .

ـ يوسف هل سمعت الأخبار ؟

ـ أى أخبار ؟

ـ موسليني قد خطف وهناك إشاعات تؤكد موته .

ـ نعم نعم لقد سمعت الأخبار .

كان يتحدث وكأن الخبر لا يعنيه بتاتًا!

ـ ولكن ، لما أنت غير مهتم؟

ـ ماذا علىّ أن أفعل إيفا أهدئي أنتِ .حتي أمر عليك عند السابعة موعد الاجتماع .

ـ حسنًا ، سأكون جاهزة فى تمام السابعة، إلى اللقاء .

ـ أنتظري... من الأفضل أن نتقابل عند ناصية الطريق حتى لا تشك ديدمونة فى شيء.

ـ حسناً فى السابعة عند ناصية الطريق .

ـ إلى اللقاء .

كانت السابعة إلا الربع تقريباً عندما همّت بغلق الباب وراءها بعدما أطفأت الأنوار إلا نور السهراية التى تحرص ديدمونة على إشعاله حتي يتسني لها السير فى أنحاء المنزل عند رجوعها من الخارج . شعرت بمزيد من الراحة عندما لم تجدها قد حضرت بعد للبيت ، حتي لا تلاحقها بالأسئلة إلى أين تذهبين فى مثل هذا الوقت ؟ ومع من ؟ وهي التى على يقين بأنه ليس هناك من مكان ،مثلما ليس هناك من أحد لتتوجه إليه . قامت بترك ورقة على الطاولة تخبرها فيها أنها فى موعد مع طبيب لعلاج شعرها الذى لم ينبت حتي الأن .

كان يوسف ينتظرها بقامة مديدة وبمعطف واقي من المطر بينما لم تنسَ هى أصطحاب مظلتها معها . فى الوقت الذى مدت له يدها لتصافحه وجدته بدلاً من ذلك يسحبها له ويقوم بتطويقها بكلتا ذراعيه تململت بداخله ترفضه . حتي أذعن لطلبها وفك حصارها وبدون أى حديث قام بالأشارة لتاكسي، وعلى غير العادة ركب فى المقعد الأمامي بجوار السائق بينما ركبت هى فى المقعد الخلفي وكأنه بفعلته تلك يعاقبها على رفضها له. هى التى كان يلزمها الكثير من ربطة الجأش والسيطرة على النفس لموعدهما هذا ، حتى يتسنى لها أن تبعد عن رأسها وهم المؤامرات والأكمنة ، والرصاصات التى تُطلق من حيث لا تعلم ، ولا تدري من أي جهة قد تصوب عليك ، و تحديداً داخل أى جزء من جسدك ستنحشر فيه لترديك قتيلاً ! ؟ و لكن هل كان علي يوسف الذى عاش هنا فى مأمن أن يتفهم ما يدور فى رأسها الجميل!؟

كانت فرق خاصة تُسمى بوحدات القتل المتنقلة تقضي على كل من هو يهودي، وكانت فى البدء تهدف لحصد ارواح الرجال من اليهود ولكن فيما بعد أصبح ليس هناك من فارق بين النساء أو الأطفال والعجزة ، فأخذت تقتل كل من يمت لذلك العرق من الدرجة الثانية ، وفقاً لقوانين نورمبرج النازية العنصرية بأن كل من اجداده كانوا يدينوا باليهودية فهو يهودي حتي كل من تحول من تلك الديانة لديانات أخرى تجرى عليه أحكام وقوانين العنصرية، وعلى فرق القتل السريع ان تقتله بعد التأكد من هويته وتتبع خطواته هو وأسرته، وكانت تقوم بذلك بعد طرق ابوابهم بكل ثبات وثقة أو تتبعهم فى الشوارع والطرقات وفجأة توقفت هذه الفرقة الخاصة عن فعل ذلك بحجة أن القتل وجهاً لوجه يرهقها عاطفياً ، وقرر الحزب النازي التخلص من اليهود بالأبادة الجماعية، رأفة لمشاعر الفرق القتالية !!

أبتسمت بألم وهى تقلب في الأوراق التى كتبتها عن الأفعال الإجرامية التى ترتكب من قبل النازية بعدما ملأت فى كتابتها

الكثير من الأوراق أستجمعت جميع ما خزنه عقلها من دراستها للقانون ، ممنية نفسها بأن تنشر تلك الأوراق فى جميع الصحف ببلدان العالم وأن كانت معظم دول أوربا واقعة تحت الأحتلال الألمانى ألا أنه هناك الجماعات الثورية المحتشدة فى كل مكان والتي من صالحها أن تكشف للعالم الدموية النازية .

دخلا لقاعة الأجتماعات بذات الطريقة التى تسللا بها للنايت كلوب فى المرة الأولى .كان فى ذلك اليوم الكثير من الابتسامات تعلو الوجوه مطالبة بحصتها من الأمل .

ـــ أصبح من المؤكد خطف موسيليني من قبل الملك عمونايل وحكومة الانقلاب الإيطالية أعلنت مسئوليتها عن ذلك

أعلن ذلك رئيس الجماعة ليتعالى التصفيق والمباركات ، بينما ساشا الهارب من القوات النازية والذى يعلم تماماً كيف يفكرون قال :

ـــ لن يسكت هتلر عن ذلك فلن يضحي بموسليني فهو ورقته الرابحة فى الحرب .

ـ نعم من المؤكد انه لن يسكت عن ذلك، فالطلاينة حلفاء عظام لهتلر وروما هى الشريكة المخلصة لألمانيا ، ولكن حكومة الانقلاب مؤكد تنوى تسليم موسليني للحلفاء .

كان أحد الجالسين يدون شيئاً فصاح فيه الرئيس بأن تلك الأمور الجد خطيرة لا يحق له بتدوينها فى أى من أوراق .

فى أثناء ذلك فتح الباب سريعاً لتخرج منه أحد الفتيات من الواضح أنها إيطالية وتمسك بيدها رسالة جاءت على اجهزة التيكر، تلك الأجهزة التى ترسل الرسائل الكلامية بشفرات خاصة . نظرت أيفا من الباب المورارب لترى المكان بالداخل والذى كان كخلية نحل عدد كبير من الفتيات بأعمار مختلفة وأشكال مختلفة كلاً منهن تجلس أمام جهاز للتيكر بينما اجهزة التيلفون لا تتوقف عن الرنين وقتها إيقنت أيفا أنها داخل جماعة لها اهمية واهداف خطيرة تسعى لتحقيقها وإلا ما كل هذا ؟! أخذ الرئيس الورقة التى سلمته له الفتاة التي كانت على عجل حتي إنه لم يعنيها أن تنظر لطاولة الأجتماع فرجعت ادراجها مغلقة الباب ورائها بينما نظر الرئيس مطولاً فى الورقة ثم قال :

ـ أعلنت الحكومة الإيطالية بأنها ستظل حليفة لألمانيا حتي يتم الوصول لمكان موسلينى .

قهقه الرجل بصوت عالي:

ـ أنها لعبة ايطالية واضحة تماماً فالملك عمانويل ورئيس وزرائه الجديد (المارشال باديليو) يلعبان على الوجهين بأطمئنان فمن ناحية يؤكدان لهتلر أنهما بجانبه ومن ناحية أخرى يفاوضان الحلفاء على الصلح وفى يدهما ورقة رابحة وهى تسليم موسليني لهم .

علق أحد الأعضاء :

ـ ومؤكد هتلر لن تدخل عليه تلك اللعبة .

ـ لقد القي القبض على موسليني وهو يغادر قصر الرياضة، ثم تحركت به عربة أسعاف إلى حيث لا يعلم أحد، وبعد ذلك أنتشرت مئات الإشاعات عن مكانه و هي إشاعات لا تمت للواقع بصلة وإنما هي حكمة الشعب الأيطالى و ولعه فى حبك القصص وترويج الإشاعات كما أن الحكومة نفسها تطلق هذه الإشاعات حتى تضلل الجانب الألمانى .

استمر الأجتماع لأكثر من الثلاثة ساعات متواصلة وأنقَّض ما بين يأس و رجاء فى تسليم الحكومة الإيطالية موسليني للحلفاء وتخليها عن هتلر وبذلك سيكون موقف المانيا ضعيف جدا . قبل انتهاء الاجتماع قرأت جزء من الأوراق التى كتبتها، أشاد الجميع لعملها على كشف تلك الحقائق الأجرامية ووعدها الرئيس بأنه سيقوم بنشرها فى عدد كبير من صحف العالم . كما طلبت منه تنظيم وقفات تندد بما يرتكبه هتلر فى حق اليهود برفع لافتات ضد أنتهاكاته وافق أغلب الأعضاء على هذا العرض بينما كان لرئيس الجامعة رأى مختلف .

ـ ولكن تلك الوقفات ربما تلقى بعض من الضوء على تنظيمنا السري!

قاطعه أحد الرجال:

ـ يعد هذا التوقيت الذى تلفظ فيه المانيا أنفاسها الأخيرة مناسبًا تماماً لرفع تلك اللافتات .

ردت إيفا :

ـــ ستخرج مظاهرة كبيرة تضم أعدادًا كبيرة من يهود مصر سوف نعلن عن أهدافها وتوقيتها فى المعابد اليهودية وسنجعل الحاخام الأكبر بنفسه يدعو لها وسنقوم بتحضير عدد كبير من اللافتات ونخزنها فى المعابد حتي صباح يوم المظاهرة التي ستخرج منظمة من المعابد اليهودية بعد توزيع تلك اللافتات على المشاركين .

أعقب أحد الأعضاء :

ـــ وبهذه الطريقة لا يمكن لأحد أن يتخيل أن تلك المظاهرة، ينظمها تنظيم سري بل الطائفة اليهودية بأنفسهم .

قهقه صوت من أخر الطاولة :

ـــ أى مظاهرة!؟ وأى وقفة تلك التى تتحدثون عنها ؟ هناك أكثر من ست معسكرات للأبادة تعد بمثابة مراكز للقتل وقد صممت خصيصاً لتنفيذ عمليات الإبادة الجماعية بالقتل بالرصاص أم بالغاز بالإضافة للمجاعات ، الخارجية الألمانية تلح على الدول المتحالفة والدول المحتلة لمساعدة الألمان فى ترحيل اليهود الذين يعيشون فى بلادهم ، فرنسا ،بلجيكا ، رومانيا ، بولندا ، نرويج ، مجر ، ايطاليا ، بعض دول شمال افريقيا ، ايها السادة اليهود تتم إبادتهم وقتلهم على مرأى من العالم الذى لا يقوى على التدخل ، فأى وقفة !وأى لفتات؟ تلك التي تفكرون فى تنظيمها !؟

أصاب الجميع الخرس بعدما ألقى هذا العضو الحقيقة بدون رتوش وبدون تزيف فى الوجوه ، ولكن إيفا الممتلئة بالثورة والتى لا تيأس أبداً :

ـــ لم نوعد أحد بأن تلك المسيرة ستنهي الوحشية النازية ولكن يكفينا شرف المحاولة أوليس أول الغيث يبدأ بقطرة ؟

ختم الرئيس الأمر بتوجيه كلامه لأيفا بعدما ضغط على زر لتهرع اليه فتاة من الغرفة الأخرى :

ـــ يمكنك إذن التخطيط مع هانا لكل ما تنوين فعله حيث ستوفر لك كل ما تريدين .

هانا فتاة يهودية بولندية فرت هى وأهلها الى مصر هربًا من النازية ، رفيعة وقصيرة ترتدى نظارة طبية غليظة فوق عينيها ، لم تهتم بالنظر لإيفا حتي اصطحبتها ورائها لغرفة العمليات التى تحتوي على أجهزة التيكر والتيلفونات وتجلس عدد كبير من الفتيات فى مكاتب متجاورة تستقبلن الرسائل ,كان صوت الأجهزة ورنين الهاتف لا يتوقف ويدعو للازعاج الشديد لذلك وجدت إيفا نفسها تضع يدها فوق رأسها بينما فهمت هانا ذلك فأصطحبتها لغرفة فى أخر الممر بها طاولة وكرسيان من الخيرزان .

ـــ إيفا سركسيان .

مدت لها يدها لتصافحها :

ـــ هانا دمشري .

ثم التقطت أنفاسها وأضافت وهي تعد الأوراق وتبحث عن قلم . أثناء فرد إيفا للاوراق لمحت هانا على ذراعها وشمًا لنجمة دواد الذي وشِمت به عند دخولها للمعسكر ثم سألتها

ـــ هل أنت الفتاة الهاربة من المعسكر النازي ؟

ـــ نعم .

ـــ أن الفرار من ذلك المعسكر يعد معجزة !

وضعت الأوراق على الطاولة وحدثتها إيفا عن فكرتها عن المسيرة الأحتجاجية ، مرت ساعتان وهما ترتبان متي سوف تخرج المسيرة . وإلى أى الطرق ستسير . وأخيراً كانت اللافتات بعباراتها العدائية التى تندد بالارتكابات رسمت إيفا شعار النازية وبجواره صورة لجمجمة .

وفى يوم السبت كانت جميع المعابد اليهودية تتحدث عن المسيرة وتوزع اللافتات على الرجال فى المعابد الذين بدورهم سينشرون الخبر لنسائهم واطفالهم ويخرجوا فى مجموعات كبيرة ليتجمعوا عند مكتب شئون اليهود بميدان العباسية . أخبرت إيفا ديدو بموعد واهداف المسيرة ولكن ديدو لم تلقي بالاً لكلمات أيفا ولم تهتم ، ولكن فى صباح اليوم المحدد أصرت أيفا ان تخرج معها وهى تحمل لافتات التنديد . أحبطت ايفا فى صباح اليوم عندما كان التجمع ضعيف ولكن عند الظهيرة كانت الوفود من كل مكان تأتى حاملة اللافتات ، حاخامات بملابسهم الدينية، رجال وشباب ، نساء وفتيات و الأطفال ، الكل يهتف فى حماس لا للانتهاكات النازية فى العالم و لا للمذابح اليهودية ...

وضعت ديدو كوب اليونسون المحلى بالعسل على المنضدة الصغيرة التى تفصل ما بين الفراشين فى غرفة نوم إيفا قائلة :

ـــ ربما لم يكن عليك بالصراخ بهذا الشكل أنظري كيف أذيتِ احبالك الصوتية ؟

ـــ أحبالي الصوتية !

تطقتها بسخرية ثم أضافت :

ـــ دعيني أقص عليك قصة ربما وقتها ستبدلين رأيك بخصوص أنى أذيت أحبالي الصوتية .

في ليلة شتوية شديدة البرودة علمت تماماً ما ينتظرني في هذا المكان فقد استقبلن رجال الوحدة الخاصة باللكمات والضرب بمؤخرة بنادقهم ونباح كلابهم الذى لم يتوقف منذ وصولنا فى طوابير لا نهاية لها، كان تسجيل اسمائنا فى دفاتر خاصة يستغرق ساعات طويلة وبعد التسجيل نقوم بأرتداء ملابس قذرة مستعملة و ملوثة بالدماء والبراز على ظهرها أشرطة حمراء، ولكل سجينة رقم مسلسل و وشم خاص يدق على ذراعها واخيرا كان يجب التقاط ثلاث صور فوتوغرافية لكل منا ،ثم نقاد كالنعجات لمكان يسمي الفيزا مكان فسيح يخلو من الناس تحف به من جهة دورات المياه برائحتها العطنة ومن جهة أخرى يحدنا سور مكهرب ،كنا نجلس فى الوحل فى درجة حرارة تحت الصفر ونعانى من جوع وعطش وبرد حتى أن الكثير من السجينات لم يحتملن تلك القسوة ومن فرط اليأس أقدمن على السور المكهرب ، حتي ينهين تلك المأساة بأنفسهن ، وخاصة بعد عمليات الفرز التى فرقتهن عن أحبائهن وأقربائهن ، الذين قد سيقوا مباشرة لغرف العاز نظرًا لعجزهن أو مرضهن أو حتى لمنظرهن الذى لم يحوز على أعجاب المسئولين . وربما كانت أمى إحداهن فقد كانت تعاني من نحافة مفرطة وضعف عام خاصة بعد أن عكفت عن تناول الطعام منذ القاء القبض علينا . ثم وصلنا للمعسكر الذى كان ينتشر فيه جميع الأمراض المعدية بالإضافة للحشرات والفئران كانت السجينات من فرط البرد والمرض والجوع يقعن على الأرض موتى دون أن يلتفت لهن أحد!

ونظراً لصعوبة حصر عدد النساء فى الطابور اليومي للصباح والمساء كان النداء علينا يبدأ فى الثالثة فجراً ويستمر الى الظهيرة فكان الكثير منهن ومن فرط الوهن والتعب يسقطن مغشيًا عليهن ، هذا بخلاف صافرة خاصة لها معني واحد هو الأبادة . كن نتساءل عند سماعها من منا يا ترى ستنجى ومن منا لا ؟ نصطف فى طابور طويل وتطوف مشرفة بين الطوابير تلكز من يقع عليها الأختيار بعصاها الخشبية حتي تخرج من الطابور وتسعد للذهاب الى ساحة الموت حيث تكتظ الكثير من النساء من مختلف انحاء العالم كل منهن تقوم بخلع ثيابها

وتقف فى خجل تدارى بأحد يديها عورتها وهى ترتجف برداً وخوفاً أمام "ميجيل" وهو القائد المختص بأختيار النهاية لحياة هؤلاء النسوة يقف يتفحص كل أنثي ويختار ضحاياه بروية وعناية .

ـــ يا الله ما كل تلك الوحشية ؟ما بال هؤلاء الناس ؟لماذا كل هذا ؟ ولكن كيف نجوت من تلك المأساة ؟

كانت قد أنتهت من تناول كوب اليونسون وشاحت بنظرها لبعيد وهي تجيب :

ـــ بعد ذهابي للمعكسر بحوالي الأسبوع كانت قد تكونت فرقة عقاب خاصة بقيادة طاغية اسمه "مكروس" حيث منح الحق للحراسات الألمانيات بتأديب السجينات بالضرب و في أحد الصباحات أُخترت مع تسعين سيدة من يهود فرنسا للذهاب للحقل لزراعته وعندما أستبد بنا التعب والجوع توقفن عن العمل وأبلغت الحارسة الخاصة القائد مكروس بذلك فطلب منها أن تقوم بتأديبنا . فما كان منها سوى أنها هوت على رءوسنا واجسادنا بالفأس الحديدية وتراكمت اجسادنا الواحدة فوق الأخري .كان من نصيبي ضربة حادة على مؤخرة رأسي ادخلتني فى غيبوبة ظنوا معها أنني قد فقدت الحياة لذلك نقلوني مع الجثث الباقية للمدافن بدون كشف طبي علينا بعدما أمرهم مكروس بذلك خوفاً من بطش القائد مينيجل عليه إذا هو علم بذلك . وضعوا أجسادنا فى شاحنة ممتلئة بروث الحيوانات لتختلط مع الجثث وعلى حافة الطريق حيث المقبرة الجماعية التى وجدت هناك للذين لم يمنحهم القدر فرصة أن يكابدوا الذل والمهانة وقد لفظوا أنفاسهم الأخيرة وهم فى طريقهم للمعكسرات ، مجرد حفرة كبيرة تلقي فيها الجثث بدون الأهتمام حتى أن يردموا فوقها الرمال . فتح السائق مؤخرة الشاحنة التي وضعها على حافة الحفرة وبمجرد فتح الباب كانت قد انزلفت الجثث الواحدة تلو الأخرى .كنت قد أفقت من الغيبوبة وأنا فى طريقي للمقبرة وفضلت أن أدفن حية على أن ارجع مرة أخرى لألقي مصيري فى المعكسر ظنًا مني بأن تلك الجثث ستلقي أحترام الدفن وتردم بالرمال ونظراً لأنهم لم يشغلوا أنفسهم بمشقة الردم فقد منحني عمراً جديداً أنتظرت حتي حل المساء وخرجت من المقبرة بأعجوبة ومشقة بالأضافة للأوجاع من جراء ضربة الفأس على مؤخرة رأسي وتضوري من الجوع لعدم تناولي الطعام منذ الصباح فكنت اسير ملطخة بالدماء ورائحة روث الحيوانات كانت تفوح مني , وبالرغم من كل ذلك كنت مصممة على الهرب لأبعد مكان . أخذت أسير لمسافة طويلة لحقل بعد أخر فى طريق ريفي وعندما لم تعد قدمي قادرة على حملي وجدت نفسي وقد سقطت وسط حقل للقمح وهناك وسط سنابله لا أعرف كم مَّر على من وقت وأنا مغشيٌّ عليَّ؟ أفقت لأجد نفسي على الفراش بملابس نظيفة ورائحة الصابون والمطهرات الطبية تفوح مني وقد ضمدت مؤخرة رأسي بضمادة طبية . أخبرني مسيو مارشال الفلاح البولندى أنه وجدني وسط سنابل القمح وحملني للبيت ومن مظهري الرث و الوشم على ذراعي علم أنني هاربة من المعكسر وكان سؤال واحد هو الذى يلح عليه كيف أستطعت الفرار من السلك المكهرب ، والكلاب النباحة ؟

أخبرته أنى فررت من الموت وليس من المعسكر.كان رجلًا طيبًا ورحيمًا لم يشأ أن يبلغ عني السلطات وفى الوقت نفسه رفض أن يقوم باستضافتي أكثر من ذلك حتي لا يتعرض للموت، فكانت عقوبة أيواء الفارين من المعسكرات النازية هى الموت رميًا بالرصاص على الفور بدون محاكمة. أرتديت زي الفلاحات البولنديات الذى يخص زوجته وكتب لي عنوان شخص وأكد لى أنه سوف يقوم بمساعدتي . وكان هذا الشخص أحد أفراد المقاومة السرية التي تعارض سياسة هتلر وتساعد اليهود فى الفرار من المذابح التى ترتكب بحقهم ورتب لي هذا الرجل مكان فى قبو أحد السفن التي سوف تبحر فى البحر المتوسط .كنت أعلم وقتها أن تلك الباخرة ستشق طريقها فى البحر المتوسط

وسترسو فى الكثير من الموانى وعلى حد قول الرجل أنها فى طريقها لاثينا وكازابلانكا ففضلت أن أذهب للمغرب حيث هناك عدد كبير من اليهود العرب، ولكن عندما سمعت يومها أننا فى ميناء الأسكندرية فرحت فرحة عارمة، وركضت لسطح السفينة ومنها للبر .

_ أى احداث بائسة تلك التي شاهدتها ؟!

_ هي أحداث لن تُنسى يوماً وخاصة ملامح تلك الحارسة الألمانية الجامدة وقوامها الذى يشبه كثيراً قوام الرجال تلبس زى الحراسات الرمادي الذى يتوقف طوله تحت الركبة بقليل لتظهر عضلة ساقها وجوربها الأبيض القطني وحذاء اسود عسكريًا و تقف فارجة ساقيها وهى تمسك بالفأس وتقوم بتحطيم رءوس السيدات بدون شفقة أو رحمة ولكن لن أدعها تنجى بفعلتها أبداً .

_ ماذا تنوين أن تفعلي ونحن أصبحنا كالجرذان نخشي الخروج من الجحور؟

_ تأكدي أنه لن يطول ذلك الأمر كثيراً ، وسأفضح كل هؤلاء وبالذات تلك الحارسة، فقط لو أستطيع أن أتذكر اسمها لقد أفقدتني تلك الضربة جزء كبيراً من الذاكرة وخاصة الأسماء والأرقام ، فيما عدا ذلك، فالاحداث باقية كما هي تأبي أن تُنسى ولكأنها عصية عن النسيان .

_ ومن عساه أن يَنسى أحداث مثل تلك؟

_ والأن هل مازلت تهتمين بأحبالي الصوتية ؟

أبتسمت ديدو بألم وتركتها لتذهب لتفتح الباب الذى كان يرن جرسه بالحاح .

ورابت ديدو الشراعة الزجاجية لتفاجأ بفتاة أنيقة وجميلة تقف أمامها مبتسمة وهى تسأل :

_ هل هذا منزل ناديا ؟

_ نعم ولكن من أنتِ ؟

_ أنا أيمان زميلتها فى العمل.

أوصدت ديدو الشراعة فى وجه الضيفة بعدما قالت لها " انتظري " وتركتها لتخبر أيفا أن هناك زميلة لها بالعمل. فتضع إيفا سريعاً القبعة الصوفية على رأسها لتخفى بها صلعتها .

كانت ايمان تسير وراء ديدو وهي تتفقد المكان المنزل المعتم إلا من بصيص لضوء السهارة المقادة فى السقف بينما علقت عينيها على نجمة دواد المعلقة فى الصالة فشعرت بقبضة في الصدر .صاحت أيمان بأسم صديقتها بمجرد رؤيتها ثم ضمتها لها بحنان . أخبرتها أنها كانت قلقة عليها لتغيبها عن العمل اليوم بدون سبب ، لذلك كانت قد فكرت المرور عليها لتطمئن أنها لم يصيبها مكروه وشجعها على ذلك أخيها أحمد .
أندهشت أيفا عندما علمت بتشجيع أخيها لها على زيارتها فرددت أسمه :

_ أحمد !

ـــ نعم أحمد أنه حتى ينتظرني بالسيارة .

أبتسمت بخبث ولكن أيفا تجاهلت الموضوع . أخبرتها أن سبب عدم ذهابها للعمل هو اشتراكها فى مظاهرة تندد بالعدوان النازي على العالم و اليهود وخرجت هى والطائفة اليهودية فى مظاهرة كبيرة .

ـــ نعم لقد رأيتها تطوف الشوارع , ولكن هل تعتقدين بأن تلك المظاهرات ستنهي الجُرم النازي ؟

ـــ أن لم تنهيه على الأقل ستحد منه .

ـــ عزيزيتي أيفا دوماً أراك حزينة ، حتى أنك نادراً ما تبتسمين بعض الزملاء فى العمل فسروا ذلك على أنك متعالية ومغرورة ولكني أعلم أنك لست كذلك ، مؤكد هناك شيئاً كبير ألم بكِ ، لو تحبين أن تحكي لي كلي اذاًن صاغية .

ـــ وهل تعتقدين ما يحدث فى العالم امرًا هينًا! انظري فى الصحف وأنت تعملين كم قتيلٍ يقع يوميًا ؟

صمتت أيمان لم تتفوه بكلمة . بينما دخلت ديدو الغرفة ووضعت كوبًا من عصير الليمون البارد على صينية فضية قديمة وأبتسمت فى وجه ايمان ومضت .

ـــ هل هذه السيدة التى تقمين معها ؟

ـــ نعم.. بالرغم من مظهرها القاسي ألا أنها كثيرة الطيبة .

غادرت أيمان بعدما القت تحية المساء على ديدو التى كانت تجلس فى الصالة وتضع الغطاء الصوفي فوق ساقيها وتتدلى جدائلها من أسفل المنديل القطني الذى عصبت به رأسها .

أغلقت أيمان باب السيارة ورائها وهى تصيح :

ـــ أوووووووف

أدار أحمد موتور العربة وسألها :

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ لا شيء ولكن المنزل وهذه السيدة والأثاث والإضاءة المعتمة كله يدعو للأكتئاب ربما لذلك هى دوماً مكتئبة أى شخص مكانها كانت ستصيبه تلك المشاعر

ـــ ليس كل الناس يقيم فى الفيلات والقصور والاماكن فائقة الأناقة مثلك أيمان .

ـــ أنا لن أتحدث عن فيلات أو قصور هناك شيئاً يبعث على الحزن والأكتئاب.

ـ دعينا من ذلك وأخبريني كيف حالها ؟

ـ أبداً هى بخير كل ما هنالك أنها لم تأتي اليوم لأشتراكها فى المسيرة اليهودية التى تندد بالنازية .

ـ يالا رقة مشاعرها ! قبطية وتشترك مع اليهود فى مسيراتهم .

ـقبطية ! من قال هذا ناديا يهودية .

دوي صوت ضغطة المكابح لقوية وأحتكاك أطارات السيارة بأسفلت الطريق وصوت صياح يردد :

ـ يهودية !

خّلفت زيارة إيمان لإيفا فى ذلك اليوم وراءها الكثير من التساؤلات . هل كان تشجيع أحمد لأخته لزيارتها وقلقه عليها تعبيرًا عن المشاعر التي وشت بها عيناه فى ذلك اليوم ؟ وهل تلك المشاعر قادرة على هزيمة تلك الأشياء القوية والتى تعتبر من أكبر العراقيل التى تقف في مواجهة الحب والزواج كالدين والعرق !؟ ربما هي أيضاً شعرت بانجذاب ما تجاهه هناك شيئاً ما تبثه رجولته فى صمت لا يمكنها تجاهله ولكنها هى المتخمة بالأوجاع والألم هل بإمكانها أن تقع تحت سطوة تلك التفاهات ؟ فما الحب بالنسبة لها سوى فوضي من المشاعر والأحسايس تفور وتثور ثم تهدأ رويداً رويداً بعدما يفوت الأوان ونقف فى ذهول ونحن نتساءل هل هذا الشخص هو من أحببناه حقاً؟لا لن تستسلم لتلك المشاعر ،هناك هدف ما وقضية تسعى إليها ولن تترك الفرصة لأي شيء ليتسلل بداخلها ويشغلها ولو بقدر بسيط عنها . هؤلاء القتلي الأبرياء من مختلف الأعراق والأديان فى شتى أرجاء العالم وتلك الأجساد التى تزج فى القطار الليلي ومنه للشاحنة التى تلقي بهم فى مواجهة النار والبركان بمعكسرات النازية .

فى هذا الكازينو على النيل كانت إيمان وأحمد يتناولا عشائهما من اللحوم المشوية ، نوافذ المطعم مغلقة لبرودة الجو ولكن كان بأمكانهما مراقبة جريان ماء النهر من خلف النافذة الزجاجية .

ـ غريب أنت حقّا , وما الفارق فى أنها قبطية أو يهودية المشكلة تكمن فى أنها لا تدين بالأسلام عدا ذلك سيان !

ـ لا عزيزتي علينا تقبل فكرة الأخر بمن يدين بالقبطية أما اليهود فهناك دوماً حائل فيما بيننا وبينهم .

ـ يا لسذاجة الأفكار ، الدين لله والوطن للجميع مالنا ومال يهودي أو قبطي أو مسلم ، كما أنك رجل ويحق لك الأرتباط بأى امرأة تدين بأى دين .

ـ أى سذاجة أفكار تلك التى تتهميني بها ! أنها حياة ونسب واطفال !

قهقه بسخرية حزينة :

ـ تخيلي رد فعل أبيك مثلاً عندما أخبره بأني سأصطحبه معى ليخطب لي فتاة يهودية !

ـ أتخيل طبعاً.

فى ذلك الصباح فى البنك كانت تخطو متأنقة فى تايير كاروهات من الصوف وحقيبة يد غزلت بخيوط الكانفاه لمشهد غرامى لروميو وجيوليت بيد من العاج البني كانت قد أبتاعتها بالأمس من محل شيكوريل* بقصر النيل ، بعدما حصلت على راتبها الشهري وأوفت بوعدها لديدو وأعطتها قسط وافر منه .

ـ ما أجملك فى هذه الملابس .

ـ شكراً ايمان .

ـ وما أخبار تلك السيدة غريبة الأطوار ؟

ـ تقصدين ديدو، أنها ليست بغريبة الأطوار ولكن على ما أعتقد هناك أمر ما حدث لها بحياتها جعلها لا تحب الحديث او الخوض فيه .

ـ ولم تخبركِ عنه ؟

ـ أعتقد أنه سر أو ذكرى حزينة لا تريد أستدعائها من الذاكرة .

ـ دعيني منها الأن ، هناك حفلة فى فندق الأوبرج ليلة الخميس ، ستكون حفلة كبيرة ومهمة سيحضرها صفوة المجتمع وربما الملك ايضًا .ما رأيك فى الحضور ؟

ـ اعذريني إيمان. أنا حقًا لا أحب حضور الحفلات.

ـ لماذا ربما تعدل من حالتك المزاجية موسيقي ورقص وأغانٍ وشواء فى الهواء الطلق .

ـ شيء واحد بإمكانه أن يعدل من حالتى المزاجية .

همست لنفسها وهى تغادر المكتب وبيدها بعضاً من الدفاتر تحتاج إمضاء المدير .

فى الردهة التقت يوسف الذى أخبرها مراراً أنه ليس من الجيد أن يراهما أحد وهما يتحدثان معاً داخل أروقة البنك لذلك لقاؤها به لم يتعدى الدقيقة تبادلا فيها تحية الصباح، وأضاف هو قائلاً :

ـ فى السابعة اليوم بمكاننا المعتاد ولا تتأخري هناك أجتماع هام وعاجل .

ابتسمت ومضت فى طريقها .

عندما ذهبت للبيت لم تكن ديدو بأنتظارها كعادتها دائماً في الإثنين الأول من كل الشهر وفى زيارتها السرية التى لم تفصح عنها ، لذلك لم تعترضها بأسئلتها الملحة وهى ذاهبة لموعدها، ترتدي تايرها الجديد وحقيبتها التى لاقت أعجاب الجميع، وربطت فوق راسها إيشاربًا حريرًيا لبرودة الطقس بالخارج وغادرت .

كانت فى انتظاره عند حافة الطريق مشغولة بالنظر على فستان معروض فى فاترينة المحل ،عندما وجدت يد تمسك بيدها وبدون أن يتفوها بكلمة كانا يسيران بمحاذاة كلٌ منهما بالاخر . هى بحقيبتها من الكانفاه وهو بقبعته الخوصية بحافات من الجلد . يتطاير فستانها الكلوش فيلامس قماشه الناعم من الحرير بنطلونه الخشن من الصوف الأنجليزى بينما احذيتهما السوداء اللامعة تخطو متمهلة وحزينة على حصى الطريق .

ـ يوسف هل تحب مصر ؟

ـ وهل هذا سؤال ؟

ـ ولكن أنت تساعد الحلفاء ضد المانيا والمصريون يعقدون أملهم على هتلر وروميل، حتى يخلصهم من الأحتلال البريطاني ويكسر شوكته ؟

ـ وهل تعتقدي بهزيمة بريطانيا على يد المانيا ستنال مصر استقلالها ؟هل ستدعها هكذا المانيا بمنتهى السهولة تفلت منها ، بل ستحكم قبضتها عليها . و وقتها سيشعرون بالندم وسيعلمون أن الأنجليز على قباحتهم ألا أنهم أفضل منهم بكثير ، فى كل الأحوال أنا أساعد العالم كله للتخلص من هذا الطاغية الذى إذا أحكم قبضته على العالم بفوزه فى الحرب وإقامة الإمبراطورية الألمانية التى يطمح إليها، وحده يعلم الله ما مصائر الشعوب وقتها .

ثم نظر اليها طويلاً وسألها:

ـ وأنتِ ؟

_ أنا ماذا ؟

_ ماذا عنك هل تحبينها ؟

بعد نفس عميق

_ لقد ولدت هنا وقضيت أسعد أيام عمري حتى بعد سفري لفرنسا كنت أشعر لحنين لهذا البلد، لأرضها ,لسمائها ونيلها وشمسها ، وبحرها .. حتى لرائحة خبزها ولكن كان هناك دوماً إحساس بالغربة يعتريني سواء وأنا هُنا أو هُناك ،أحساس بأني لا أنتمي الى أرض .نعم أملك هوية فرنسية ولكني أشعر بأنى لا أمت لذلك الوطن بصلة ، أشعر أنى غريبة هُنا وأشعر أنى غريبة هُناك أنه ذات الأحساس الذي تملك أبى وذهب لفرنسا معتقداً أنه بحصوله على الهوية الفرنسية سيشعر بأنه فرنسي وبانتمائه أخيراً لوطن سيكتب امام خانة الجنسية فى بطاقة تحقيق الشخصية أنه منتمي له . ولكن على العكس استوحش بداخله الأحساس بالغربة وأحذ يكبر يوماً بعد أخر وأخذ يحن لمصر للشوارع والبيوت والمقاهى وأصبح مشتت ما بين بلد لفظه يحن اليه وأخر أحتضنه ويشعر فى الغربة فيه . ربما كنت مثل أبي أشعر بالخذلان من وطن ولدت على أرضه ورفض أن يمنحنى الهوية وأنا كل شيء يصرخ بأني مصرية ، كنت على عكس أمي وديدمونة وأنت والكثير ممن لا يعيرون قضية الهوية أى أهتمام فهم مصريون من أباء وأمهات ولدوا وتربوا على أرض تلك البلاد وهذا وحده كافٍ .

_ ليس عليك أن تشعري بالخذلان اليهود فى مصر قوة لا يستهان بها أنهم المسيطرون على اقتصاد البلاد لو كنا قلة أو منبوذين كما تقولين لم نكن استطعنا أن نثبت وجودنا ونتحكم فى اقتصاد بلد كبير مثل مصر . مصر ليست مساحة على الأرض أنها تخطت ذلك المعني بكثير إنها حضارة ورمز ليست حكراً على أحد أو ملكاً لأحد .

_ قولك هذا يفكرني بقول الأديب الفرنسي نرفال عند زيارته للشرق هو وغوتيه وقد أعتراه الذهول والدهشة من عادات وتقاليد وحميمة أهالي البلاد لذلك كتب أنه يشعر أنه شرقي ، فأنتمائك للوطن لا يتوقف فقط على أنك ولدت فيه .

_ ما المشكلة إذاً ؟

_ المشكلة أنى أريد أن أعلن عن ديانتي أمام أى جمع دون أن تتسع الأعين دهشة أو تدور أحاديث وتعليقات جانبية . أن نختلط ونلتحم وسط الجميع دون خوف أو خجل أو أحساس بعدم الترحيب بنا .

_ لا تلق اللوم على أحد، ولا تنس أن اليهود عامة لا يحبون الاختلاط وإقامة العلاقات إلا مع اليهود والأغرب من ذلك أن كل طائفة من القرائين والربانين والسفارديم والاشكناز تعيش في عزلة عن الاخرى ويضعون حدود بينهم وبين بعضهم !

وهو ينفث فى عود ثقاب كان قد أشعل به تبغه :

_ سوف نمر على مكان اريدكِ أن تريه قبل ذهابنا للاجتماع .

لم تحاول ان تسأله عن هذا المكان طيلة الطريق الذى كانا يختصرانه من الطرق والحوارى المتشعبة التى قادتهما فى النهاية لحي الموسكي وتحديداً لمكان علقت على أحد جدرانه المتهالكة يافطة باهتة بحروف شبه ممحية " حارة اليهود" و منذ أن دخلا للحارة كانت تضج بصخب المارة وروائح الطعام المختلطة مع انفاس البشر .

كانا سوف يصطدما بسيدة مسنة بدينة تجلس امام بيتها القديم مع جارتها الشبه عمياء بملابس سوداء بالية تماماً كانت احدهما تسأل الأخرى :

ـ يا راشيل متي سوف تتوقف همومنا وامراضنا ؟

لتجيب الاخرى بصوت مائل للخنافة

ـ فى الأخرة .

بينما تجلس امراة ترتدى الحبرة وهو الزي الخاص بهن لعقود طويلة من الزمان ، كانت تلك السيدة تجلس امام اناء كبير به زيت مغلى تقلي كرات الزلابية ثم تقوم بأنتشالها من الزيت وتغمسها فى الشربات او السكر وتضعها بعض ذلك فى قراطيس ورقيه وتبيعها للزبائن الذين أحتشدوا حولها . وقف يوسف امام السيدة وطلب منها قرطاس بقرشين من الزلابية المرشوشة بالسكر، بينما إيفا أخذت تدير رأسها تنظر لذلك المجتمع اليهودى الفقير الذى لا يزال يقطن هنا ويمارس كل طقوسه وعقائده منذ الزمن . تركها يوسف تنبهر مما تراه فى هذا العالم الذى هبطت عليه فجاءة . فى أحد الزوايا كان مطعم شعبي يرص مقاعده الخرازنية امام طاولاته وكتب يافطة كبيرة مطعم "كل واشكر " الوجبة مقابل اربعة قروش اختار أى كمية من الأرز والخضار . على مقربة منه مقهى " جداليا " وهو مشهور عنه أنه يحوى النسبة الأكبر من العاطلين فى الحارة يأتى أثرياء اليهود طلباً فى مساعدتهم فى نقل أمتعتهم من مسكن لأخر ، او ليقوموا بتنظيفه لقاء مبلغ مالي ومن هذا المقهى تنتقل الإشاعات فمن ذهب يوماً ليعمل فى أحد بيوت الأثرياء يرجع فى النهاية ويقص واقع حياة لم يتعود عليها يوماً او يراها سوى عند هؤلاء اليهود من الأثرياء وتظل هوية واسعة بينها وبين هؤلاء الذين يقطنون فى تلك الحارة من فقراء اليهود ينتظرون تلك الإعانات والصدقات التى يعلن عنها الأغنياء منهم أو من المؤسسات الخيرية الخاصة بهم ، بأنها ستوزع فى اليوم الفلاني .

أستوقفت ايفا سيدة عجوز تحمل صاجًا فوق رأسها وهى تنادى " بوريك ، بوريك " وأعطت لها صدقة ما أن اخذتها السيدة حتى صاحت بالدعاء لها . أشار يوسف على شابة جميلة تدعى " ماريا المجنونة " تقدم رقصتها الخاصة فى ارجاء الحارة ويعتبرها أهل الحارة أنها جالبة للحظ السعيد، بينما كان يمر بجانبها "جالورس" العربجي العملاق الذى تخصص فى حمل الأوزان الثقيلة ومنها الخزانات الحديدية؟، ومن شباك مفتوح فى أحد الأدوار السفلية كان يجلس رجل يدندن على أوتار عوده أشار لها يوسف قائلًا :

ـ أنه زكى مراد والد الفنانة ليلى مراد .

الكل يتجه بسرعة نحو مصير ما دون الألتفات لأخر ، موظفو الطائفة , إخصائيات اجتماعيات ، يذهبن لأعمالهن فى المراكز الطبية والأجتماعية ، والمتسولون , والعاطلون , والحريصون على زيارة المعابد اليهودية الموجودة بكثرة فى حارة اليهود على أختلاف طوائفهم .

كانا قد وصلا أمام إحدى البنايات الضخمة بشارع جانبي تحفه الأشجار ويؤدي لنهر النيل مباشرة ، أنتظرا المصعد ضغط على الزر الخامس ثم ادار نفسه ليصبح فى مواجهتها تماماً اخترق نظره عينيها مباشرة وأبتسم قائلاً :

ـــ هل أدخرتى (الدوطة) لخطبتى لا تخشين لن أطلب الكثير من المال سأرفا بحالك ؟

أبتسمت دون أن تجاوب.

وبأناملة كان يداعب بشرتها وتنزلق لرقبتها ثم توقف المصعد فتوقف هو ، عند الزر الأول من فستانها الذى تبرز منه مقدمة نهديها . و مذهولة من نفسها كانت تتساءل لماذا فعل ذلك ؟ ومن الأجدر بها أن تسأل لماذا تركته يفعل هذا ؟

أمام باب خشبي كبير بشراعات زجاجية توقفا وضغط الجرس بعد رنة واحدة فتح الباب الخادم النوبي . قاد خطاهما لغرفة كبيرة تفتح بباب كبير جرار فتحه لهما ليدلفا منه للداخل ثم قام بغلقه مرة أخرى . كانت غرفة مكتب بها طاولة كبيرة فى المنتصف جلس عليها خمس من الرجال وفتاة تجلس على مكتب فى إحدى الزوايا أمام ألة النسخ منهمكة في عمل ما . بينما رئيس الجماعة محاط بعدد من الرجال وجوههم مألوفة لها فقط ألتقت بهم مسبقاً في الاجتماعات رحبوا بهما ودعوهما للجلوس .

تحدث الرئيس بعدما أحكم وضع النظارات على عينيه قائلاً :

ـــيوماً بعد أخر يتقدم روميل إلى مصر أنه الأن بمرسى مطروح وأمامه عدة كيلومترات لا تتعدي المائة والخمسين حتي يدخل مدينة الإسكندرية ومنها للقاهرة .

رد أحدهم :

ـــ هذا الرجل داهية لقد رأى هتلر فيه القائد المناسب من بين رجاله ليرسله لشمال افريقيا لمساعدة حلفائه الأيطاليين ، أنتقل روميل من فرنسا ليبدأ مهمته الجديدة بعدما عين القائد الأعلى للقوات الألمانية وبعد عدة معارك استطاع أن يستعيد ليبيا من البريطانيين بعدما استسلمت له القوات البريطانية بطبرق ووقع فى الأسر أكثر من ثلاثين ألف جندى بريطاني. أنها كانت بمثابة ضربة قوية لمونتجمرى القائد البريطانى لقوات التخالف ورقى روميل بسبب تلك المعركة لرتبة مارشال .

أضاف الرئيس : وليس هناك من قوة في إمكانها أن توقف هذا الرجل . هناك معركة مهمة ستجري قريباً وعلى ضوء نتائجها سيتحدد من الذى أنتصر فى الحرب .تعد المانيا لهذه المعركة خطة رهيبة و بمساعدة بعض رجالنا المندسين داخل القوات الألمانية أستطعنا أن نعلم أنهم يصنعون شيئاً يسمي" حدائق الشيطان " وهو زرع ألغام بمنطقة العلمين بالسواحل الشمالية، لاستخدامها كخط للدفاع وللمواجهة ضد القوات البريطانية . هذا بالإضافة للألغام التى تقوم القوات البريطانية بزرعها أيضاً . ولكن الألغام يزرعها الجانب الألماني أشد خطورة فقد زرعت فى باطن الأرض رأسًياعلى أمتداد ثلاث طبقات بحيث إذا تم أزالة اللغم الأول ينفجر الثانى ، وبأزالة الثانى ينفجر الثالث ، وتعتبر مثل تلك الحقول كمصائد لكل من يقترب منها من جنود او دبابات . الأهم من كل ذلك أن هناك شفرة خاصة لتفجير تلك الألغام ، إذا أستطعنا أن نصل إليها ، نضمن هزيمة فيلق الصحراء الألمانى بقيادة ثعلب الصحراء روميل .

جاء صوت ذكورى حاد على الأغلب أنه المانيًا ينطق الانجليزية بصعوبة بالغة :

ـــعلى الرغم من انتصارات الفيلق الألماني ألا أنه يعاني معاناة كبيرة الأن . أنا كنت بينهم وأعلم ذلك تماماً ليس هناك من صحة بما صورته وسائل الأعلام بأننا نسبح فى مياه الواحات ونقوم بقلي البيض على اسطح الدبابات و ترقص على غناء " لولين مارلين" التي أشيع أنه أستمع إلى أغنياتها كل الجنود حتى هؤلاء الذين على الجهة الأخرى من الجبهة . هناك عدو أكبر من قوات التحالف أنها الصحراء والحشرات والشمس الحارقة وقلة المياه، بل وندرتها . أعتقد أن الطبيعة هى التى تواجه هتلر بعدما يأس البشر على مواجهته ، كما هزمته ثلوج موسكو ستهزمه شمس الصحراء الإفريقية .

رد أحد الاعضاء قائلاً :

ـــ ولكن أن يعلن روميل بأن أمامه اقل من مائة وخمسين كيلو متراً على الأسكندرية فهذا خطر كبير وثقة ايضاً .

رد الرئيس :

ـــ هذا الرجل صنع منه المصريون شخصية أسطورية وهو يعلم تماماً أنه ينتظرونه، ليخوض الحرب ضد البريطانين فى القاهرة ويلحق بهم هزيمة ثقيلة.

رد الجندي الألماني :

ـــ هناك فريق من رجال المقاومة منضم للقوات الألمانية يسمى " بالظباط الاحرار" وهم من المصريين .

همهمات واصوات عالية على أثرها قام الرئيس بالتصفيق بيديه قائلا :

ـــ هدوءءءءء

ثم أستكمل حديثه بنبرة أكثر هدوء وثقة :

ـــ هناك زيارة مهمة للكونت (فون ستافنبرج) للقاء روميل فى أحد الفنادق بمدينة الأسكندرية وهو ساعد الجنرال (اولبرخيت) الأول و يحارب فى تونس وهناك أخبار مهمة تخص معركة الفيلق الألماني بالصحراء وصلت له من "عرين الذئب" مقر أختباء هتلر وعليه بإيصال تلك المعلومات لروميل والتشاور فيما بينهما . سيحضر فون ستافنبرج بعد يومين فى زيارة غاية فى السرية وسيقيم بفندق البوريفاج بالاسكندرية. هذا الرجل لا يقل خطورة عن روميل وليس بأقل ذكاء ، و معروف عنه أنه يتمتع برحمة يفتقدها روميل فى التعامل مع جنوده.

ثم وجهه نظره مباشرة لإيفا قائلا :

ـــ إيفلين .. ستذهبين للأسكندرية وهناك ستقومين بمحاولة لقاء هذا الرجل والحصول منه على معلومات .

هول المفاجأة أربكها ولجم لسانها ، وأتسعت عيناها دهشة وأخذت تردد فى ذهول :

_ أنا !!!

بالنبرة نفسها من الهدوء أجابها :

_ نعم أنتِ .. لا يوجد أنسب منك لقضاء مثل هذه المهمة . سواء فى المظهر المحافظ أو جمالك الجذاب والأهم من ذلك كله هو أنك تعرفين كيف هم هؤلاء الناس وكيف يفكرون أليس صحيحاً !!؟

_أى معلومات؟ وأى رجل هذا الذى بإمكاني هكذا ببساطة الحصول منه على معلومات ؟ أنت تتحدث عن روميل ثعلب الصحراء وكولونيل فون ستافنبرج !؟

بهدوء اجابها

_ لقد أخترتك لهذه المهمة لأنك تعرضت لأهوال كبيرة على يد النظام النازي ، وقد أكسبك هذا بالإضافة لكراهيتك لهم الكثير من القوة والشجاعة . كما أنك كنتِ قريبة منهم وبمعاشرتك لهم تستطيعين التعامل معهم .

_ تقصد بالتعامل مع من ؟ روميل وفون ستافنبرج بكل ما يملؤهما من ذكاء ولؤم وبكل هؤلاء من رجال التجسس والمخابرات المحيطين بهما !؟

أجابها دون أن يتخلى عند هدوءه :

_ وأنا لم أطلب منكِ أن تتقدمين اليهما و تقومين بتعريف نفسك لهما وتطلبي منهما أن يمداك بالمعلومات ،الأمر أسهل من ذلك بكثير كل ما هنالك أنك ستنزلين بالفندق نفسه قبلها بليلتين أنت والسيدة التى تقيمين معها التى ستذهب معك ، ثم تقومين بالمرور أمامهما فى الردهة أو صالة الطعام ، و وقتها ستقومين بالنظر بعمق فى عين أيٍّ منهما , تلك النظرة التى فيها دعوة لشيئاً ما تتبعها أبتسامة خفيفة ، أو تقومين بأى من تلك المحاولات التى تقوم بها الأنثي لتلفت نظر الرجل إليها كأن مثلا تلقين شيئاً معك على الأرض كأنه سقط سهواَ منك وهكذا ... وعليك بأنتظار ما سيكون . أذا حالفك الحظ فأنت الفتاة المسيحية المتدينة " ماديلين حنا جرجس " التى تعمل كممرضة بالمشفي الأيطالي بالقاهرة وعمتك "كرستين جرجس " ,كلامك سيكون بحدود وستحاولين الحصول على معلومات بدون أن توجهى ايًّا من الأسئلة :

بعد نفس عميق :

_ستلقين حجراً صغيرًا فى المياه الراكدة وتنتظري إذا حالفك الحظ فرصة جيدة وإذا لم يحالفك فيكفيكِ شرف المحاولة . الأن ستدخلين للغرفة الأخرى لقياس الملابس لمهمتك الجديدة , ملابس تناسب فتاة قبطية متدينة من أسرة محافظة .

دون أن تتفوه ذهبت مع سيدة فى منتصف العمر قادتها لغرفة مجاورة . كانت تخلع هذا وترتدى ذلك وهى تفكر كيف بإمكانها أن تفعل ذلك وهى التى نجت بأعجوبة من موت محقق فى أحد معسكرات النازية، هل جنت مثلاً لتذهب اليهم مرة أخرى بقدميها ؟ ماذا لو كشفت ؟ وأى مصير سيكون لها ؟ مؤكد أنهم سوف يبحثون عن هويتها الحقيقة وسيعلمون أنها إحدى الفارات من معسكر نازي وذلك سيضاعف الجرم . ثم أنها إذا رفضت فى الأشتراك فى هذه المهمة هل سيقبل الرئيس لتستمر معهم فى هذا العمل وأى نظرة محتقرة وقتها

سينظر لها ؟ فهى التى تنادي وتندد بالارتكابات النازية فى حق اليهود والبشرية كلها، الأن وقد حانت فرصتها لتنقذ العالم فبأى وصمة عار ستُوصم إن هى ترددت ؟

أخيرًا كانت تنظر فى المراة لترى أن الملابس التى صممت لفتاة متدينة كانت تكشف عن ذراعيها وتبرز نهديها ، لم تهتم بأمر نهديها ولكن أن تكشف ذرعها ويظهر الوشم فهذا معناه أنها ستقاد للأعدام رأساً . أنتظرت حتى أنتهت من قياس الملابس وخرجت للغرفة التى يدار فيها الأجتماع وأبلغت الرئيس بأمر الوشم .

أبتسم فى هدوء قائلاً:

ـ وهل تعتقدين أن أمرًا كهذا سيغيب عنا ؟ ستذهبين لذلك العنوان لإزالة الوشم بأحدث الطرق ولن يصبح له أى أثر بعد ذلك .

فتح مظروف كبير وأخرج منه بطاقتين للهوية أعطاهما لها قائلاً

ـ عليك أستخدامهما فى تلك المهمة فقط ، وإذا شرحت للسيدة التى تقمين معها والتي سترافقك فى الرحلة، أرجو أن تكتفي بأقل التفاصيل، مثلاً اخبريها أنك ستذهبين لقضاء فسحة من الوقت .

تذكرت أن ديدو لا ترتضي أبداً بأقل التفاصيل .

ـ أفضل الذهاب مفردي .

ـ إذا ذهبتِ بمفردك فسيكون مدعاة للشك والفضول أما إذا كنت فى التراس تتناولين طعام أفطارك بمصاحبة تلك السيدة فسيكون الأمر طبيعيًا، فتاة وعمتها فى رحلة للأستجمام بأحد الفنادق المطلة على البحر . ستستقلين قطارًا بعد غداً فى التاسعة صباحاً ومنه ستركبين تاكسي ليذهب بك لهذا العنوان وهناك ستبتسمين فى وجه عامل الاستقبال فى الفندق وأنت تسأليه عن الحجز باسم" مادلين حنا "ولا تنسي أن تجعلي الصليب يتدلي من عنقك . فى هذه الورقة جدول زمني دقيق يطلعك على ما ستفعلينه هناك، كل شيء بتوقيت دقيق ومحكم .

تناولت منه الورقة وتفحصتها سريعاً فى الساعة الثامنة كان عليها النزول من الغرفة لتناول طعام الإفطار و عند التاسعة تصعد مرة أخري والساعة كذا ... تنزل للتريض بالردهة الأمامية بالفندق لمدة عشر دقائق ...ثم تفعل كذا .. و.. و..

واخيراً مّد يده لها بزجاجة بها حبتان من الدواء واخبرها قائلاً :

ـ أنه عقار السنانيد القاتل ، فى حالة اذا كشفت وقبض عليك يمكنك تناول واحدة منه فهو سينقلك لعالم اكثر رحمة من عذابهم لك.

كانت ستعتذر ل عن أخذ الدواء ، ولكنها بدلت رأيها فماذا لو كشفت ، فهى مهمة خطيرة حقًا وأي خطأ بها سيقودها لحتفها حتماً .

وضعت الأوراق وعلبة الدواء فى حقيبة يدها وغادرت بعدما شد على يدها بقوة وهو يصافحها مودعًا :

ـ كوني على حذر .

وهى منذ متي لم تكن على حذر!! فمنذ وقوعها فى يد القتلة كان لابد لها أن تحتمي بحذرها وتوجسها، فيا للحياة عندما تبدأ فى تقليد الأدب ، فكل ما يحدث لها كأنه نص روائي ليست هى إلا بطلته .

فى الخارج كانت الأمطار تهطل بغزارة وكان الحصول على سيارة أجرة يعد معجزة، أحكمت لف الشال حول كتفها والأيشارب على رأسها بينما هو طوقها بذراعيه وقاد خطاها لشارع طويل سألته :

ـ أين نذهب ؟

ـ لمنزلي .

ـ حتى تستكمل ما قد توقفت عنده في المصعد؟!!

ـ هل أصبحت كل الأشياء فى حياتك مرفقة بأحساس من الشك والريبة ؟

ـ ربما !

ـ حسناً بإمكاني تركك هنا تتجمدين برداً فى أنتظار سيارة أجرة لن تأتي أبداً.

لم تتكلم سارت بمحاذاته حتي باب بناية ضخمة، تنفست الصعداء عند الدخول ،فاخيراً سيول الماء توقفت عن الهطول فوق رأسها ، أستدعى المصعد ودقائق كانت بداخل شقته .

فى شقة شبه مظلمة إلا من إضاءة خافتة على الضفة اليسرى من نهر النيل، وأمام نافذة زجاجية تطل عليه ، تمددت على شيزلونج مبطن بالقطيفة الحمراء . صنع لهما مشروبًا دافئًا وضعه أمامها و زود المدفاءة بمزيد من الحطب،وضع معطفها الصوفي امام المدفأة ليجف

وبصوت شبه ناعس قالت :

ـــ أشعر أنني داخل متاهة لا نهاية لها ، لا قوة لي على المُضي بين جنباتها . تصور نسيت أن أسير بأمان فى شارع ، أعتدت على نظرات فضولية ، شكّاكة ، نظرات عدائية ، واخرى متربصة ، تمنت لو توقعك فى قبضة الموت.

عدلت من جلستها و كأنها تفيق من حلم أو كابوس أمسكت بكوب الشاى الساخن وأخذت تجول بنظرها فى أرجاء المنزل .

ـــ بيتك أنيق .

ثم أمعنت النظر عند لوحة معلقة على الحائط لمركب توشك على الغرق وسط عاصفة بحرية حادة :

ـــ رامبرانت !

ـــ نعم أتعرفينه ؟!

ـــ ومن الذى لا يعرفه، كنت أقف أمام لوحاته كثيراً اثناء ارتيادي المتاحف الفنية لاتأملها ولكن لماذا تلك اللوحة ؟ أنها حتى لا تناسب أن تعلق على جدار منزل، هنالك لوحات رسمت فقط لتعلق على جدار المتاحف الكبرى التى يرتادها الناس لقد صنعها صاحبها ليشاهدها الجميع .

أمعن النظر للوحة وكأنه يشاهدها للمرة الأولى

ـــ كلما نظرت فى تلك اللوحة أشعر أنني أحد أفراد هذا المركب المتأرجح وسط الأمطار الجامحة والأمواج الهائجة . يصارع الموت الذى يظل متربص به حتى ينال منه .

ـــ أتعلم فى الكثير من الأحيان لا أشعر أنك يهودى . فأنت لا تؤمن بتلك المعتقدات الخاصة التى تدور حياتهم فى فلكها الخاص . أنظر حتى أنك لا تعلق نجمة دواد على اى من جدران المنزل كعادة أي يهودي !

ـــ ومن قال أني يهودي ! ؟

ـــ كيف ؟

ـ أنا أؤمن بوجود الله الواحد وأكتشفت أن جميع الكتب السماوية تنادى بقيم ومباديء واحدة المحرمات واضحة وثابتة، وكذلك الحلال

جميع الكتب السماوية ترفض الكذب، القتل ، الزنا ،الخمر ، و طرق الصلاة على إختلافها إلا أنها تحمد الله وتشكره ، لذلك دوماً كنت مع اصدقائي من المسلمين مسلمًا و وسط الأقباط فأنا قبطي، ومن لا يعرف ديانتي لا يستطيع أن يعتقد عكس ذلك .

ـ وإن كان ما تؤمن به على حق، فلماذا يقاد اليهود لغرف الغاز والمحارق فقط لأنهم يهود .

ـ المشكلة الاساسية هي تنامى قوة اليهود فى الغرب وخاصة بالمانيا وذعر هتلر منها

ـ المشكلة ليست فى عرق أو دين او قوة المشكلة فى قائد مختلاً عقليًا صدقه الكثيرون وتبعه الكثيرون وقاد العالم الأن لمعارك كبيرة توشك أن تقضى بهلاكه .

ـ والأن دعينا من هذا الكلام , أنصتي.

كان صوت حبات المطر تنقر على النافذة بنظام وهدوء كمعزوفة حزينة .

ـ من الواضح أنها لن تتوقف هذه الليلة .

ـ وستقضين ليلتك هُنا .

قالها وهو يقترب منها ، يجلس أرضاً تحت قدميها المسنودة على حافة الشيزلونج ، يخلع لها حذائها وبطرف أنامله يداعب اصابع قدميها من فوق جوربها الحريري .كان يداعبها ببطء مما جعلها تتثاءب وتشعر بالنعاس ، ثم قامت مسرعة عندما تذكرت أن ديدو مؤكد قلقة عليها . أدارت قرص جهاز التيلفون الأسود الذى وضع على منضدة حُشرت بين مقعدين ليأتى صوت ديدو بعد رنين طويل للهاتف.

ـ خالة ديدو.. سأقضى ليلتي عند صديقتي إيمان الأمطار غزيرة بالخارج ومن الصعب العثور على سيارة أجرة.

ـ حسناً، ليلة سعيدة .

قالتها ديدو بصوت ناعس ،فمؤكد أنها كانت لا تزال تجلس على مقعدها فى الصالة تنتظر قدوم أيفا لتتأكد من غلق الباب بالمتراس ثم تذهب للنوم وهى تشعر بالأمان . مسكينة ديدو، لو كانت قد قيدت للمعكسر النازي ربما كانت قد لفظت أنفاسها قبل حتي أن توضع فى الشاحنة

ـ لماذا كذبتِ عليها ؟

ـ وهل كنت تريد مني أخبارها أنى أبيت ليلتي فى بيتك ؟

ـ وما فى ذلك ؟

ـ تعتقد الخالة ديدو المتزمتة ستتقبل ذلك !!

ـ أني أتضور جوعاً سأذهب لأعد لنا طعام العشاء .

ـ أفضل أن أنام بدون عشاء .

أجاب بسخرية

ـ وهل تعتقدين أن مأدبة كبيرة وفخمة بأنتظاركِ أنه مجرد طبق من البيض و بعض من الجبن و الزيتون

ـ أمممم إذن فلا بأس .

كانت تتجول بأنحاء المنزل تتأمله توقفت امام مجموعة من الصور الفوتغرافية موضوعة على طاولة ، كان بين مجموعة أصدقائه كعادته ليس هو الأوسم ولكنه بأبتسامته وجاذبيته كان هو الأروع . أنتبهت على رائحة جميلة تأتي من المطبخ لتفوح فى أنحاء البيت فركضت سريعاً لهناك ، أقتربت منه كان يقف امام الموقد مباشرة مشغول بما يعده .

ـ يا الله ما هذه الرائحة الشهية !

ثم نظرت للإناء الذي يقلي فيه البيض بعدما وضعه على قطعة من خبز التوست أستقرت البيضة كما هى تماماً فى منتصف الخبز بينما أخذ يقوم بقليها معاً بالزبدة .

ـ أنتظرى و ستتذوقين أشهي بيض مقلي بالخبز المحمص هذا الطبق يسمي سلة البيض .

على مائدة خشبية مستديرة بمنتصف المطبخ ،كانا يجلسان أحدهما فى مواجهة الأخر فى مواجهة بعضها للاخر يقضمان لقيماتهما .

تحدثت بنبرة اخفت عن المعتاد

ـ ما أمر ذلك الرجل الذى يقولها وبمنتهى الثقة " تعمقي بالنظر فى عينيه" ألهذه الدرجة أملك عيون ساحرة !؟

وهو مشغول بزيتونته دون النظر إليها :

ـ نعم تمتلكين .. ليس فقط عيونك هي الساحرة و لكن كل شيئاً بكِ ساحراً .

أبتسمت بغنج قائلة :

ـ ألهذا السبب وقعت بغرامي ؟

نظر فى عيناها مباشرة .

ـ نعم ومنذ النظرة الأولى .

لا تعرف إن كان صادقاً بالفعل أم لا ، وعلى كل حال لم تحاول أن تشغل نفسها بالتفكير ، لقد قررت مسبقاً ألا تشغل نفسها إلا بقضية واحدة هي التي لا وطن لها ولا أهل وتعرضت لأشد انواع العذاب ، فأى ترف هذا أن تحب أو حتي تكره !

خلعت الشعر المستعار وكان فى نظرتها شيئاً من التحدي وهي تسأله :

ـ والأن هل مازلُت ساحرة ؟

فى غرفة الجلوس جلسا بمحاذاة بعضهما الأخر على كنبة جلدية تنكمش على نفسها داخل صدره ، بينما فرد أحد ذراعيه على ظهر الكنبة والأخرى طوقها بها . فى جلستهما تلك كان يلزمهما أن ينزعا فتيل الذكريات، ولكن الذاكرة كانت أدهى منهما عندما نصبت لهما كمينها . اخذ كلاً منهما يحكي للأخر عن طفولته وحياته ، عن ما يحبه وما يكرهه وعن ما صنع يوماً ابتسامة او جعل الدمع ينساب .

منذ متي لم تشعر بالأمان والدفء هكذا؟ غلبها النعاس على صوت تنفسه الهاديء . واستيقظت لتجد نفسها على ذلك الوضع ، تململت داخل حضنه تريد أن تفرد ذراعيها لتتثاءب. و بعين نصف ناعسة :

ـ لا أصدق هذا هل قضينا ليلتنا هكذا ؟

ـ نعم ،تصور !

نظر فى ساعته كانت عقاربها تشير للسابعة صباحاً:

ـ صباح الجمال إذاً ..

وقبل أن ترد عليه كان قد أطبق على شفتيها فى قبلة طويلة ، تخلت فيها عن برودها وبادلته اياها . هي التى عاشت فى فرنسا وسمعت الكثير عن سحر القبلة الفرنسية تلك التى يتبادلها العشاق فى الشوارع والمقاهي ومحطات المترو وعند زواية الطريق ، ولكنها لم تجربها يوماً . للمرة الأولي تخلع فيها شفتاها حياءهما وتلثم شفاه رجل . اخيراً تراجعت بخجل أنثوي وتوقفت . ترى هل كانت تعي وقع قبلتها عليه ؟

ـ يجب أن أذهب الأن فموعدي مع الرجل الذى سيقوم بمحو الوشم فى الثامنة .

لم ينطق وقتها، ولكنه تأكد أنه سيظل يتوسد خسارات عمره عند تلك اللحظة .كانت أشهي وهى تهبط الدرج أمامه مولية له ظهرها ، يتأمل منحنيات جسدها ورشاقة قوامها ، وكأنها تخبره أنها لن تمنحه سوي العيش على قيد تصورها ودوماً سيحيا متقدًا بتخيلها .

أنهت سريعاً مهمة محو الوشم بتلك المادة الجديدة التى يمتلكها طبيب انجليزي يقطن فى أحد شقق وسط البلد ، أستقبلها الرجل دون أن ينطق بكلمة ، وبعدما حدد موضع الوشم سكب بعد نقاط من مادة ما، وتركها على ذراعها لمدة عشرة دقائق ، ثم ويالللعجب كأن الوشم لم يوضع يوماً . اخيراً كانت قد تخلصت من حمل ثقيل كان يجسم على أنفاسها ، كلما وقعت عيناها عليه كان يحرض عليها الحزن والكأبة، ويرجع بها لهناك عند عتبات المعكسر عندما توقفت يوماً فى طابور طويل حتى يتم وشمها هي والكثيرات بشعار نجمة دواد التى تصنفهم على أنهم يهود ، ليلاقون العقاب الأكبر فى هذا المعكسر، لذلك أبتسمت وهى تنظر لذراعها وقد اصبح نظيفاً .وهما فى طريقهما بعد ذلك للبنك سألته

ـ كيف على أن أخبر ديدو بأمر تلك الزيارة للأسكندرية وبتفاصيل أقل كما طلب مني الرجل وهى كما تعلم فضولية الاسئلة ؟

ـأخبريها أن هذا العمل مهم لمصر حتي لا يستطيع الألمان دخولها وهى ستكف عن الأسئلة وقتها .

ـ لماذا ؟

ـ لأنها تعشق مصر .

وفى ذلك اليوم فى البنك كانت تجلس تفكر فى تلك المهمة الموكلة لها ويظهر عليها ملامح الخوف والحيرة .

سألتها ايمان مندهشة :

ـ هل هناك شيئاً ما أراك مشغولة البال كثيراً ؟

ـ ابداً أشعر ببعض الأرهاق.

على مائدة الغذاء حكت لديدو بعضًا من تفاصيل رحلتها للإسكندرية وهويتها المزيفة، وعملت بنصيحة يوسف عندما أخذت تلاحقها بالاسئلة، أكدت لها أن هذا العمل لصالح مصر اولاً واليهود والعالم اجمعه واكثر اماناً أن لا يعلنوا عن شخصيتها الحقيقة فهما فى مهمة عمل قد أوكلت اليها . سألتها ديدو أى عمل وأي جهة التي أوكلت إليها المهمة فأخبرتها أنها ستحكي لها كل شيء في الوقت المناسب ، و وقتها توقفت ديدو عن طرح الأسئلة ولكنها كان يبدو عليها القلق .

وفى صباح كانت شمس الشتاء تحاول فيه أن تنفذ من بين الغيوم الكثيفة ، فيصل منها شعاع خفيف، ولكن على ضعفه ألا أنه كان ينشر الدفء فى أرجاء المكان . وقفتا على رصيف المحطة بحقيبة سوداء بها القليل من الملابس . ديدو كان ظهرها أكثر أنحناءً ترتدي فستان من القطيفة السوداء و لفت حول كتفيها شال من الكورشيه كانت قد عقدت خيوطه ذات زمن، بينما كان إيفا متأنقة فى احتشام فى فستان رمادي من صوف الجيرسيه، تتوارى من قلقها خلف نظارات شمسية كبيرة .

كان من الواضح أن هناك رجلاً ما بعثه الرئيس لمراقبتها أو لمساعدتها إذا حدث مكروه فكان يتبعهما إينما ذهبتا وهو على مسافة معينة منهما لا يقطعها اقترابًا او ابتعادًا وعلى أي حال تجهالته تمامًا و لم تشغل نفسها به . خلال رحلة القطار كانت إيفا كثيرة القلق والتوتر حاولت أن تنشغل بقراءة كتاب ما ولكن كان فكرها مشغول بما هي مقدمة عليه ، على عكسها كانت ديدو التي جلست فى المقعد المواجه لها وطيلة الطريق كانت تنظر من نافذة القطار على المروج الخضراء بدون أن تنبس ببنت شفة . بعد ركوبهما السيارة الأجرة رددت إيفا على مسامع السائق :

_ فندق البوريفاج .

كان الجو بالإسكندرية على غير المتوقع أكثر دفئًا منه فى القاهرة ، الشمس ساطعة وبعضُ من نسمات الهواء الباردة ، وبالرغم من ذلك كان يخيم على المدينة الحزن والخوف بعد تعرضها لأكثر من غارة قاتلة حصدت الكثير من ارواح المدنيين . و كعادة فنادق الإسكندرية فى هذا الوقت من السنة كان الفندق يكاد أن يكون خاليًا بسبب الطقس البارد ، بالإضافة طبعا لأمر الحرب فلم يكن فى ردهة الأستقبال سوى رجل فى منتصف العمر تقريبًا وتعتمر رأسه قبعة . يدخن غليونه ويحتسي القهوة وهو يطالع إحدى الصحف . نظرت حولها فلم تجد أى ترتيبات أمنية أو دليل على أن هناك زيارة على قدر كبير من الأهمية لثعلب الصحراء فى هذا الفندق ، فكل شيء هادئ ، حتي تلك الموسيقى التى تبث فى أرجاء الفندق من جهاز جرامفون قديم تبعث على المزيد من الهدوء، حمل العامل النوبي الذى استقبلها عند مدخل الفندق الحقيبة السوداء، وقاد خطاهما لمكتب الأستقبال، تذكرت إيفا نصيحة الرئيس بأن تضع ابتسامة على وجهها وهي تسأل موظف الأستقبال عن غرفة قد حجزت باسم :

_ مدموزايل مادلين حنا .

أخرجت ديدو الصليب الذى كان تعلقه فى رقبتها و كان قد أختبأ داخل ياقة فستانها لتشهره فى وجه الموظف تأكيدًا على أنها قبطية متدينة ترتدى صليبها .

سلمها موظف الاستقبال دلّاية نحاسية نقش عليها رقم الغرفة مؤكداً :

ـ أنها تطل على البحر مباشرة كما طلبتِ .

حصل العامل النوبي على الكثير من البقشيش بعدما وضع الحقيبة فى منتصف الغرفة وقام بفتح الشرفة المطلة على بحر هائج الامواج ولمعت أسنانه البيضاء وهو يغادر.

ألقت إيفا بجسدها المنهك على السرير الوثير التى تنبعث من أغطيته رائحة النظافة بينما جلست ديدو على أحد المقاعد الخوصية فى مواجهة البحر تتطلع إليه . بعد فترة استيقظت إيفا بعد حصولها على غفوة سريعة أستعادت معها نشاطها ، ثم لاحظت أن ديدو لازالت تجلس على مقعدها تراقب البحر وهى فى عالم اخر .

ـ أتحبينه ؟

ـ نعم ،جدًا , منذ الزمن لم أتِ لهنا بعدما كانت تلك المدينة هى عشقي ، ولم أكن أنوي المجيء إلى هُنا مرة أخرى لولا تلك المهمة الخاصة الموكلة إلينا .

ثم وقبل أن تسألها إيفا "لماذا " ؟ أخذت تُدندن أغنية باللغة الإيطالية على قدر كبير من الحزن جعلت إيفا التى لم تفهم من معناها شيًا تشعر بالحزن ، بعدما أنتهت طلبت منها إيفا ترجمة الكلمات ، ولكنها أكتفت بأن أجابتها قائلة:

ـ أنها عن رجل ذهب بعيداً وحبيبته تلقى عليه باللوم والعتاب.

ثم أخذت فى الدندنة مرة اخرى وبنبرة أكثر حزًنا وبعدما انتهت قالت :

ـ أنها أغنية أيطالية عن البحر وزهور البرتقال تسمى " ارجع الى سورنتو" حفظتها عن زوجى الذى أخذ يُغنيها يوماً بعد أخر حتى قام بالرجوع إلى هناك وكأنها لم تكن إلا نداء له من بعيد عبر البحر .كان مظهره وهو يغني متسمر النظرات إتجاه البحر وكأنه يعيد الكلمات مرة أخرى التي تـأتيه من بعيد عبر مذياع قديم من أحد المقاهي على شواطيء ايطاليا .

دون أن تسألها ايفا هل زوجك كان ايطاليًا ومتي وأين تعرفت عليه ؟ ولكأنما البحر فتح شهيتها على الحديث ونزع قفل الذكريات فأخذت تلوح بنظرها هناك للماضي البعيد وتحكي:

ـ كنت منذ الصغر مولعة دوماً بذلك الصندوق الأسود الذى يشغل ركنًا فى بيتنا ،وعند الضغط على أحد مفاتيحه يصدر رنينًا. أمى عازفة البيانو الماهرة كان من السهل عليها أن تنتبه لذلك وتأكدت من ميولى باتجاه الموسيقى والعزف على البيانو بالذات . فكنت دون اخواتي التي تستوقفني هذه الألة، وأنصت باهتمام لعزفها عليه ، علمتني أمي بعض المقطوعات الموسيقية البسيطة والسهلة ،ثم عندما وجدت أن موهبتي أكثر بكثير من مجرد وقت ضائع تشغله فتاة فى عزفها على البيانو، ألحقتني بمدرسة خاصة لتعلم الموسيقى ، ومنها التحقت بفرقة أوركسترا الأوبرا التى كانت تضم نخبة من أشهر عازفي االموسيقى فى العالم ، وقتها كنا نعزف مقطوعاتنا الموسيقية فى الحفلات التى تقيمها دار الأوبرا يوم الخميس من كل أسبوع، وايضًا كنا نعزف في الحفلات الملكية المقامة على مسرح الأوبرا وفى الكثير من الأحيان كنا نصاحب الفرق الأوربية التى تأتى لتقدم عروضها على المسرح .

كان فى حديثها هذا إجابة وافية عن التساؤل الذى طالما دار فى رأس إيفا عن تلك المقطوعات الموسيقية التى تقوم بعزفها بأنامل متدربة ومحترفة.

فى أحد الأيام أعلنت كلاً من الصحف والمجلات ودار الأوبرا عن قدوم عازف البيانو الأشهر فى ايطاليا والعالم " انطونيو جواندیلا" ليقدم عدة عروض على مسرح اوبرا القاهرة والإسكندرية . أتذكر جيداً تلك الجلبة التي أحدثها وجوده على مسرح الاوبرا الكل يهمس بأسمه, الكل فى انتظاره, التذاكر نفذت جميعها منذ اليوم الأول من طرحها فى الأسواق ، الكل جاء متدثراً برداء الأناقة، وفاحت منه العطور الباريسية وكانت الفصوص الماسية تضوى في أعناق النساء اللائي جئن يسبقهن أعجابهن بعازف بيانو يحمل الكثير من الوسامة الإيطالية ، بينما كنت أنا وافراد الأوركسترا نستمع إليه من بلكون مخصوص فى دار الأوبرا . لم أنبهر بأناقته ولم أنتبه لوسامته حتي لم تشغلني مقطوعاته الموسيقية التى أخذ فى عزفها الواحدة تلو الأخرى . أكثر من كل ذلك بهرتني أستقامة ظهره الذى كان يخلفه لنا وهو يجلس بشموخ على مقعده امام البيانو الأبنوسي ، يعزف بيد والأخرى يحركها مع نغمات البيانو في الألحان التى تستدعى العزف بيد واحدة و يعزف مقطوعة صامتة بيده الأخرى , وكأنه يخاصر الأنغام ويبادلها الرقص على عزفه . ولمدة الساعة وجدت نفسي تائهة مرتبكة ومذهولة من أمري ، حتي أن يدي ظلتا لليومين متورمتين من أثار التصفيق له بكل ما املكه من أعجاب .

كان موعد الشاي مع الجاتوه كما هو مدرج فى الجدول الذى تركه ذلك الرجل بيدها مصرًا على أتباع حذافيره ، نزلتا للتراس الأمامي للفندق المطل على الكورنيش .كان شعاع دافىء لشمس الظهيرة تصاحبه بعض النسمات الباردة من الهواء ، تعصف بصفحات الجريدة التى وضعها الجرسون النوبي على الطاولة لتطالعها. لم يكن يعلم أن فى أنتظارها أحداثًا على قدر كبير من الأهمية ستقوم ديدو بقصها عليها ومصّرة على حكيها وكأنها بذلك تستعيد إحياءها مرة أخرى بينما كانت هي على شوق لتسمع.

_عازف بيانو مشهور ، ايطالى ، وسيم فى منتصف العمر تقريباً , وفتاة يانعة ليست بجمال بنات بلده ولا تملك خبرة كافية بالحياة، ولكنهما كانا يشتركان معًا فى عشقها لنغمات البيانو . عرفَّه مدير الأوبرا بعازفي الأوركسترا لم تستوقفه يومها الأبتسامة الواسعة أو رعشة يدي أعجاباً به ولكن عند سماعه لعزفي أثناء بروفة إحد المقطوعات الموسيقية التي كنا سنشاركه العزف بها وقف خلفي تماماً مردداً بصوت مفعم بالهدوء:

_ جراتسيا ... جراتسيا ... جراتسيا

ومن يومها وتوطدت علاقتنا بشكل كبير بالرغم من أنه لم يكن يتحدث العربية وأنا ايضًا لم أكن اتقن من الإيطالية ألا كلمتين (جراتسيا وتشاو) حتى الفرنسية التى أتحدثها بطلاقة لم يكن يتحدث منها إلا بعض الكلمات الغير مرتبة ، كانت لغة مختلفة هي المشتركة بيننا ونجيد تحدثها لغة الالحان .

تنفست بعمق وأكملت:

_كانت للحفلات التي أقامها صدى طيب وواسع عند الجمهور وخاصة تلك الحفلات التى أقيمت فى دار الأوبرا بالأسكندرية حيث عدد الأجانب من متذوقي الموسيقى الكلاسيكية كبير , بالأضافة للجالية الايطالية التى كانت تذهب لحفلاته يومياً لتشجع ذلك القادم وبه شيئاً من روائح البلد .نظراً للنجاح المُدوي الذى حققه طلب منه مدير الأوبرا أن يتعاقد معه بعقد سنوى .كان عرض مغري بالنسبة له وخاصة لظروف الحرب العالمية الأولى التي كانت وقتها مشتعلة فى الدول الأوربية فتوقفت عن أقامة الحفلات ، فما الجدوى من سماع الموسيقى أذا كان دوي القنابل يعزف معزفته الخاصة . وقع على العقد وهو سعيد لأن أقامته ستكون بالإسكندرية حيث الجالية الإيطالية الكبيرة ، والمدينة التى تشبه مدينته كثيراً ، و فى أحد الأيام أستيقظت من النوم لأجد نفسي واقعة في حب هذا الرجل، مولعة بكل ما فيه ، بشرته البرونزية ، عيونه العسلية ، يداه وأنامله, نعم مولعة بكل شيئاً به بدءًا من رأسه حتى أخمص قدميه .

لمعت دمعة فى عينيها لم تسطع أن تقفها ففرت هاربة على وجنتيها دمعة بمذاق الذكرى المُر و توقفت بها عن الحديث .

نظرت أيفا فى الساعة كانت قد قاربت على الثانية والنصف وكان موعد الغذاء عند الثالثة فانتقلتا معًا لمطعم الفندق . وضع الجرسون أطباق الحساء واللحم و السلطة وتمنى لهما شهية مفتوحة ومضى . وتذكرت أيفا فى اللحظة الأخيرة أن تطلب من ديدو أقامة صلاة الشكر كقبطيتين , متدينتين . لن تنسيا أن تشكرا الرب على عطاياه.

_ أمين.

بتلك الكلمة ردت أيفا على صلاة ديدو ، التي نظرت حولها وهى ترشف من حساءها الساخن وتهمس قائلة:

_ ليس هنا من أحد سوانا وهذه الطاولة عند الزواية . لم أرى هؤلاء الرجال الذين نراهم فى الأفلام بمعاطفهم وقبعاتهم السوداء يطوفون انحاء المكان فى حذر.

- إنها زيارة هامة وسرية ، والألمان على قدر كبير من الذكاء ، ربما هذا الجرسون أو البواب النوبي أحد هؤلاء الذين تتحدثين عنهم.

أتسعت عيون ديدو دهشة قائلة:

_حقاً.

أنتهتا من الطعام , ورفضت ديدو حلوى الجيلي التي وضعها الجرسون للتحلية ، وطلبت بدلاً منها محلبية المستكة ،سألتها ديدو :

_ ها ... ماذا علينا أن نفعل الأن ، أتمنى ألّا يكون مدرج بالجدول أن نتناول شيئاً أخر ؟

_ لا.. أطمئني . ستذهبين أنت للغرفة لتقضين قيلولة ما بعد الظهر وأنا سأجلس في اللوبي، لأقرأ فى الرواية .

_ أه لو أعرف العقل المدبر الذى وضع هذا الجدول !!

_ إنه جدول منظم ومرتب بشكل لا يثير الشك فى نزلاء كل مبتغاهم الراحة والأستجمام .

غادرتا الطاولة وجاء الجرسون ليرفع الأطباق وهو يراقباهما حتى غابتا عن نظره، فترى هل كانت إيفا على حق!؟

جلست إيفا في احد زوايا بهو الفندق تقرأ فى روايتها، كانت تبدو للعيان أنها مشغولة بالقراءة فى حين لم يكن يشغلها سوى الباب الدوار للفندق . تراقب منه الداخل والخارج ، تحاول أن تكتشف من هو المخبر ؟ حتى وصل بها الحال أنها شكت أن الجميع مخبرون ليس إلا .كانت الساعة الخشبية الكبيرة فى بهو الفندق تشير عقاربها للخامسة فتذكرت على الفور أنه موعد شاي الخامسة .كانت تريد أن تضحك بصوت عالٍ عندما تخيلت رد فعل ديدو عندما تخبرها بأن عليها الأستعداد لتناول شاى الخامسة و هي التي ليس من عاداتها سوى أن تتناول طيلة يومها لقيمات بسيطة . قامت برشاقة يحتها عليها دورها الذى تؤديه وذهبت لمكتب الاستقبال أدرات رقم الغرفة . جاءها صوت ديدو ناعس :

_ إنها الخامسة عمتي .

لم تكن ديدو قد أعتادت تلك الكلمة بعد ، وكانت سوف تردد مستغربة " عمتي " لولا أنها تذكرت أن إيفا نبهت عليها أن تكون على حذر في كل ما تتفوه فيه فربما كان التيلفون مراقبًا.

_ الخامسة وماذا إذاً ؟

ـ هيا .. حتى لا تتأخري عن تناول شاى الخامسة .

قالتها أيفا وأغلقت السماعة على الفور .كان موظف الأستقبال مشغول بتدوين شيئاً ما فى دفتر كبير ، ولكنه تابعها بنظره وهى تغادر للشرفة لتحتسي الشاي وهي تراقب غروب الشمس .

بعصبية جلست ديدو على مقعدها :

ـ ما أمر هؤلاء الناس ما بين فنجان شاي وأخر هناك فنجان ؟!!

ـ هذا أخر فنجان اليوم، لا تقلقي .سنخرج نتريض على الكورنيش لمدة ساعة ثم سنعود لتناول عشائنا ونخلد للنوم .

ـ نتريض فى هذا الجو البارد !

لم تجيبها إيفا، فقد كانت تشعر بتأنيب الضمير لأنها قد أوقعت ديدو فى هذا العمل، ولكن ما ذنبها فهي أيضا قد أُمرت بذلك .كان الجو منعشًا به شيئًا من النسمات الباردة , أقترحت ديدو أن تستقلا الترام لمحطة الرمل فالجو هناك سيكون أقل برودة وبإمكانهم التسوق ولكن أيفا رفضت فكان عليها أن ينفذا الجدول بمنتهى الدقة .

تخلى الفندق عن هدوئه فى ذلك الصباح .كانت هناك حركة وربكة ما ، لاحظتها إيفا منذ بداية اليوم بالرغم من حرص الجميع على أن

يظهر كل شئياً طبيعيًا ، إذا كانت حقًا نزيلة عادية فى هذا الفندق جاءت للاستجمام هي وعمتها العجوز حق لم يكن ليلفت أنتباههما ابداً أن هناك زيارة على قدر كبير من الأهمية، ربما تتغير بها خارطة العالم ستقع فى اليوم التالي .كانت ديدو على وشك أن تطرح سؤالاً ولكن حذرتها إيفا بتلك النظرة من عينيها، فقد خمنت أن كل الطاولات بالفندق الحق بها أجهزة تصنت وربما بالغرف أيضًا ، أثار هذا الأمر قلقها فماذا سوف تفعل إزاء فضول ديدو ، ولكن أي فضول فى طرح الأسئلة هذا إن علمت أن هناك أجهزة للتصنت ، وقتها فقط ربما تصاب بالخرس ، وبالفعل لم تتفوه ديدو طيلة ذلك اليوم بأي كلمة لقد أجلت كل أسئلتها فى فترة التريض خارج الفندق وشكرت الله أنها كانت اليوم بمحطة الرمل . غادرا الفندق فى الخامسة والنصف واستقلا الترام الذى أوصلها للميدان الفسيح , تأكد إيفا أنه لم يكن أحداً يتبعهما ثم فضلت ديدو أن تدخل للمعبد اليهودي للتبرك من الحاخام الأكبر، فقد تملكها الشعور بالخوف وعدم الأمان، لم ترفض إيفا ولكنها قد إيقنت فى حال إذا كان هناك من يراقبهما دون أن تنتبه له فهما هلكتا بالفعل .

وهما تعبران البوابة الحديدية للمعبد نبهت ديدو أيفا أن تخلع الصليب او تخبئه داخل ملابسها . دخلتا معاً للمكان المخصص لصلاة النساء ثم أقامتا شعائر عبادتهما ، تناولت ديدو التلمود وأخذت تقرأ منه بصوت خفيض، بعدما أنتهت ذهبت مع أيفا لتحصلا على المباركة الكهونتية ، تلك المباركة التى لابد أن تكون من كاهناً ينتمى لدرجة كاهنوتية كبيرة ، ليقف امام الحرم المقدس ويبارك المصلين ، وقفت إيفا وديدو امامه بعدما رفعت ديدو شال الصلاة لتغطي به رأسيهما معاً وانحنتا عند مرر الكاهن ليمسح بيديه على رأس كل منهما و يمنحهما البركة . وبعدها خرجتا من المعبد أكثر سلاماً وهدوءاً ، إن لم يكن بسبب المباركة فبسبب ذلك المكان الهادئ الذى يبعث على السلام كما هى دائماً اماكن العبادة. قالت ديدو وهما يجتازن شارعًا إلى أخر :

_ أنه المعبد الذى أفضله الأكثر.

_ ولكن أين سنذهب ؟

لم تنطق ديدو التى كانت تخطو مسرعة بإصرار تجاه قدر ما وكأنها تخشى أن تتمهل ويتبدل بها .كانت إيفا أكثر بطئاً منها ، تسير خلفها

بعدة خطوات ، تستغرب حال تلك السيدة وتتساءل إلى أين تقودها وقد تحولت خطواتها الثقيلة المتباطئة لخطوات اكثر قوة وسرعة !؟ وأخيراً توقفت أمام أحد البيوت فى شارع ضيق من تلك الشوارع شديدة الانحدار لتضعك وجهاً لوجه مع البحر . بيت قديم بنى من طابقين على الطراز الأندلسي يطل على البحر مباشرة . أزاحت ديدو بوابته الحديدية الصدئة بعدما فتحته بمفتاح كبير كانت تحتفظ به فى دلّايتها الفضية . من الواضح أن البيت لم يزوره أحد منذ الزمن ، حديقته خاوية من زهورها فقط بعض الأعشاب التى نبتت بين مفاصل الصخور هُنا وهُناك . وحدها كانت شجرة الليمون العجوز تصارع العيش فى هذا المكان اجتازتا الحديقة ثم صعدتا أربعة درجات رخامية واصبحتا فى تراس واسع يطل بجميع جوانبه على البحر ، ومن التراس جاهدت ديدو لتفتح الباب الخشبي بالمفتاح فالصدأ وملح البحر تغلغلا بداخله ،كل تكة للمفتاح كانت بمثابة صوت للانتصار على

الزمن .فتح البيت على رائحة للغياب الطويل الممزوجة بملح الزمان .كست ذرات الغبار و زحف الصدأ فوق كل شيء .كان من الواضح أن من غادر قد تركه على عجل وكأن أمرًا هاماً قد حدث له جعله حتى يترك بقايا طعامه التى تحولت إلى عفن كما هي فى الأطباق .حتى الخشب الذى سُقف منه البيت والنوافذ الخشبية والدرج الخشبي الذي يؤدي للطابق الأعلي لم يسلم من رطوبة الايام التي فتَّتَهُ ولكن أتراها قد أفلحت فى محو الذكرى ؟

تعبق رائحة ما فى ارجاء البيت تشى بحبٍّ ما، كان يشتعل هنا بجوار مدفأة الشتاء ، ضحكات ما كانت ترن هنا فى الشرفات الصيفية للعشق ، أنغام ما ،كانت تعزف هنا على بيانو أسود للذكرى ...

فتحت ديدو غطاء البيانو الذي غطاه الغبار وكان يقبع فى ركن قصي فى الصالة، ضغطت أحد مفاتيحه ثم تابعت العزف لمقطوعة دامعة . تري هل كانا يعزفانها معاً ؟ هل كان يجلس بمحاذاتها يلفها بذراع وبالأخرى يبادلها العزف ؟ وكم من مرة توقف وقبلها على وقع النغم ؟ كم من مرة توقف وطوقها على وقع النغم ؟ كم من مرة توقف ليقول:(أحبك) ايضاً على وقع النغم !؟

أنشغلت ديدو فى عزف مقطوعتها بينما كانت أيفا تنثر بعضاً من الحياة فى ارجاء البيت . حياة كانت هنا منذ زمن ما ، ضحكات تأتى من الطابق العلوي ، روائح شهية تتسلل من القدور النحاسية فى المطبخ ، رنين مُلحٌّ للهاتف لا يتوقف ، وقع خطوات نسائية ترتدى كعبها العالى على خشب الأرضية ، دوائر من الدخان ينفثها رجلاً وسيم بعدما حشا غليونه بأوراق التبغ.

ثم افاقت من تخيلها و أمسكت الصورة الفوتغرافية الموضوعة على المنضدة فى البهو وأخذت فى تأملها ,كانت ديدو وهي بعد شابة جميلة وبجانبها رجل ما على قدر كبير من الوسامة يطوقها بذراعيه ، بينما التف حولهما عدد من الفتيات والشباب بملابس السهرة . وبالرغم من أن الجميع في الصورة يحرص علي وضع الابتسامة على وجهه إلا أنه هناك قدر ما يشي بحزن قادم . أنتهت ديدو من عزفها وتناولت من إيفا الصورة تأملتها لبرهة وبصوت حزين .

ـــ أنهم أعضاء الفرقة الموسيقية عشية عيد الميلاد المجيد بعد انتهائنا من عزف ترانيم الميلاد فى حفل دار الأوبرا .

غادرتا معاً بعدما أغلقت البوابة الحديدية بالقفل مرة أخرى وكأن قدرها أن تظل مغلقة على أحزانها . أستقلَّتا سيارة اجرة ، فقد كان الوقت قد تأخر وتعدتا الوقت الزمني المسموح لهما . بدون سابق أنذار أستكملت ديدو حديثها وتحديداً عند الجملة التى توقفت عندها فى حديثها السابق وهى تشيح بنظرها من النافذة بعيداً باتجاه البحر .

ـــ بعد حصوله على عقد عمل في الإسكندرية طلب مني أن أذهب معه وأشترك معه فى حفلاته ، و بدون تفكير وافقت على الفور

بالرغم من أعتراض أبي على معيشتي فى الإسكندرية بمفردي ، إلا أني أصريت على الذهاب وحملت حقيبة صغيرة بها أمتعتي واغلقت الباب خلفي وذهبت ،لم تستوقفني يومها دموع أمي ولا تهديدات أبي ، تابعت خطى قلبي وراء رجل نبض له القلب بعنف ، أقمنا معاً فى هذه الفيلا ويوماً بعد أخر كنا نحلق معًا من فرحة لاخري ومن نجاح لأخر ومن قدر لقدر .أجلس بجواره فى القاعة المظلمة، نتبادل عزف مشترك بأيدينا الأربع وبتناوب عازفين يملؤهما الشغف تارة والحب فى أخرى ، و بعد فترة من الوقت أصابه الحنين لموطنه ولم يعد يتحدث سوى عن الشواطيء الإيطالية وزهور البرتقال و مدينة البندقية .

وعدني بأنه سيصطحبني معه ولن يتخلى عني أبداً، طالما حلمت وقتها بتجديفه للجندول الذى يحملنا معاً على أنغام "سانت لوتشيا" و بالمتاحف الإيطالية وبالبيتزا والاسباجتي ، كنا ننتظر توقف الحرب حتى نستعد للرحيل . نسينا وقتها أن نتوج هذا الحب الذى ملأ قلبينا بالزواج ، كنت على استعداد أن أترك ديني وأتحول للمسيحية ،فأسرته كما أخبرنى كاثولوكية متدينة لن ترضي بأن يقترن أبنها بفتاة يهودية . حتى فوجئت ذات يوم بجنين يتحرك بداخلي بالرغم من حرصي الكامل على عدم حدوث هذا ولكن عشقي لهذا الرجل أفسد قوانين الطبيعة بداخلي والدورة البيولوجية الخاصة بى فمن فرط عشقي له وجدتني أحمل جنينه . وقتها لم أعرف أأفرح أمَ أحزن ؟ تملكني شعور بكل منهما ،كان بأمكان فرحي أن ينتصر على حزني ، إذا هو بادلني ذات الشعور ، ولكنه منذ أن علم بخبر الحمل وقد تبدل إنسان أخر، فى البدء أستشاط غضباً وأتهمني بالإهمال وبأني مازالت طفلة ولا أقدر مسئولية ما فعلته ، وكأن هذا الطفل جاء مني فقط ولم يشاركني فيه .ثم طلب مني أن أتخلص منه بحجة أنه لن يستطيع أن يصارح أهله أنه رزق بطفل بدون زواج بالأضافة للوم الذى سوف يتلقاه منهم إذا هو أخبرهم أنه تزوج فى مصر دون أن يخبرهم . حاولت التخلص من الطفل بالطرق التقليدية ولكني فشلت، ويوماً بعد أخر كان جنينه يزداد التصاقاً بى و يزداد هو بعدًا عني. وفى أحد الايام قاسية البرودة أستيقظت على دوى الرياح فى الخارج كانت النوافذ تهتز بعنف ، نظرت فلم أجده بجانبي، فكرت أنه ربما قد ذهب ليتريض على البحر فى الصباح الباكر كما أعتاد أن يفعل، ولكن كان الطقس سيئاً لا يصلح للتريض، ساورني شعوراً ما وأخذ يتأكد بداخلي كلما مر الوقت ولم يحضر حتى جاء المساء وتأكدت وقتها أنه غادر بلا عودة . بعدها بعدة أيام أخبرني أحد أصدقائه من الطلاينة أنه رحل فجر أحد الأيام بالباخرة المتجهة الى روما .

اضافت بأبتسامة ساخرة :

ــرحل بدون أن يترك وراءه تلك الرسالة التي دوماً يتركها الرجال عندما يهجرون نسائهم ، لأكتشف أنى لم أكن بالنسبة له على هذا القدر من الأهمية حتى يمسك بقلم ويبحث عن ورقة ويعتذر ببضع كلمات واهية تزيد الجرح فتقاً . هو المؤلف الموسيقى الأشهر والأبرع ، نسى أن يضع لحن النهاية فى قصتنا ، فقط أكتفى بأن تركها معلقة ومضى .

توقفت لبرهة من الوقت ثم عادت بصوت اكثر وهناً:

ــ تألمت كثيراً وأمتنعت عن تناول الغذاء واصابتني حالة نفسية سيئة أدت بى للأنجاب قبل الموعد المحدد ، فجاءت طفلة ضعيفة ولم يكتمل نموها بعد ،طلب مني الطبيب بمستشفى المواساة أن أتركها تحت رعاية الأطباء وأذهب حتى يكتمل نموها فى الجهاز المخصوص بذلك فى المشفى .. وبعدها بعدة أسابيع كان موعد خروجها ، أخبرنى الطبيب وقتها أن نموها الجسدى قد أكتمل لكن لن يكتمل نموها العقلى ابداً . كانت حالتها تزداد سوءاً كلما نضجت فألحقتها بقسم خاص للمتخلفين عقلياً " بالسرايا الصفراء " .كانت على عكس الجميع كلما زاد عمرها ازدادت حالتها العقلية تاخراً ، الأن هي على مشارف الخامسة والعشرين ولن تعرف حتى قرابتي بها ,كل ما تبتغاه مني تلك الحلوى اللذيذة التى أصنعها واحملها معي عند زيارتي الشهرية لها فتأخذ فى العبث بمحتويات الحقيبة حتى تعثر عليها ثم ترميني بوابل من القبلات وتفتح برطمان المربة وتلعق منه بإصبعها .

ثم توقفت عن الكلام وكأنها تخلصت من حمل ثقيل كان يقبع على قلبها فيزيده حزناً والأن تخلصت منه و أصبحت أكثر خفة . في البوح ايضاً تفريغ لتلك الحمولة المنهكة التى يحملها القلب معه سنة وراء أخرى ووهناً فوق الوهن .

اخيراً توقف بهما سائق التاكسي ، الذى كان يشاركها الإنصات للحديث وكان يهز رأسه تارة و يتمتم فى أخري ، أمام بوابة الفندق الدوارة التى القت بهما من عصف الرياح الباردة الى دفء البهو، و من الواضح أنه هناك خطأ ما حدث بالخطة او ربما هو تمويه ما فقد كان بهو الفندق مزدحم برجال الأمن والمخابرات .

ـــ أنه روميل !

تمتمت إيفا فى سرها عندما شاهدته يجلس امامها تماماً فى المقعد المقابل لمكتب الأستقبال الذى ذهبت اليه مباشرة لتحصل على مفتاح الغرفة كان يجلس بالقرب منه شخصاً أخر تدل هيئته على أنه رجل عسكري و بالرغم من تخليها عن ارتداء ملابسها العسكرية تعرفت عليها ، حاولت أن تبطىء من خطوتها حتى يتثنى لها أن تتأكد إن كان هو كولونيل فون ستوفنبرج. ورغماً عنها نفذت اوامر الرئيس جيداً ، مرت من امامه جميلة كحلم ، تبادلت معه نظرة عميقة متعددة النوايا ، تشابكت فيها مقلتاهما ولم يشأ أيٌّ منهما أن يفك التشابك .

صاحت تحدث نفسها قائلة :

ـــ يالله ما أوسمه

أمسكت يد ديدو التى كانت تسير بحزن الخطى حتي وقفتا عند بوابة المصعد وهي تتساءل هل تنفذ الخطة بدقتها أم عليها أن تضع بديلة لها فربما كانت هى تلك ليلتها الوحيدة هنا وسيغادران عند الصباح ، و وقتها لن تنجح فى الحصول على أى معلومات هذا أذا حالفها الحظ و وقعت عينيها عليها مجدداً . أرتدت فستانها الأنيق الذى كان من المقرر أن ترتديه فى الغد .كان من قماش المخمل الحريري بلون احمر قاتم يزيد من وهج بشرتها السمراء، وحاجبها المعقودين على سرها . أحكمت ربط الحزام الذهبي حول خصرها وأرتدت حذاء عالي الكعب ثم وضعت القليل من مساحيق التجميل و أبرزت الصليب فى عنقها . ربما تكون ديدو قد لاحظت أهتمامها بأناقتها على غير العادة، ولكنها لم تسأل ، فقط أكتفت بأرتداء معطفها بياقة من الفراء وذهبتا للمطعم لتفاجأ للمرة الثانية أنهما يشغلان طاولة بإحد زواياه, أختارت أحد الطاولات القريبة منها بحيث يكون جلوسها مباشرة أمام كولونيل فون ستافنبرج .كان كل شيئاً بالمطعم يبدو هادئًا تماماً كما لو أنه الهدوء الذى يسبق العاصفة . تذكرت المعلومات التى ذكرها الرئيس عن ذلك الرجل وهو يعرض صورته على إحدى الشاشات الكبيرة فى القاعة .

ـــ كلاوس فون ستافنبرج رجل اربعيني من عائلة ارستقراطية، درس الفلسفة والتاريخ واللغة اللاتنية كما أنه يعد كاثولكياً متديناً ولا يعتبره الكثيرين عسكرياً تقليداً وذلك لأقتناعه بمبادئ الأديب الألمانى " جاريوجا " التى تدعو لدولة المانية قائمة على المثل والقيم الأخلاقية تقود العالم بمثل تلك القيم والأخلاقيات .

أبتسمت بسخرية فى نفسها وهى تكرر " قيم وأخلاقيات " وهل هذا الذى يؤمن بالقيم والأخلاقيات يوافق على تلك المذابح !

وكأنه سمع حديثها مع نفسها فنظر لها نظرة طويلة وهو يقضم قطعة اللحم من شوكته . تبادل معها ابتسامة صامتة ردت عليه بمثلها .

ها قد نفذت ما طلبه منها الرئيس، نظرة فأبتسامة وسوف تترك باقي المهمة عليه .هو الذي أكتفى بتلك النظرة ، فبعدها دخل فى حديث طويل ومهم مع القائد روميل ، وشت تعابير وجهه وحركات يديه أنه حديث ليس بالمهم فقط ولكنه بالخطير والعصبي ايضاً ، و بالرغم من انتهائها من عشائها ألا أنها ظلت جالسة على الطاولة تتلكأ فى تناول الحلوى ثم الشاي حتى غادر ذلك الرجل بمرافقة روميل بعدما ودعها بنظرة على أمل بلقاء قريب .

فى الجدول كان مدون لها بعد عشاء تلك الليلة أن تذهب للنوم مباشرة ولا تغادر غرفتها، ولكنها لم تنفذها كل شئ تبدل بزيارة هؤلاء الرجال يوماً مسبقاً عن موعد الزيارة المحدد لذلك . صعدت مع ديدو للغرفة ثم سريعاً أعادت ترتيب هيئتها ،وضعت بعضاً من قطرات العطر ثم وهى تغلق حقيبتها وقع نظرها على علبة الدواء فأمسكتها بيديها وأخذت تهزها فأصدرت صوتاً فتساءلت وهي تنظر فى المراة لتضع احمر الشفاه :

-تُرى هل سوف أقوم بتناولها ومتي سوف الجأ اليها ! ؟

غادرت حيث جلست فى لوبي الفندق ، تواصل قراءة رواية كانت قد بدأت فيها ولم تنهيها بعد . وإذا بها فجاءة ترفع رأسها لتشاهد كولونيل فون يجلس مباشرة أمامها فى قميص بلون السماء وبنطلون رمادي ومعطف صوفي برقعتين من القطيفة عند الكوعين ، يصفف شعره للخلف بالكثير من الفازلين .كان وجهه وكأنه منحوت بأنامل نحات اغريقى بارع . ربما كانت النظرة الأولى مقصودة كما أُمر لها ن ولكن تلك النظرات التى أخذا يتبادلانها فى جلستها تلك لم تكن مرتبة فقد هامت أعجاباً به وكان أعجابها بِه لا يقل كثيراً عن فتنته بها ، وخاصة فى تصفيف شعرها على هيئة كاريه التى كان يحبها كثيراً ولكن ماذا لو علم أن تلك التسريحة التى يراها و قد صففت بها شعرها ما هى سوى شعر مستعار وضعته لتخفى بها صلعة رأسها التى رفض الشعر بها أن ينبت بعدما حلق بالكثير من القسوة على يد أحد الحارسات الألمانيات فى المعكسر .

هو لم يُضيّع الكثير من الوقت ، فليس لديه الكثير منه ، فهو أيضاً ينفذ جدول وضع بعناية فائقة، حددت فيها زيارته لمصر لمقابلة روميل وقائد مهم من القوات البريطانية لعدة ساعات فقط . بخطوات عسكرية ثابتة ذهب اليها وعرفها بنفسه

ـــ كلاوس .

مدت يديها وبصوت خفيض :

ـــ مادلين .

كانت تكره هذا الأسم ولن تراه لائقًا بها .كانت تريد أن تفصح له بأسمها الحقيقي حتى يتثنى لها أن تسمعه يردده بصوته العميق الذي تشوبه تلك البحة المكتومة . جلس بجوارها على اريكة مريحة فى زواية جانبية من بهو الفندق . جلست بمحاذاته واضعة مساحة ما بين ثقته وارتباكها. يتسلل عطرها الشرقي اليه من حين لأخر عبر نسيم الهواء .

ـــ يذكرنى عطرك برائحة رمال الصحراء .

ـــ حقًّا وهل لها رائحة ؟

ـــ نعم لها رائحة .

حَدث نفسه قائلاً :

ـرائحتها جميلة حتى تختلط برائحة دماء الجنود الذين يلقون حتفهم هناك و وقتها تفقد جمالها وتتحول لرائحة بشعة .

لم يكن يجيد الأنجليزية ، وهى كانت تجهلها لذلك كانا يفكان طلاسم اللغة بعد الكثير من الجهد .

ـ من أين أنت ؟

ـ المانيا .

ـ وأنتِ ؟

ـ القاهرة وفى أجازة مع عمتي العجوز للاستجمام بعدما ألم بها مرض عضال .

ـ ماذا تعملين ؟

ـ ممرضة بأحد المستشفيات .

ـ ملاك الرحمة أِذن .

ـ يمكنك أن تقول ذلك.

جلوسها مع الفون ستنافنرج أثار حنق رجال التجسس والمخابرات وربما لاحظ هو ذلك . لكن كان هناك شعور متقد بداخله يجعله ينسى كل شيء و يتجاهل كل شيء عدا تلك العيون الواسعة بلون البندق .

ـ ماذا تقرئين ؟
ـ تولستوي، الحرب والسلام .
ـ لقد سبقتك بقرائته أنه كتاب رائع .
ـ نعم وخاصة أنه يجعلك لا تمقت الحرب والقتال أذا كان فى سبيل منح أحد الشعوب حريتها أو فك أسرها من الظلم.
ضيّق حدقتى عينيه وهو يستمع اليها :
ـ لذا مؤكد أنت تعتقدين أن خوض المانيا لتلك الحرب ما هو إلا هراء ؟
ـ نعم إن المانيا أشعلت النار فى العالم كله، وهناك شعوب ليس لها دخل فى ذلك وجدت نفسها مزروعة فى داخل منظومة الحرب وهي لا حول ولا قوة لها .
ـ نعم هذا صحيح .
هل يعتقد حّقاً أن هذا صحيح أم أنه يجاريها فى الكلام فقط هل من المعقول أن يكون ضد هتلر ومع ذلك ينفذ تعليماته.
ـ غريبة أن هذا رأيك على الرغم من أنك ألماني !
تحدث بينه وبين نفسه لست فقط بالماني و أقود ايضًا اكبر المعارك شراسة فى الصحراء الغربية ولكني اكره ما يفعله هذا الأبله

ـ صدقيني الكثير من الألمان ضد هتلر ،بل هناك الكثير من قواده ضده ولكنهم غصباً عنهم ينفذون اوامره أنه نظام سياسي فاسد

ثم اردف:

ـ هل لى أن أدعوك إلي كأس بشرفة غرفتي أنها تطل على البحر المزدحم بالسفن التى تبدو من بعيد كومضات من الضوء فتنير كلحة البحر ، المنظر من هناك غاية فى الروعة .

كان رغماً عنها عليها الموافقة ولكنها بدلاً من أن تصرح له بموافقتها على الفور وحتى لا تثير شكوكه ففتاة مسيحية يتدلى الصليب من عنقها لن توافق على مثل هذا العرض بمثل تلك السهولة لذلك أجابته :

ـ الوقت متأخر وأخشى أن تقلق عمتي علّى .

ـ كأس واحدة وحديث قصير ثم سأدعك ترحلين .

هل كانت تتمنى أن ترحل حقاً فقد كان حديثه شيقاً لقد فتح قلبه لها ظناً بأنها فتاة عابرة تعمل ممرضة بأحد المستشفيات ستكون تلك المرة الأولى والأخيرة التى ستقابل بها رجلاً المانيًا يخفى عنها هويته الحقيقة . لذلك حكى لها عن غباء واستبداد هتلر وكيف أنه قد أوشك على الهلاك .

ـ أنتظري القليل من الوقت وستسمعين عن هتلر خبراً سعيداً ، كل تلك الارواح التى تزهق ستثأر منه تأكدي والأن دعينا من سيرة الحرب وأخبريني لماذا أنتِ جميلة هكذا ؟

قالها وهو يقف امامها يطرقع غطاء محكماً لزجاجة شامبانيا بالفتاحة المخصوصة لذلك ومن الواضح أنه كان يتقن ذلك الأمر فلم يسكب الكثير من الشامبانيا على الأرض , قدم لها كأسًا كريستالية . أخذتها وهى تقول

ـ شمبانيا ولكن هل نحتفل ؟

ـ نعم أحتفل بكِ .

رفع كأسه وشربها دفعها واحدة بعدما قال :

ـ فى نخبك .

بينما هى التى لم تعتد الخمر من قبل فقد أعتذرت له قائلة :

ـ شكراً ولكني لا أتناول الخمور .

ـ أنها مجرد كأس من الشمبانيا !

تناولت من كأسها ببطء وهى تتأمله وتتساءل تُرى هل تستطيع أن تحصل منه على أى معلومات ؟

على أريكة فى الغرفة فى مواجهة البلكون المطل على البحر وبالرغم من برودة وشدة الرياح التى كانت تذهب وتجيء بالستارة الحريرية إلا أنه تركه مفتوح على مصراعيه فكانت تأتيهم صوت أمواج البحر المتلاطمة الواحدة تلو الأخرى . كان ككل سياسي ورجل حرب كبير يشي به قفل غير محكم الغلق لحقيبة العمر التى أرهقتها المعارك والخطط و الحروب .

حكى لها عن أماله وأحلامه المغدور بها فى وطن وعالم يسوده السلام فإذا به لم يحكي سوى عن أمالها وأحلامها هى .

تنصت له وهى تدرك أنها تدخل عالم العشق والخوف معاً كيف لها أن تقع فى حب قائداً في الجيش الألماني يقود سلالتها إلى الأبادة حتى أن كان رغماً عنه .

لذا فجأءة وبدون ترتيب تفوهت لكلمات لرجل يجدر معه أن ترتب كل حرف تتفوه به سألته

ـ هل أنت موافق عن ما يفعله النازيون فى اليهود؟

سرت قشعريرة فى أنحاء جسدها وللحظات أستعاد ذهنها كل سيناريوهات العذاب والموت . اجابها :

ـ يجب أن يُقاد جميع من أشترك فى ذلك الى السجون ومحاكمتهم كمجرمي حرب .

كان هناك براءة تشع منه براءة ليس لها علاقة برتبته العسكرية ولا بالنياشين التي يعلقها فوق صدره . هل بهذه الكلمات أزال مخاوفها وترددها فى التمادي فى عشقه لاقصى درجة ؟

الأن بإمكانها فعل ذلك بدون تأنيب ضمير، أسندت رأسها على كتفه بينما طوقها بذراعه وأخذ يلمس شعرها وللمرة الأولى تشعر بمدي فجاعة أن تكون صلعاء فقد فاتها وقتها أن تشعر بلمس يده وهي تداعب خصلاته .

وأستكمل قائلاً وهو يملأ كأسًا تلو الأخرى ، ومن الواضح أن الخمر قد بدأت تلعب بعقله وتضعه وجهًا لوجه امام حقيقة مُرة , تلك الحقيقة التى يلزمه أن يكون مغيب العقل ليراها واضحة امامه ويتفوه بها . وجدته يصب جام غضبه على هتلر وموسليني وكل الوحوش الأدمية .

ومن كل الكلمات التى تفوه بها وقتها لم تستوقفها سوى إلا العبارة (لقد منح نفسه مكانة خاصة بدون أن يمنحها له أحد ، كل قرارته وتعليماته اوامر يجب أن تُنفذ ومن لا يفعل ذلك فمصيره القتل . فى الأونة الأخيرة أستبد به الجنون حتى ولكأن هذا العالم وما يجرى عليه احداث لفيلم سينمائى مروع ومرعب وهو مخرج هذا الفيلم , حتى قراراته اصبحت أكثر غموضًا ،تصورى أصبحت تعليماته عبارة عن شفرات وما بين شفرة واخرى هناك أخرى . ارسل بشفرة حربية إلى قواده فى فرنسا قبل معركة" نورماندى" و كان يُحتم عليهم الذهاب لكنيسة "الساكر كور" الشفرة كانت إحد أيات الأنجيل التى نقشها فنان شهير أثناء رسمه سقف الكنيسة وهكذا كان من شفرة لأخرى الوصول لها فى حد ذاته يُعد شفرة يخرج علينا كل يوم بشفرة جديدة . وشفرة اليوم هى عزف النغمة الأخيرة فى السمفونينة التاسعة لبتهوفن على بيانو أسود فى كنيسة " دير سانت كاترين " بمدينة سيناء ياله من عقل مريض وكأنه يفعل ذلك حتى يثير أعجابنا بذكائه المتقد)

إذن وبدون أن تسعى لذلك وبدون أي مجهود منها أخبرها أن الشفرة هى القفلة الموسيقية للمقطوعة التاسعة لبيتهوفن تعزف على البيانو الخاص بكنيسة دير سانت كاترين أي ذكاء هذا الذى فى رأس هذا الرجل الداهية !! ولكنه لم يخبرها لأى عملية حربية هي تلك الشفرة لذلك شاركته السخرية والأستغراب معاً وهى تسأله :

_ ولكن أى لغز ستفكه هذه الشفرة !!؟

_ أنها شفرة للبدء فى أشعال فتيل للغم ما .

راجعت الكلمات فى رأسها " لغم ما !! " مؤكد أنها الألغام التي يزرعونها بمنطقة العلمين .

ثم كان عليها أن تمتثل لأناملة التى أخذت تداعب جسدها وقبلاته التى كانت تقع على كل جزء فيه . واخيراً بيده القوية أخذ يخلع عنها ملابسها وهى بعد مستسلمة تماماً وكأنها تترك له جسدها كهبة لتلك المعلومات المهمة التى حصلت عليها . تلك المعلومات التى ربما تغير خارطة العالم . هو لم يتوقف .. وهى لم تمنعه .. واخيرًا أفاق من ثمالته على فض عذريتها .

بصوت أشبه بضوء خافت :

_لماذا لم تخبرينى أنك مازالت عذراء ؟ لماذا لم تمنعيني ؟

تركها وجلس على المقعد يشغل تبغه فأضاء عود الثقاب وجهه وظهرت ملامحه الحزينة

_ لقد طلبت منك أن تتوقف.

_ كان عليك أن تمنعيني بالقوة حتى كلفك الأمر ركلي .

لماذا لم تفعل ذلك حقًّا!!؟ هل لأنها كانت على درجة من المتعة منعتها من أن توقفه أمَ لأنها شعرت أنها مكافأة يستحقها جراء المعلومات التى حصلت عليها منه ؟ نظرت إلى اللون الأحمر الذى صبغ غطاء الفراش الأبيض وأخذت الدموع تسيل على وجنتيها . أنها دموع الأنتصار والثأر لكل هؤلاء الذين اغتيلوا ، وقتلوا ، وابيدو .

أنها بضعة نقاط حمراء من الدم كنقطة في بحر الدماء التي خضبت بها الأوطان فتري هل له أي قيمة ! وهل كان عليها أن تحزن؟!

سألها :

_ لماذا أنت هادئة هكذ وأنا أعلم تماماً أن أمر العذرية مهم في بلدان الشرق؟

_ أنا فقط كنت أفكر فى تلك النقاط البسيطة من الدماء والتي تشغل تفكير البعض لدرجة كبيرة درجة ربما تصل للثأر والقتل بينما هناك براكين من الدماء لا يعير أحد الانتباه لها

ترك مقعده وذهب لها وضمها اليه و بدء مجدداً فى تقبيلها ولكن تلك المرة وهو فى كامل وعيه . أكتشفت أنه كان يمنحها من الحب بقدر لهفتها عليه ، عشقت عطاءه وتأكدت أنه لو كان مُقدرًا لها أن تعيش ما تبقى لها من عمر معه فأنها لن تشبع منه ابداً . وكأنما كانت تعد نفسها لسنوات طويلة من الحرمان والغياب كانت تأخذ منه.

هل كان للبحر دور فى ذلك؟ فاحت روائح المد والجزر وتعالت الأمواج و التى على وقعها كانا يمارسان الغرام وعندما هدأت العاصفة البحرية بهدوء غادرها تاركًا خلفه قبلة طبعت على قلبها ووشمت روحها للابد .كانت سعيدة وقتها ، لم تكن تتدري أن الغدر هو السمة الأولى للبحر وأنه فى وقت لاحق سيسرق سعادتها به وامواجه ستضع قليلًا من الملح فوق الذكرى .

كانت العاشرة صباحاً عندما أستيقظت على فراش شهدت ارضه معركة غرامية لم يكن الأنتصار فيها سوى للقدر الذى منح كلًّا منهما سعادة على غفلة من الزمن ، سرعان ما تبدلت لحزن عميق عندما بحثت عنه في أرجاء الغرفة ولم تجده . ترك وراءه رسالة لم يكتب فيها سوى عنوان لصندوق بريد بألمانيا و " أحبك " ولكن هل أحبها حقًّا ؟ و كيف استطاع أن يمنحها كل تلك المشاعر ثم يوليها ظهره مغادرًا دون وداع ، أمَ تراه طبع قبلة الوداع على وجنتها بهدوء قبل أن يغادر دون ان تشعر ؟

ها هي الأن تحي قدر كان قد عاشته قبلها بعدة سنوات ديدو ، مع رجل يمر مرور الكرام على الحنين ثم يذهب ، هل شعرت ديدو بألم الأنتزاع ومرارة الفراق مثلها الأن ؟ مسكينة ديدو على الأقل هذا الرجل ترك وراءه رسالة كتب فيها بعضاً من كلمات و تذكرة للقاء ربما يأتى فى المستقبل . ولكن ماذا عن ديدو ؟ وهو الذى غادرها نازعاً خلفه أى أثر له!! ؟

أطالت النظر للبقعة الحمراء التى اخلفتها ليلة أمس كانت مستقرة على الفراش الأبيض اخذتها لهناك عندما كانت تستقل القطار وهي في طريقها للمعكسر وكانت تشاهد من النافذة جثث الجنود ملقاة هنا وهناك و بقع من الدماء تفترش الثلج الأبيض ، أغلقت الباب ورائها ورحلت . استقبلتها ديدو بعيون متفحصة متسائلة كان مظهرها يفضح ما بداخلها بالرغم من أنها حاولت إخفاء هذا وبالرغم من الفضول الذى تتمتع به ديدو فأنها لم تسأل .

نفذت إيفا تعليمات الجدول بحذافيرها ولم يتبق على وجودها فى ذلك المكان سوى بضع ساعات لتستقل بعدها القطار .كانت تشعر أن هناك الكثير من العيون تراقبها وتشير اليها قائلة " ها هى الفتاة التى قضى الكولونيل فون ستنافنبرج ليلته معها " بالرغم من أن الزيارة سرية ولكن مؤكد هناك الكثير من العاملين بالفندق يعلمون بها ، وإلا كيف كان على رجال المخابرات وضع أجهزة للتجسس والكشف عن هوية جميع النزلاء ولم يكن يُسمح لفون نفسه أن يصطحبها لغرفته إذا لم يتأكد رجال مخابراته بأنها هى حقًا الفتاة مادلين التى تعمل ممرضة بمستشفى القلب المقدس وقد حصلت بالفعل على إجازة لمدة يومين و عند تحرياتهم للسؤال عنها فى منزلها الكائن فى 45 شارع شبرا كما مدون فى دفتر بيانات النزلاء ، أخبرتهم فتاة صغيرة بجدائل شقراء أن مادلين سافرت مع عمتها للإسكندرية . وقتها فقط أشار الرجل ذو المعطف الأسود لفون بإيماءة من رأسه كجواز مرورها لغرفته .

طيلة وقت الرحلة من الإسكندرية للقاهرة كانت الخالة ديدو تغط فى نومها العميق بينما كانت إيفا تستعيد ذكرى لقائها بذلك الرجل الذى تعثرت به أثناء موعد مرتب لها مع أخر ! رجل لم يحدث أنه كان هناك من يملك مثله ... تواضعاً و كبرياء ، خجل وجرأة ، وبساطة وقار.

تُرى هل بإمكانها لقائه مجددًا ؟ هى تعلم أنه يقود فرقة المانية فى الصحراء الغربية ولكن هل تراه سيعود سالماً لوطنه؟ و تعلم ايضاً أن رجال الحروب على عجلة من أمرهم ، الحياة بالنسبة لهم بمثابة حرب وليس من قانون يحكمها سوى المكسب أو الخسارة . ألذلك سريعاً رفع راية النصر على فراش حبهما ثم غادر مطمئن أنه احتل القلب للابد ...؟

فور نزولها من القطار لم تنتظر الكثير من الوقت ، فقد كانت هناك من المعلومات فى حوزتها من الصعب التكتم عليها أكثر من ذلك ، فنفذت خطة الرئيس كما أمرها بها فكان عليها الذهاب للمنزل الكائن 45 شارع شبرا لأنه كان من الجائز جداً بأن احداً ما يراقبها ثم بعدها بعدة ساعات تخرج لتذهب للمستشفى لمناوبتها الليلية ،بينما على ديدو الأنتظار حتى الصباح لتذهب لبيتها .

فور وصولها للمستشفى خرجت من أحد الأبواب الخلفية وسارت فى طريق مظلم وطويل حتى أستوقفت تاكسيًا وذهبت للقاء يوسف الذي استقبلها بعناق طويل فأستغربت من تلك المشاعر قائلة :_ ما كل ذلك ؟

فعنفها قائلاً :

_ من الغريب حقاً أنكِ تمتلكين كل هذا الذكاء فى التخفى بهويات مزورة من اخطر رجال التجسس فى العالم ، و تلتقين بأخطر رجال الحروب فى العالم ، وعند الرجل الذى على شوق لك تتساءلين لَم كل هذا ؟

_ يوسف ليس هناك من وقت لمناقشة تلك الأمور فأنا أملك الكثير من المعلومات المهمة يجب إيصالها فوراً .

بدون أن ينظر اليها تناول قبعته من فوق التونيت الموضوعة بجوار الباب ثم قام بفتحه وهبط الدرج مسرعاً، بينما أوكل لها مهمة أغلاقه

أستقبلها الرئيس بملامح قلقة ومضطربة :

_ طمنئنيني هل نجحتت المهمة ؟

_ سأخبرك بالمعلومات التى حصلت عليها ويمكنك أن تحدد أذا كنت قد نجحت أم فشلت!

وخلال الثلاثين دقيقة كانت إيفا تخبر الرئيس بجميع ما حدث لها بالفندق منذ دخولها له وحتى مغادرتها ذلك الصباح . شكرها الرئيس وأثنى على جهدها فقد حققت نجاح مذهل . و أخبرها بأن من الجائز جداً بحصولهم على تلك الشفرة أن يتنصر جيش التحالف على الألمان في موقعة العلمين . سيستخدمونها قبلهم ويفجرون بها الألغام التى قاموا بزراعتها لغماً وراء الأخر وبذلك يكونون أحرقوا لهم االكارت الذى كانوا يدخرونه للحظات الفاصلة فى المعركة ويلقنوهم درسًا قاسيًا .

خرج بخطوات مُسرعة , وطلب من فتاة تعمل على جهاز التيكر إرسال رسالة مهمة . ثم سكب فى كاسات كريستالية من زجاجة نبيذه المعتق وشرب ثلاثتهم فى نخب المعلومات المهمة .

ثم نظر لايفا قائلاً :

_ أنا ايضاً أملك الكثير من الأخبار السعيدة لك , لقد تسلم روزويل مالكيلاند ممثل الهيئة الامريكية للاجئي الحرب ومقرها سويسرا نسخة من التقرير الذى كنتِ قد أعددته , بالإضافة أنه كان قد تسلم معلومات أخرى من شابين يهوديين سلوفاكيين هاربيين من معكسر اوتوشيز وصفا فيه بالتفصيل إبادة اليهود وغرف الغاز والمحرقة، وأكد تلك المعلومات ايضا ضابط جيش بولندي استطاع الهرب ، فوصلت تلك المعلومات لحكومات الحلفاء ونشرت فى جميع الصحف السويسرية والبريطانية والأمريكية والأن أصبح كل العالم يعلم ما يجرى فى المعسكرات النازية . و يبحث كلٌ من الجانب البريطانى والأمريكي ضرب خطوط السكك الحديدية التى توصل إلى المعكسر وخطوط الاتصال المؤدية اليه .

_ حقاً لو حدث هذا سننقذ الكثير من الارواح التى يتم قتلها يوماً بعد أخر .

طالت تلك الجلسة وشعرت إيفا بأنها متعبة للحد انها بالكاد تستطيع أن تفتح عينيها ، فأعتذرت بأن عليها الذهاب .

و فى الوقت الذى كانت تفتح فيه الباب أن تسمع ديدو تعزف أحد المقطوعات الموسيقية، ولكن للأسف كانت النغمة الأخيرة منها وقفت إيفا على باب الغرفة تصفق لها وتسألها :

_ لمن هذه المقطوعة الرائعة ؟

_أنها المقطوعة التاسعة لبيتهوفن .

_ مدهش !

كان المدهش حقاً أن يأتي عزفها لتلك المقطوعة فى هذا الوقت بالذات. للوهلة ظنت أيفا أنها ربما قد أخبرتها بأمر الشفرة ولكنها تأكدت أن هذا لم يحدث ابداً.

ـــ هل لك أن تكررين عزف النغمة الأخيرة من السمفونية ؟
ابتسمت ديدو و واعادت العزف .
بالتزامن مع ما تعزفه أنامل ديدو هُنا كانت تعزفه هُناك أنامل يد قوية لرجل أربعيني وكأنهما كانا يتناوبان العزف معاً . رجلاً يرتدي معطفه الأسود من قماش واق من المطر ، فارداً نوتة موسيقية على بيانو أسود قديم وضع في احد اركان كنيسة دير سانت كاترين، كانت الثلوج تهطل بغزارة من خلف زجاج النافذة الملون و كانت الأنغام تخترق سكون الليل وهدوئه ، بعدما عزف الرجل القفلة الموسيقية فإذا بدرج سري داخل غطاء البيانو يُفتح مد الرجل يده سريعاً وأخرج منه ورقة طويلة مدونًا بها الكثير من شفرة من الارقام السرية ، سحب كاميرا فوتغرافية خاصة بتصوير تلك الأمور كان يخفيها فى عنق حذائه الطويل .و قام بتصويرها ، وأعادها مكانها و بمنديله الأبيض مسح اثار و بصمات يده من فوق كل شيء كان قد مسه ، أخفى الكاميرا مرة أخرى داخل عنق حذائه وغادر المكان بخطوات جامدة وبوجه تختفى ملامحه وراء قبعة انسدلت عليه ، اومأ برأسه للراهبة التى كانت تقف على مقربة منه تمسك بيدها شمعة على ضوئها كان يقوم بالعزف ثم اختفى وسط الظلام .

أنشغلت ديدو بالاستعدادت لعيد الفصح وإحياء طقوسه التي توارثتها عن الأجداد بحذافيرها ومنها الأمتناع عن تناول الخبز قبل موعد العيد بعدة أسابيع ومنعها أنشغالها بهذه الطقوس من ملاحقة ايفا بالأسئلة عن ماذا كان وراء تلك الرحلة للاسكندرية .
قبل العيد بأيام قليلة طلبت من إيفا مشاركتها بتنقية الأرز بمنتهى الدقة ولا تدع شائبة به ، سكبت أرطال الأرز الواحدة فوق الأخرى على الطاولة وكلفتها بأنجاز تلك المهمة وحذرتها لأكثر من مرة مراعاة الدقة , بعدما تأكدت من أن كمية الأرز التى ستستهلكها مأدبة الغذاء للعائلة الكبيرة قد نُقيت بعناية وضعته فى سطل نحاسي كبير لإعداده فى الغد . ثم قامت بفتح دولاب الفضيات لتخرج منه الأطباق والأكواب الكريستالية والملاعق والشوك الفضية . أغرب ما فى الأمر هو حرص ديدو على تفتيش المنزل على ضوء الشمعة ليلة العيد وهى ترتدى جلبابها الكستور، وتعقد إيشاربها على الجزء الأمامى من شعرها ،بينما تترك الجزء الخلفى يتطاير فى جميع الأتجاهات، وكعادتها تضع نظاراتها الطبية لمقدمة أنفها فكان مظهرها غاية فى السخرية الممزوجة بالرعب . كانت تفتش فى كل مكان أسفل المقاعد والطاولات تحت السجاد والأسرة حتى تتأكد بأنه ليس هناك ولو قطعة صغيرة من الخبز .
لم تحاول إيفا أن تناقش ديدو او تحثها عن أفعالها ، لأنها عاشت تلك الطقوس مع أبيها ذلك الرجل الذى كان يؤمن بكل عقائد التوارة ويعمل على تنفيذها بحذافيرها ، حتى سافرت لفرنسا وأخبرت أحد صديقاتها من اليهود بأنهم يمتنعون عن تناول الخبز ويحرصون على تنقية الأرز بدقة فائقة ، لتستغرب صديقتها وتخبرها بأن الأرز محرم تناوله فى عيد الفصح بينما تسخر منها صديقة اخرى وتخبرها أنها وأسرتها لا تكفان عن تناول الخبز طيلة الأيام التى تسبق قدوم العيد أما عن تنقية الأرز فهم يشترونه نظيفًا ومغلفًا فى أكياس كرتونية ولا تشوبه شائبة . وقتها فقط أيقنت بأن المعتقدات التى رُبيت عليها تحتمل الشك من اليقين .لذلك تركت ديدو تقوم بطقوسها كاملة ولن تشاء أن تجادلها فى شيء . أقامت ديدو كل طقوس العيد حتى ذلك الطقس الديني الذى تملأ فيه كوب من النبيذ وتتركه فى كأسه الكريستالى حتى يحضر النبى ايليا ويعلم أنه مرحب به على مائدة العيد . عندما سألت إيفا أباها عن تلك الكأس ، أخبرها بأنها رمز من رموز التوراة يجب احياءها كذكرى خروجهم من مصر على أستعجال وحملهم أمتعتهم فوق ظهورهم وتناولهم الخبز الغير مختمر خوفاً من بطش فرعون مصر .

لاحظت صديقتها أيمان أنها على غير عاداتها مشغولة البال بأمر ما . تخبرها ايمان بما دار فى البنك أثناء غيابها ولكنها لا تجيبها إلا بأبتسامة بلا فاترة. لذلك سألتها :

ـــ ما الذى حدث ناديا ؟ اراكِ مهمومة ألم تحصلين فى أجازتك تلك على الراحة والأستجمام ؟

كانت تريد أن تجيبها " ومن إين تأتى راحة البال ؟"

ـــ نعم ولكنى أشعر بالكسل ويغالبني النعاس !

ـــ هناك عرض أزياء يقيمه فندق شبرد مارأيك فى حضوره أملك دعوة أضافية لحضور الحفل ؟

كانت المرة الرابعة او الخامسة التى تدعوها ايمان لشيئاً ما وهى تعتذر بالرفض فوجدت أنه ليس من الذوق أن تواصل رفضها لدعوات ايمان ، وعلى مضض وافقت على حضور الحفل وأتفقت معها أنها ستقابلها عند بوابة الفندق فى تمام السابعة مساء .

أرتدت أناقتها ثم ذهبت . و فى السابعة تماماً كانت امام بوابة الفندق عندما لمحت أيمان واحمد يلوحان لها فذهبت اليهما صافحتهما ودلفوا إلي قاعة الدفيليه التى كانت تمتلئ بسيدات المجتمع الراقى .

وعلى طاولات دائرية بمفارش من الدانتيل الأبيض جلسوا متقابلين. أعلن مذيع الحفل عن بدء العرض . خفتت الأضاءة وعلا التصفيق للعارضات الرشيقات وهن تذهبن وتجئين على البساط الأحمر للأناقة , تعرضن الازياء بكعوب عالية وبخطوات تتمايل على أنغام الموسيقي .كانت ايمان تتابع العرض بعيون تملؤها الدهشة والأعجاب بينما هى كانت زائغة النظر تائهة ، لاحظ أحمد ذلك فلم يكن يتابع عرضًا سواها بعينين متخمتين بالإعجاب بها وبعقل وقلب يفكر كل منهما ضد الأخر .

ـــ لماذا لا اشعر بأن أيًّا من تلك الأزياء قد لاقت أعجابكِ ؟

ـــ ابداً كل الأزياء جميلة .

وضع الجرسون أطباق اللحم المشوى كانت تنبعث منها الأدخنة المحملة بروائح الشواء فأرجعتها للخلف لعدة شهور مضت لروائح من اللحم البشرى التى كانت تنبعث من المحرقة والكل يسأل بسذاجة عن مصدر تلك الرائحة الكريهة ؟ !! شعرت بالغثيان يتملكها فوضعت مفرش المائدة المزينة حافاته بخيوط مذهبة تحمل اسم الفندق على فمها وهى تكتم إحساسها، وما أن دخلت الحمام حتى أفرغت معدتها تماماً، وتملكتها حالة من البكاء الهيستيرى عندما تأكدت أن أمها التي أستبعدت من الطابور لضعفها الحاد كان هذا مصيرها فى النهاية. بينما كانت أيمان تنتظرها قلقة عليها بالخارج لتسألها ماذا حدث لها ؟

ـــ لا شيء ولكن ربما قد أُصبت ببرد بمعدتى .

أعتذرت بأن عليها الذهاب ولم تفلح محاولات أحمد وايمان لإثنائها عن ذلك حتى أنه تضرع لها قائلًا:

ـــ يمكننا الذهاب إلى أى مكان أخر

ـــ ليست المشكلة فى المكان

طبعاً لم تكن المشكلة بالمكان ولكن فى الأشياء التى تحرض الذاكرة عليها فأينما ذهبت تعثرت بها ،ستصبح ملازمة لها طيلة العمر .

أرتدت قفازيها الحريرين الأسودين ، وهي تهم بانتشال حقيبتها من فوق المائدة صاحت أحد الفتيات والقت بنفسها عليها وأخذت فى تقبيلها وهى تردد أسمها

ـــ أيفا .. ايفلين ... يا أللة أشتقت اليك .

ـــ مرحباً زورا وأنا ايضاً أشتقت اليك ..

_ ولكن متى رجعت من فرنسا ؟

_ منذ زمن .

_ وكيف هى أخبار عائلتك ؟

_ بخير كل شئ بخير .

نظر أحمد وايمان كلاً منهما للأخر في استغراب عندما نطقت الفتاة اسمها الحقيقى ، اعتذرت منها إيفا بأنها عليها بالرحيل الأن ,و ذهبت وتركت الفتاة مسمرة مكانها ومندهشة من هذه المقابلة الفاترة .

ترك أحمد ايمان تتابع العرض وركض خلف إيفا يعرض عليها توصيلها للمنزل ، رفضت وأخبرته أنها يمكنها أن تتدبر أمرها بنفسها ، لكن أمام إصراره كان عليها الأنصياع .جاء السائس بمفتاح سيارته الكاديلاك السوداء وجلست في المقعد المجاور له، سألها بصوت يشوبه بعض الشك :

_ ما أمر تلك الفتاة ولماذا كانت تناديك " بإيفلين "

_ إيفلين هو الأسم الذى يطلقه علَّى المقربون مني .

_ وهل كنتِ بفرنسا ؟

أربكها السؤال فأكتفت(بنعم)

_ أنا أيضاً سافرت لهُناك بعد حصولي على منحة دراسية لاعداد دراسة الماجستير والدكتواره فى القانون ولكن لظروف الحرب أضطرت للرجوع لمصر، أنها بلد جميلة حقاً .

_ فعلاً .

لاحظ أنها بالكاد تجيبه عن أسئلته وأخيرًا قامت بفتح النافذة ولوحت وجهها فى أتجاه النسمات الباردة لتلفح وجنتيها

_ ناديا ، اريد التحدث معك بأمر ما .

_ ماذا ؟

_ ليس هذا المكان المناسب لطرح موضوع هكذا، ما رأيك إذا دعوتك على فنجان من الشاى فى ذلك المقهى.

و لم ينتظر جوابها فقد أصطف السيارة بمحاذاة الرصيف ودخلا للمقهى الذى كان يكاد يكون خالى إلا من طاولة أو أثنتين ، جلسا بجوار الوجهة الزجاجية للمقهى وكانت مشغولة عنه بمتابعة المارة فى الطريق .

وبصوت أقل نبرة عن المعتاد ليلائم المشاعر التى سيصرح بها :

_ منذ أن وقع نظري عليكِ وتملكتني مشاعر تجاهكِ ظلت تكبر بداخلى يوماً بعد أخر حتى تمكنت مني للحد أنها لم تمنعني بالتفكير فى الارتباط بك، أخبرتني ايمان أنك يهودية وأنتِ تعلمين أستحالة ارتباط شاب مسلم بفتاة يهودية.

ثم وبصوت يملؤه الرجاء :

_ لذلك هل لكِ أن تبدلي ديانتك حتى يتسنى لنا الأرتباط ؟

أذهلتها المفاجأة جعلتها تضحك بصوت عالى، جعل كل الأنظار تتجه لهذه الطاولة التى يجلس عليها شاباً وسيماً وفتاة على قدر ما من الجمال

ـ وكأنك مثلاً تطلب منى أن أبدل ثيابى لأنها لا تروقك وحتى فى طلب أحدهم لي بأن ابدل من ملابسى لأنها ليست ملائمة لذوقه فإني أرفض وأعنفه على ذلك ، وأنت هكذا وبمنتهى الهدوء تطلب مني أن أبدل ديانتي لتستطيع الأرتباط بي، أخبرني ما الذى منحك كل هذه الثقة وأعطاك الحق فى ذلك ؟

ـ لم أقصد بالطبع الأستخفاف بديناتك ، ولكني أحبك واعدك أنى اوفر لك حياة جميلة .

ـ ربما تؤمن بأعتقادات النازية فى أننا نحن معشر اليهود مجرد جرذان لا تستحق العيش.

هز رأسه نافياً بحدة

ـ مؤكد لم أفكر فى ذلك أبداً .

وضع ساقاً فوق الأخرى وأشعل تبغه بينما وضع النادل فنجانين من الشاى وقطعتين من الجاتوه

ـولماذا إذن تطلب منى أن أبدل من ديني وأدخل فى الأسلام كشرط للأرتباط بى أو ليس النبي محمد " صلى الله عليه وسلم " قد تزوج من يهودية!!؟

ـ زواج نبي الله من المسيحية واليهودية كانت له دوافع واسباب أخرى.

ـ بالعكس لقد أمره الله الزواج من غير المسلمة حتى يبيح للرجال المسلمين أن يرتبطوا بمن هى لا تدين بالإسلام ،عليك الاعتراف بأن الشجاعة تنقصك لتخبر أهلك بأنك تريد الارتباط بفتاة يهودية !!!

نظر اليها طويلاً ثم أخبرها

ـ امنحي نفسك بعض الوقت للتفكير .

ـ لن أفكر فى شيء . فقط لأني أرفض فكرة الزواج فى الوقت الحالي .

كانت تلك الكلمات كما لو أنها صفعة على وجه الحلم ، على أثرها طلب الحساب وغادرا المكان وبتحية المساء التى ألقتها عليه غادرت سيارته بعدما توقف بها أمام باب المنزل مباشرة .

كانت ديدو خمدت للنوم وحمدت الله على ذلك ،ففي هذا المساء بالذات كانت في غنى عن أى من الأسئلة الفضولية .

أستيقظت علي نداء بائع الورد الذى يحمل معه سلة كبيرة بها جميع أنواع الورد البلدي بألوانه المختلفة الأحمر والأبيض والأصفر و زهور التمر حنة والقرنفل .أزاحت الغطاء عنها وقامت تفُرك عينيها وخرجت للشرفة ، كان الجو مشمسًا جميلًا . النسوة من الجارات في الشرفات المجاورة تنادين علي بائع الورد وما أن دخلت للشرفة حتى تحولن بنظرهن إليها ، فى البدء هزت رأسها لهن بإيماءة خفيفة بتحية الصباح ثم وضعت يدها علي رأسها لتكتشف أنها قد نسيت أن تضع الشعر المستعار وها هن النسوة عيونهن معلقة علي رأسها الحليقة . رجعت عدة خطوات للخلف وأغلقت زجاج الشرفة . وقفت أمام المراة تتحسس موضع صفعة الفأس علي رأسها التي تركت ندبة لن تنضُب أبدا . وتذكرت وقتها مشهد تلك المرأة التي بمنتهي القوة والعنف نزلت بفأسها علي أم رأسها تحاول أن تجمع حروف أسمها التي علقتها في بطاقة ورقية حول عنقها ، ولكنها فشلت كعادتها دائما . فقد كان تأثير الضربة قوي للحد أنه محى من ذاكراتها أى أرقام أو أسماء كانت قد خزنتها فى تلك الفترة التي سبقت الحادثة مُباشرة .

خرجت علي صوت جلبة بالخارج لتجد الخالة ديدو وقد دخلت في فصال مع بائع الورود علي ثمن العدد الكبير من الأوقية التي أشترتها.

سألتها مستغربة :

- ما كل هذا هل تنوين فتح محل للزهور ؟

أجابت وهي مشغولة بوضع الزهور في أنية نحاسية كبيرة

- أنوي صناعة مربي الورد وشرباته وصناعة زيت الورد لتُقطر به الماء وأضعُه فى بعض الأصناف من الحلوى .

غادرت هذا الصباح وانفها مزكوم بروائح الورود ممنية نفسها بيوم جميل يشبه تلك الرائحة . أخبرها يوسف أثناء لقاءها به فى ردهة البنك كالعادة أنه سيكون في أنتظارها بعد أنتهاء العمل في بار فندق شبرد ، وطلب منها أن تدخل من البوابة الجانبية للفندق التي تصل للبار مباشرة . ما أن أنهت ساعات العمل وخرجت من البنك وجدت أن الجو جميل يناسب أن تتريض حتى تصل للفندق الذى كان على مسافة قريبة من البنك. دخلت من الباب الجانبي للفندق الذى أوصلها للبار مباشرة كما أمرها يوسف .كانت الأضاءة خافتة داخل المكان وتتسلل موسيقي هادئة ، لمحته يجلس أمام البار يحتسي كأس من الفودكا ، انتبه وشعر بها تجلس بالمقعد المجاور له سألها عامل البار ماذا تريد أن تشرب ؟ فطلبت منه عصير الليمون .

التفت يوسف لها وسألها وهو يداعب بشرتها بأنامله

- كيف حالك ؟

-متشوقة ؟

- لأى شيء؟

- لأعرف الأخبار التي بحوزتك ولأهميتها طلبت مقابلتي هنا .

- تخيلت أنك ستقولين أنكِ على شوق لي !

تنفست بعمق ولم تنطق

- حسناً دعيني أخبرك أنكِ قُدمت خدمة كبيرة للعالم أجمع بحصولك علي تلك الشفرة التي بإمكاننا بها سحق الأعداء في معركتنا القادمة معهم بالصحراء الغربية ، سننتظر للحظة الحاسمة ونسبقهم بفك شفرة تفجير الألغام ، و وقتها سينفجر اللغم فى وجوههم ، وبذلك سنلقن الطاغية هتلر وقواده درساً لشدة قسوته لن ينساه يوماً .

ادرات رأسها فى اتجاهه ونطقت تملؤها الحماسة

- كيف حصلتم علي الشفرة ؟

- أخبر الرئيس الحلفاء بالمعلومة الخطيرة التى حصلتِ عليها ، وبعثوا أحد رجالهم وقام بعزف النغمة علي البيانو الموجود في دير سانت كاترين ، ليفاجأ بدرج سري يفتح تلقائيًا عند عزفها ، خبِأت به ورقة بها أكواد سرية قام بتصويرها ثم وضعها مرة أخرى مكانها وغادر المكان، وعند حصولهم على هذا الكود لن يشكوا ولو للحظة بأن هناك أحداً قد سبقهم إليه .

شعرت بقُشَعريرة تسري بجسدها عندما فكرت أن تلك المعلومات التي حصلت عليها من فون وهو واقع تحت طائلة السُكر ستؤذيه وربما تودي بحياته وهو لا ذنب له ، فقد أخبرها أنه غير راض عن تلك الحرب ولا عن ذلك القتال ولا عن تلك التعليمات التي يأمرهم بها هذا القائد المهوُوس ، ولكن كان أجدى به أن يستقيل أو يعتذر عن الأستمرار في مهمته والدفاع عن المبادئ التي يؤمن بها.

لاحظ يوسف أنها دخلت في تفكير عميق

- أين ذهبتِ ؟

- أبداً كنت أفكر لو أن كولونيل فون أصابه مكروه هل سأكون أنا السبب ؟

- ولماذا يُشغلك أمره ؟!! وما قيمته أمام كل تلك الأرواح البريئة فى كل أنحاء العالم التى تزهق وتعذب علي يد نظامه ؟

-ليس لفون دخل في ذلك حتي انه غير راض عن ما يحدث .

نظر لها بعيون تملؤها الشك والريبة قائلاً :

- ولكن أخبريني كيف حصلتِ منه علي تلك المعلومات وأي ثمن دفعتِ لتحصلي عليها ؟

- مهما دفعت من ثمن فسيكون بخسًا مقارنة بأهمية المعلومات ، فبهذه المعلومات لن يستطيع الألمان دخول مصر وأحتلالها وبهذا الأحتلال يكونوا قد وضعوا متاريسهم في الشرق الأوسط وبذلك يصبحوا قادة العالم وبلا منازع .

- اطلاقاً لن يحدث هذا .

كانت الشمس تميل للغروب عند مغادرتهم المكان ، والجو أصبح أكثر برودة عنه في العصر. أخبرها بصوت اهدأ من نبرته الطبيعية :

- هناك عملية فدائية علي مركز قيادة روميل فى الصحراء ، وهو يقع وراء الخطوط الأمامية بمائتين وخمسين ميلاً تقريباً إذا نجحنا فى تحطيمه فهذا معناه أننا قد كسبنا نصف الحرب تقريباً وهى لم تبدأ بعد وذلك عن طريق تعطيل القيادات ومراكز الرئاسات .

- إذا نجحنا بها تقصد مَن ؟

- سأشارك في هذا العمل إيفا وإن لم أرجع سالماً منه فعليك أن لا تتوقفي أبدا عن المُضي في مهمتك .

- ولكن ؟

- ليس هناك لكن أنه واجب انساني.

صافحاها مودّعًا وهو يشد علي يديها بينما هي قد شدته اليها لتعانقه بعنف الوداع الأخير فربما كان هو .

كان سيطلب لها سيارة أجرة عندما منعته من ذلك قائلة :

ـ أريد أن أتمشى للبيت .

ـ وأنا ايضًا .

كان طريق كلاً منهما مختلف عن الأخر فسارا عكس الأتجاه كلاً منهم مولٌ ظهره للأخر يخطو متمهلاً فى طرقات الحياة المتعرجة ولا يعرف لأى مصير هو ذاهب .

بعدها بيومين أعلنت الصحف والأذاعات عن ضربة قوية لعدد من الفدائين من وحدة كوماندو الحلفاء على مقر روميل فى الصحراء الغربية أدت لقطع الأتصالات عن مقر القيادة وتعطيل وصول الأمدادت ، وبالرغم من أعلان موت جميع من شارك فى تلك العملية من الفدائين إلا أنها كانت تنتظره!

كانت تنتظره بقامته المديدة وأناقته المعهودة وبأبتسامته المغرية ، تنتظر أن يطرق الباب كعادته برنين متلاحق وملحاً ، تنتظر أن تتقاطع خطواتها فى ردهات البنك صباحًا وبإيماءة بسيطة من رأسه يلقى عليها التحية وكأنه لم يداعب بشرتها ابداً أو يدخلا معاً فى قبلة طويلة تحمل أحلاماً مشتركة ، تنتظره على قارعة الطريق ليأتى من خلفها ويشبك يده فى يديها ويقود خطاها لأجتماعاتها السرية ، كانت تنتظره أن يحضر فكان جميل معه أن تبقى فى انتظاره،حتى وأن لم يحضر ابداً.

فلتقتبس قول الفيلسوف إذاً " لا يعني الموت شيئاً يكون فلا نكون .. يكون فلا نكون "

ولن ترتدي حداده فرجل مثله ضحى بحياته فى سبيل البشرية لن ترتدي عليه سوادًا .

كانت ترتبك عندما تطرح عليها ديدو اسئلتها عن يوسف :

- أين ذهب ؟ لماذا لما يعد يأتى ؟ وحتى أن كان قد أستقل قطار القاهرة لفلسطين أو الباخرة من ميناء الإسكندرية لايطاليا فلماذا لم يخبرنى ويودع عائلته مسبقاً ؟ لماذا لم يترك وراءه رسالة أو خطابًا ؟ لقد ترك كل شيئاً خلفه مُعلقًا حتى أنه لم يغلق الاضاءة فى غرفة نومه و لم يغلق النوافذ و الستارة الحريرية بغرفة الصالون مازال يداعبها الهواء ؟

كيف كان لها أن تخبرها أنه قرر أن يغادر بدون وداع ودون أمتعة شخصية؟ لا لن تخبرها تركتها تحي على قيد رجوعه , وأكتفت بأن عللت لها غيابه المفاجئ لسفره فى محاولة منه للبحث عن أهله .

منذ رحيل يوسف وتملكت منها الحماسة وكأنه سربها اليها بتلك التضحية بحياته فى سبيل العالم ، وحتى لا يحتله هذا المهووس ويفرض سيطرته عليه ، وضعت أول خط فى كتابها الذى قررت تأليفه عن المجازر النازية والوحشية التى يتعرض لها العالم وفى الوقت نفسه أخذت فى كتابة المرافعات التى سوف تقدمها للمحاكم لتساعد كل من تأذى بسببها .

أخبرها الرئيس فى أحد اللقاءات أن الحكومتين البريطانية والأمريكية رفضتا قذف السكك الحديدية المؤدية لمعسكر اشويتز وتنفيذ برنامج اطلق عليه برنامج النجدة ، و المقصود به نجدة اللاجئين وضعته مؤسسة لاجئى الحرب التى أسسها روزفلت ، هذه المؤسسة طلبت من الحليف البريطانى تنفيذه ولكنها أعتذرت عنه لأنها وجدت أنه سوف يعطل العمليات العسكرية ، وفى نفس الوقت كان هذا الرأى نفسه هو رأى وزير الدفاع الامريكي .

ـــ ولكننا لن نيأس ابداً تأكد من ذلك .

وغادرت وهى يملؤها الأمل والحماس

وفى اليوم التالى أعلنت الوسائل الأعلامية والصحف أخبار معركة العلمين التى دارت بين روميل وقوات الحلفاء ، هذه المعركة التى خلقت تغييرًا جوهرًيا فى خط سير الحرب، فبعد العملية الفدائية ،لمركز القيادة، ضعفت قوة روميل وبخاصة بعد امتدادات أمريكا للحلفاء، فأصبح هناك تفاوت كبير ما بين الجانبين، وسيطر الحلفاء على الحرب جوًا وبًرا بعد حصولهم على الشفرات الألمانية الخاصة التى أتاحت لهم كشف الخطط الألمانية ، ولم يستطع روميل الوقوف فى وجه قوات التحالف فأخذ فى التراجع ولكن وبالرغم من كل شيء كان هتلر مُصرًا على خوض المعركة حتى أخر جندى ودفع روميل للاستمرار وتوالت المواجهات بين روميل والقائد مونتجمرى البريطانى)

الأمل الذى تعلق به المصريون فى انتصار ألمانيا على حلفائها فى الصحراء الغربية ، ودخولهم القاهرة واحتلالها ،كان قد ذهب بتحطم أسطورة روميل ،هذا القائد الذى كان المصريون يخرجون للشوارع يهتفون بأسمه كيداً فى الأنجليز ، ظنًا منهم أن أحتلال المانيا لمصر سيكون أخف وطئًا من احتلال إنجلترا لها وكأنهم لا يرون النظام النازى والطاغية هتلر ولهوه بمقصلة الحرب .

فى الاجتماع الذى عقد هذا المساء أعلن الرئيس أن الجانب الألمانى قد خسر المعركة وبخسارته المعركة فهذا يعنى أنه قد خسر الحرب ،وأعلن شكره لها، فتحديداً حصولها على الشفرة أستطاعت بها قوات الحلفاء القضاء على الخطة الحربية "حدائق الشيطان الملغمة" والتي بدونها لم يكن فى أستطاعة الحلفاء الفوز بتلك المعركة المهمة .

وفى تلك الأثناء كانت أجهزة التيكر تعمل بشكل متواصل ودون توقف تنقل أخبارًا وتبعث أخبارًا، ولكن كان هناك خبراً سيئاً فى طريقه اليها، جاءت به الموظفة التى استقبلته على أحد الأجهزة وناولت ورقة طويلة للرئيس، فتبدلت ملامح وجهه ، ثم وجه حديثه لها ، ولها وحدها وكأن هذا الخبر لم يخص سواها:

ـ الكولونيل كلاوس فون ستافنبرج قد أصيب أصابة كبيرة فى معركة حربية فى تونس أدت لفقدانه أحد عينيه وذراعه اليمنى وقد نقل لألمانيا ليتلقى العلاج اللازم له .

أطاح هذا الخبر بفرحتها بانتصار الحلفاء فى الحرب لقد تعرض الرجل الذى قابلته بعضًا من الوقت ولكنه أحتل فيه كل القلب لمأساة حقيقية أغروقت عيونها بالدموع وغادرت قبل أن يكشف أحد سرها .

على مقعد مقابل لنهر النيل جلست تفكر في أن ترسل له رسالة طويلة ، تخبره فيها بأنها قرأت نبأ إصابته من الجرائد وهى تتمنى له الشفاء العاجل وستخبره ايضاً ، أنها أشتاقت له وأن هذا الوقت القليل الذى قضته معه من أسعد أوقات حياتها. ماذا أيضاً ستخبره .. ؟ ستذهب فى الصباح لتستأجر صندوق بريد برقم بريدى خاص، بها وبأسم مادلين حنا كما يعرفها هو وعلى هذا القرار غادرت .

كان الجو ربيعيًا جميلاً فتحت النافذة الزجاجية فكانت تهتز الستارة الحريرية مع النسيم الذى يحمل رائحة الزهور . جلست على المكتب تسند مرفقيها عليه وتنكبُّ برأسها فوق الورقة وتأخذها الحيرة بأي الكلمات تبدأ وكيف تخبره له أنها تعرفت عليه ؟ حسناً سوف تقول له في عبارة قصيرة أنها قد رأت صورته فى إحد الجرائد وقد تعرفت عليه فور رؤيتها ، وتفهمت أنه أخفى عليها هويته الحقيقية لحساسية منصبه ، ثم ستكتب له "كيف حالك ما هى أخبارك ؟ " ولكن أى مهانة فى تلك الكلمات إنها استدراج للألم وليس أكثر!

لقد تألمت كثيراً عندما سمعت خبر أصابتك . هكذا بدأت رسالتها لتتحول بعدها الرقعة البيضاء للورقة مرتعاً للبوح عن مشاعر حبيسة ودموع لا تتوقف ورجل أحبته كثيراً، رجل طارحته الغرام على وقع موج البحر موجة تذهب بها وأخرى تأتي بها ، أعادت قراءة الرسالة عدة مرات بعد كتابتها لتتأكد أنها قد كتبت لمرة شيئا جميلاً، فى ذلك الذى يسمى رسالة غرامية ، رسالة غرامية لرجل لم تلتقه سوى مرة يبعد عنها الأن الألاف من الأميال ، يرقد فى أحد المستشفيات يتلقى العلاج . لم تنسَ أن تخبره برقم صندوق بريدها ليراسلها عليه ، وقررت أن تقوم بوضع الرسالة فى صندوق البريد أثناء ذهابها للعمل صباحاً .

مرت الأيام بوتيرة أكثر هدوءًا وأكثر كسلاً عن المعتاد ، أصبحت الاجتماعات أقل، فقد أوشكت الحرب على نهايتها ويومًا بعد أخر يكتسح الحلفاء المعارك ، ولكن هتلر كان قد قرر المضى فى الحرب لأخر نفس فيه و قررت هي المضى فى كشف جرائمهم وفضحها فى صفحة بعد صفحة من كتابها .

كانت تتابع الصحف الأجنبية والعربية بشغف لتعرف المزيد عن أخبار فون ، علمت أنه غادر المستشفى وأمتثل سريعاً للشفاء . وضعت أحد الصحيفة صورته تحت خبر(كولونيل فون ستافنبرج وقوة إرادة مستحيلة) ونعتته بأنه رجل المستحيل فهو يرفض الأستعانة بمساعدة أحد بالرغم من فقده لعينيه اليسرى وذراعه اليمنى . تلك الذراع التى أحبتها كثيراً والتى كانت تطوقها بدفء العالم كله ، يظهر في الصورة وهو يرتدي بذلته العكسرية كاملة ، ويخفي عينيه المفقودة بعصبة سوداء ، و يظهر أحد اكمام سترته وهو خالي من ذراعه . أنه تماماً كما هو، يواجه جبروت عاهاته بكبرياء متعالية . قضت ليلتها معه بعدما أقتطعت صورته من الجريدة لتحتفظ به و وضعتها فى محاذاتها فكأنه كان يبيت ليلته بجوارها . كانت تشعر أنها اخيراً وحيدان وبعيدان عن كل الناس ، لتكتشف جمال وجوده بجانبها حتى و إن كان مجرد صورة بجريدة .

بعد مرور شهر كامل وفي صباحي صيفي مرت على مكتب البريد ، أدارت قفل صندوق بريدها الخاص بمفتاح فضي صغير لتفاجأ برسالة منه . أنتشلتها بلهفة و انتظرت حتى ذهبت للبنك وجلست على مكتبها لتقرأها ، لتفاجأ بأن تاريخ كتابته لها كان ذات تاريخ الليلة التي قضتها مع صورته . كما لو أنها سربت اليه حنينها وإلا لماذا فى تلك الليلة بالذات جلس ليكتب لها!؟

قرأت رسالته فى المرة الأولى على عجل وكأنها تبحث فيها عن شوقه اليها ،تقفز ما بين السطور ، تفتش بين سطر واخر كلمة واخرى تركض فوق الأحرف . ولكنه لم يفصح عن شيء ، أخبرها أنه بخير وتماثل للشفاء وأن أمسيتهما معاً فى الفندق لن ينساها العمر كله ، ويتمنى لو يراها مجدداً . فى نهاية الرسالة كتب" لقد وعدتك بخبر سعيد قريباً فأنتظريه ..."

ولكن ترى ما هو هذا الخبر السعيد ؟ هي لم تنس قوله هذا عندما أعلنت أمامه كراهيتها لهتلر وللنازية وما يصنعه فى العالم فطمأنها بأن هناك حدثًا سعيدًا وعليها أن تنسى قلقها ومخاوفها تماماً .

اكتفت بوهم امتلاكها له حتى وإن كان فى بضعة كلمات، جلس خصيصاً ليسطرها لها بذراع واحدة وعين واحدة . مسجونة كلماته إليها فى هذه الصفحة البيضاء تستنشق منها أنفاسه وعطره . تلمح ما بين السطور ألماً ما وفرحاً ما ، فبعض الكلمات ارتدت ثوب الفرح وأخرى كانت شبه دامعة ،بالرغم من صمت الأحرف المستفز ولكن كان من السهل أن تكتشفها أنوثتها المتيمة به. أغلقت الرسالة التى قرأتها مراراً وتكراراً ، ووضعتها بحرص فى حقيبة يدها ، فكانت أغلى ما تملكه وعادت للبيت ببضعة كلمات صنعت لزمن قادم حزنها .

أجلت كتابة رسالتها إليه لعطلة الأسبوع حيث قررت لتخرج فى نزهة نيلية وتكتب له وهي على متن مركب شراعى يتهادى بها على وقع نبض القلب، ولكن القدر لم يمهلها الفرصة ، فقد أعلنت صحف اليوم التالي بوقوع مؤامرة لأغتيال هتلر قام بها عدداً من جنرالات قادة الجيش الألمانى وسميت" بمؤامرة الجنرالات" وهى العملية فالكيرى وقد قام بتفيذ العملية الكولونيل فون ستافنبرج الذى حمل حقيبة بها قنبلة زمنية وفى اجتماعه الأخير مع هتلر وضعها بجواره ثم خرج بحجة أن عليه أن يجرى مهاتفة مهمة وعاجلة وفى هذه الأثناء قام أحد الأعضاء بنقل الحقيبة من مكانها و وضعها أسفل طاولة الأجتماعات الخشبية، دون أن يدرى ما تحتويه وتنفجر القنبلة وتحمي المائدة الخشبية هتلر من موت محقق)

هذه هى المعلومات التى جاء بها الخبر . لم تستطع أن تصدقها ، هل حقًّا فون قام بذلك؟ وهل هذا هو الحدث السعيد الذى وعدها به؟ كان كل همها أن تتأكد من صدق تلك المعلومات وتفاصيلها ، لذلك خرجت من المكتب مهرولة واستقلت تاكسي وذهبت للقاء الرئيس الذى استقبلها مرحباً وهو يخبرها أن الرجل الذي التقت به ذات يوماً يستحق لقب بطل وعن جدارة وبالتفصيل جلس ليحكي لها .

_مجموعة من كبار ضباط الحرب كانوا مجتمعين فى وزارة الحرب بمكتب الجنرال اولبريخت رئيس اركان حرب الجيش الوطنى، وكانت أعصابهم جميعاً متوترة وأعينهم مركزة على جهاز التيلفون . فقد كانت إشارة بدء الثورة هي رنة واحدة للتيلفون ، وبعد ساعات من الأنتظار الطويل دق جرس التيلفون اخيرا فى الثالثة والنصف بعد ظهر 20 يوليو 1944 ، و رفع اولبريخت الهاتف ليلتقط كلمة واحدة "فالكيرى" و رددها لينتفض الظباط واقفين ، وفى خلال لحظات راحت الكلمة الكودية فالكيرى تطير عبر كل الأسلاك فى اوربا، برلين ، باريس، فينيا ميونيخ، بروكسل ، وفى كل مكان كان القادة يفتحون مظروفًا مكتوباً عليه الكود فالكيري وهذه العملية التى دبرها القادة من اركان الحرب تعنى انقلاباً عسكرياً على هتلر لنقل السلطة ليد الحكومة التى ستقوم بمفاوضة الحلفاء على الصُلح ، حتى ولو أدى ذلك للتسليم . وتلقى هذه الكلمة يعني أن العملية قد تمت وأن هتلر كان مات . وفى سرعة البرق كانت الأخبار تتوالى بعضاً منها يعلن موت هتلر والأخر اصابته فقط ،كانت اخبار متعارضة تأتي وتذهب بين اللحظة والأخرى.

جاء إعلان موت هتلر من مقر قيادة الجيش بينما جاء نفي خبر قتله من مقر قيادة هتلر نفسه عرين الذئب، التى أعلنت أن هتلر بخير و أمرت بعدم تنفيذ أي من التعليمات سوى التى تخرج من غرفة قيادة عرين الذئب نفسها و بثت تفاصيل المؤامرة وكان مقرها وزراة الحرب فأمر بمحاصرتها والقبض على قادتها جميعهم . أصبحت الوزارة فى حالة شلل تام، التيلفونات ترن ولا يرد أحد ، واجهزة التيكر تكتب عشرات الرسائل ولا من أحد يقرأها أو يرد عليها وفى غضون دقائق قليلة انتشرت قصة الأغتيال .

بعد أن سحب نفس من غليونه ببطء :

ـ كان مركز المؤامرة هو الكونت فون ستوفنبرج وقد أختاره المتأمرون على هتلر ليقوم بمهمة اغتياله ،لأنه كان ظابط أتصال مع مركز القيادة رأساً "عرين الذئب" وقد عينه المسئولون فى وزراة الحرب من القادة حتى يتثنى له القيام بذلك العمل ، كان يظهر الكثير من الكراهية الشديدة لهتلر ولسياسته وكان يعلنها ولا يخفيها ولذلك وقع عليه اختيار القادة وعرضوا عليه الامر وقبل تنفيذه وهو بنفسه الذى وضع القنبلة الزمنية فى حقيبة اوراقه ووضعها بالقرب من هتلر فى مقر الأجتماع و انسحب بحجة أنه سيقوم بمكالمة تيلفونية مهمة ،أنتظر لعدة دقائق حتى شاهد القنبلة الزمنية تنفجر وتدوي دوياً هائلاً، ثم خرج من القيادة مسرعًا ليذهب لبرلين ، وفى طريقه إليها توقف واستخدم الهاتف ونطق بكود النجاح للعملية " فالكيرى " وهذا يعني أن هتلر قد مات ، فظن القادة أن هتلر قد مات حقًا ومن هنا أعلنوا ذلك ، وبعدها بقليل أذاع هتلر بنفسه خطاب بحديث ملتهب وشديد اللهجة ليعلن لشعبه وللعالم أنه لا يزال على قيد الحياة وأن تلك العملية قام بها بعض الخونة . وبتفتيش مكتب ستافنبرج عثر على مظروف به خطة العملية بالكامل، ولكنه وضع عليه للتمويه عنوانًا خطة الدفاع عن برلين ضد الغارات الجوية" وبتلك الخدعة البسيطة كان الرجل يخبئ خطته الخطيرة بعدما وضع على المظروف عنوان لخطة عادية يعلمها جميع الظباط والقادة ، مطمئنًا أن بهذه الطريقة لن يفكر أحد فى الأطلاع على خطتة الكارثية . وكانت خطة جهنمية تبدأ بتوزيع الأوامر اللازمة للانقلاب على جميع القيادات داخل مظروف مكتوب عليه " لا يفتح إلا بعد صدور الإشارة الكودية فالكيرى" ولكن بعد انكشاف خطتهم وفشلها تم القبض على جميع القادة المتأمرون وغداً سوف يعقد مجلس عسكرى لإصدار الأحكام عليهم .

استمعت إليه دون التفوه بكلمة ،كمن لا يصدق امراً من فرط استحالته يشك أنه حقيقي و كمذهولة من أمرها تركت مقعدها وبدون وداع غادرت . سارت حتى وجدت أحد المقاعد الخشبية أمام نهر النيل .جلست فكر أنها ومنذ ألتقته كانت تشعر به رجلاً فوق تلك السياسات القذرة والخطط الدموية الحربية ، إنه لا يشترك في شيء مع أولئك الذين وجدوا فى حصد الأرواح حلاً لكل العقد النفسية التي يمتلكوها.هل كان يقوم بتلك المهمة وهو على ثقة تماماً بأنها ستنجح ؟ أم أنه نذر روحه لحقن دماء الشهداء فى كل أنحاء العالم و وجد في موت هذا الرجل أنقاذًا لملايين الأرواح التى تقتل و تشرد ؟ كيف كان يخبئ هذه النيران المشتعلة تجاه قائده الذى يعمل علي تنفيذ تعليماته وخططه؟ تلك الخطط التى يضعها فى غرفة الخرائط الحربية بمخبئة الذى يسمى" عرين الذئب" يعقد جلسات الموت ويحبك خطط الفتك وهو جالس يحتسي قهوته بهدوء . تساءلت هل بلقائها به عمقت فيه هذا الشعور بالكراهية؟ وإلا لماذا فى هذه الرسالة التي بعثها لها تَذكر وعده الذى قطعه لها . هل كان يخطط وقتها لمثل المهمة أم أنه كان يتنبأ بأغتيال هذا الرجل حتي وأن كان على يد رجل أخر ؟ والأن وبعد فشل تلك العملية فما المصير الذى في انتظاره ؟ ولماذا كان على القدر يُبدل الأدوار؟

ها هو هتلر الذى كان مقدرًا له أن يُغتال، مازال ينعم بحريته الكاملة ليمارس دوره فى قتل المزيد من البشر،وها هو فون فى طريقه للموت ولكن هل على هؤلاء القُساة أختيارهم طريقة موت رحيمة به؟وكيف و قد أنتهى الزمن الوديع حتى فى موته ؟ الأن هو زمن الموت المفاجيء والأغتيالات الملفقة والقنابل الغاشمة .تمنت لو فى أستطاعتها العيش هناك فوق أى كوكب أخر حتى يمر هذا القطار الجنوني الذى يحصد معه ارواح كل من تحبهم الواحد وراء الاخر .

فى صباح اليوم التالي وهى تتثاءب بعد ليلة خاصمها فيها النوم خرجت سريعاً لتلتقط جرائد اليوم التى يضعها بائع الجرائد أمام عتبة البيت . أنتشلت الجريدة سريعاً و لم تكن لتحتاج لتبحث بين الأخبار والأحداث عن الخبر الذى تنتظره، فقد كان مكتوبًا بالخط العريض الاحمر في لصفحة الأولى .كانت الأخبار مختصرة وموجزة فى ردائها الأحمر الدموي ، كان هتلر يعلن نفسه أنه لا يزال على قيد الحياة على الصفحات الأولى للجرائد وكأنه لم يكتف من الحديث الذى كان يذاع بثه عبر إذاعات العالم أجمع بصوت قلق مرتجفًا وسط وشيش الأذاعة ، كل العالم كان يقف وقتها بجوار جهاز الراديو يحاول ضبط المؤشر حتى يتسنى له أن يسمع بوضوح اكثر هذا الرجل وهو يقول " أنا مازلت على قيد الحياة بعدما نجوت من حادث اغتيال قام بها مجموعة من الضباط الفاسدين " .

وتؤكد أخبار الصباح ما يقوله معلنة (نجاة هتلر من عملية فالكيري التى قام بتنفيذها عدد من الجنرالات ، وقد حكمت عليهم المحكمة العسكرية التي عقدت بالأمس بالأعدام رمياً بالرصاص حيث أعتقل كلاً من كولونيل فون ستافنبرح و جنرال أولبرخيت وظابط اخر إلى ساحة الوزارة وهناك أطلقت عليهم فصيلة الأعدام النار تحت ضوء سيارة مدرعة)

وفى الصورة كان يقف فى مكان فسيح . أمامه عدد لا بأس به من رجال فصيلة الإعدام يمسكون ببنادقهم فى وضع الاستعداد لإطلاق النار ، بنادقهم مصوبة عليه و أصابعهم فوق الزناد ، متأهبين لحصاد أرواح هؤلاء الرجال الذين كانوا يريدون أن ينقذوا العالم من الطاغية . تألمت وهى تفكر كيف كان شعوره وقتها وعلى بعد خطوات قليلة من الموت وكيف تلقى جسده الذى احبته كثيراً كل هذه الطلقات لتصنع به كل تلك الثقوب .

لقد قتل إذاً رمياً بالرصاص وعلى ضوء كشافات لسيارة مدرعة، لماذا الأهتمام بسرد تفاصيل أنه قد قُتل على ضوء كشافات سيارة ؟ كما لو أنهم يلقون خبزاً لعشاء رومانسي على ضوء الشموع ! بعد ذلك أفردت الجرائد جميعها ، تغطية خاصة لهذا الخبر و صورة هؤلاء الأبطال ملقون ارضًا بملابسهم الرسمية ، جثثاً هامدة وسط بركة من دمائهم .

لقد نفذت المؤامرة في وقت أكتساح السوفيت بعد معركة ستالينجراد وبعد الانتصار الباهر في نورماندى بفرنسا ، وقتها أصبح الأمر منتهى بالنسبة لألمانيا وصار الموضوع مجرد بعضاً من الوقت ويتم إعلان هزيمتها فى الحرب . أما لماذا المضي قدمًا فى مثل ذلك الأمر ؟ اجاب فون عن هذا التساؤل من خلال كلماته القليلة المعبرة التي صرح بها قبل موته " أن ستة عشر الف شخص يقتلون يوميًا، هؤلاء لا يموتون فى الحرب بل قتلاً على أيدي النازيين فى المعتقلات ومعسكرات الإبادة الجماعية وبالتالي فإن كل يوم يمر من زمن الحرب جدير باستغلاله ،حتى يتسنى لنا بعد ذلك أن نحيا فى مواجهة أنفسنا وضمائرنا " تذكرت عندما أخبرها عن ذلك القسم لهتلر هذا القسم الذى يُقسم عليه كل القادة فى الجيش النازي للولاء التام ليس للوطن ولا للدستور أو لقيم ومباديء ، ولكن لهتلر وأنه فى كل المرات كان يرفع ذراعه دون أن يصيح " يحيا هتلر " .

أغلقت الجريدة وعلى وجهها ابتسامة حزينة لرجل مرت بمحاذاة حياته ذات يوم ، ولم تع وقتها أنها تمر بحياة بطل .كان مخططًا لها أن تذهب للقاء رجل فإذا بها تقع فى غرام رجل أخر،طمأنها بأن شيئاً سعيداً سوف يحدث ثم ترك وراءه بضعة كلمات و مضى ، لتعلن بعدها بعدة أشهر الصحف خبر قتله برصاصات ثقبت جسده على ضوء كشاف سيارة مدرعة .كانت تعلم معني أن تتصفح جريدة لعام 1944

لتستطلع قدر الكون فيه ، متيقنة بأنه سوف تصيبها صدمة عصبية من الخراب المدمر وعدد الموتي والكثير من الجثث التى عثر عليها والأخرى التى دُفنت أشلاء دون التعرف على هوية اصحابها . ولكنها لم تصدق أن عيناها ستقع يومًا على صورة الرجل الوحيد الذى أحبته وقد كتب تحته "مات قتلاً بالرصاص" وتفترش الدماء مساحة الأرض جواره لتتحول الحياة للون الأسود الكالح .

ثنت الجريدة ووضعتها فى درج مكتبها وكأن الصمت يجعلنا أكثر فصاحة على ما نحن عليه ، أكثر حزناً ، وأكثر يتماً ،التزمت الصمت لعدة ايام فقدت الرغبة فى الحديث وفى البكاء وفى الحياة، أصبحت رغبتها الوحيدة هى ملء صفحات ذلك الكتاب الذى كان يزيد حجمه يوماً بعد أخر، كثيراً ما غازلتها علبة الدواء القاتل من ان تتناول منه قرص لتتخلص من عذابها وخاصة بعدما تمددت الحزن الى ما لا نهاية له من الوجع، وأصبح اليأس ككرات جليدية يتندحرج بها الى الهاوية ولكن هي التي تعرضت لأشد انواع الألم والعذاب ولم تفكر أن تتخلص من حياتها فى معسكر الموت كما كانت تفعل الكثيرات بقطع حبل الوريد او برمى انفسهن على السلك المكهرب أو حتى بالتطاول على الحرس وسباب النازية وجيشها لتقاد فوراً لغرفة الغاز ، لكنها كانت تؤمن بأنها عليها مواجهة الحياة وتكون نداً لها .

خرجت فى نزهة هى وديدو لحديقة الأزبكية .كانتا تتصنعان الفرحة وتستنجدان بالأمل للهرب من ذكريات قد تفضى بهما للبكاء، فرشت ديدو غطاء من كاروهات الأحمر والأبيض على عُشب الحديقة بعدما اختارت ظل شجرة سنديان ضخمة لتجلسا تحتها , وأخرجت من الحقيبة علباً بلاستيكة بها بعض الفاكهة والفطائر بينما سكبت إيفا العصائر في الأكواب . سندت ديدو ظهرها على جذع الشجرة وبدأت في غزل شال من الصوف وأكتفت إيفا بتأمل الطبيعة الصامتة التى غدت تشبهها في صمتها . فى تلك الساعة بالذات داهمتها روائح حدائق وممرات غابة بولينا فى ذلك الوقت من العام عندما تزدحم بالسيدات الأنيقات اللاتى جئن للتريض والأمهات الصغيرات وهن واضعات أطفالهن فى عرباتهم و يراقبنهم من حين لاخر أثناء انشغالهن بالقراءة أو بالحديث مع أزواجهن . والبلابل فوق الجميع تغرد و تفترش الأرض الزهور التى سقطت بفعل النسيم ، بينما الأشجار العجوز تتأملهن فى ابتسامة . تذكرت عندما كانت تذهب اليها أيام الأحاد هى وأمها تجلسان جنباً الى جنب على أحد المقاعد الخشبية . أمها التى رفضت الأناقة الفرنسية المصطنعة والأماكن فائقة الترتيب والمطاعم شديدة الثراء وفنادق الخمس نجوم ، لم تحب سوى تلك الطبيعة فى بساطتها تلك الطبيعة التى لم تكلف فى أرتيادها سوى ملابس بسيطة وحذاء رياضى للتريض ما بين غصون الأشجار . تحب أن تطيل النظر فى تلك اللوحة المعلقة أسفل كل شجرة وكأنها بطاقة هوية لها ،مدون فيها اسمها وتاريخ زراعتها والسلالة المنتمية إليها ،و لا تنسى أن تصطحب معها سلة المخبوازت الفرنسية الشهية ، تتذكر جيداً تلك الأوقات. نعم للذكرى رنين داخلي لا يمكن إيقافه ابداً ، تغتالها وجوه من أحبت فتجلس فى المقعد المواجه لغيابهم تنتحب. تساءلت ماذا بعد أن ترجع مرة أخرى لباريس ماذا سوف تفعل بكل تلك الأيام المقبلة دونهم ومقاعد العمر أصبحت خالية منهم .

جاءت الأحداث سريعة متلاحقة ، مات روميل بعدما علم النازيون أنه كان يعرف بأمر محاولة أغتيال هتلر ، تأكد أن المانيا تنهار وهتلر هو السبب الرئيسي فى هذا الانهيار , لذلك لم يكشف عن المؤامرة ولكنه اعتذر عن المشاركة فيها، و أبدى لهم ترحيبه بأنه سوف يكون على أتم استعداد للمشاركة فى أى عمل يخدم ألمانيا فى حال أن نجحت محاولة الاغتيال . وقد خيره النازيون بين الموت منتحراً أو ينصبوا له محاكمة علنية ، ولكنه أختار أن يضع هو نهاية حياته بالموت بالسم .

تم إعلان أنتهاء الحرب عام 1945 , بعد انهزام هتلر الذى ظل يحارب للنفس الأخير فيه ، لحقت به الهزائم الواحدة بعد الأخرى وبديكتاتوريته المعهودة ، رفض أن يقاد كالنعاج ليقدم للمحاكمة بصفته مجرم حرب وفضل أن يسدل الستار على فصول قصته الملتهبة التى أشعل فيها فتيل نيران الحرب للعالم كله بعدما بسط سجادة من قتيل بعد أخر . فها هو يطلق رصاصة على رأسه من مخبئه ، بعدما علم أن السوفيت قاب قوسين أو أدنى منه ،والغريبة أنه عقد زواجه على عشيقته ايفا بروان قبل انتحارهما بساعات قليلة ، بتناول كلاً منهما كبسولة من عقار السانيد ، الذى يؤدى للوفاة فى غضون لحظات قليلة ، ولكن هتلر لم يكتفى بتلك الموتة فقد اراد لنفسه موتة أشد قسوة تشبهه كثيراً تصبح مثار للأقاويل لعقود طويلة من الزمان فأطلق الرصاص على جبهته، وهناك أقاويل أنه أطلقها من داخل فمه ليتطاير جزء من جمجمته ، و طلب من النازيين المخلصين الذين ظلوا بجانبه لاخر لحظة بحياته أن يحرقوا جسده حتى لا يحصل عليها السوفيت ويمثلوا به كما حدث مع جثة موسلينى ، فقاموا بوضع جثته هو وزوجته ايفا بروان، داخل سجادة رمادية ونقلوها لبقعة بعيدة وأشعلوا بها النيران . مات هذا الرجل إذاً، بعد أن حول صفحات التاريخ للاحمر الدامى ، كما هو لون دماء من قتلوا فى تلك الحرب التى طالت مشارق الأرض ومغاربها .

دخلت القوات السوفتية والبولندية معسكرات النازية التي حاول النازيون بعد علمهم بأنتهاء الحرب طمس معالمها وأخفاء ما بها من دلائل وسجلات و بالرغم من ذلك اخلفوا ورائهم الكثير من الأوراق التى سوف تقودهم للمحاكمة هذا بالأضافة لعدد سجناء اليهود الذين قاموا بالدفع بهم داخل غرف الغاز ولم يمهلهم الوقت لحرق جثثهم للتخلص منها وقد تم العثور عليهم داخل تلك الغرف الخاصة بذلك بالأضافة بأنه كان هناك الكثير من اليهود الذين تم اطلاق سراحهم فور أنتهاء الحرب وأعلان هزيمة الألمان .

جاءها هذا الخبر ليجدد حماسها وأملها ، فكانت المدن ترتب نفسها من جديد وهى ترتب أمتعتها للسفر الطويل على متن طائرة للغياب ستستقلها بتوقيت العاشرة . ستغادر لهناك مثقلة بحمولة لكل تلك الوجوه التي التقت بها ثم تركتها ومضت . ثنتها ديدو عن السفر وطلبت منها أن تنتظر حتى تستعيد فرنسا هيئتها الأنيقة مرة أخرى بعد الخراب الذي عم بها ، لكنها رفضت، كانت هناك فكرة واحدة تحيا على قيدها وهى الأنتقام من تلك السيدة التى رفعت فأسها وبدون رحمة أنقضت به على رأسها هي وتسعون أمرأة فرنسية معظمهن من كبار السن .

طلبت من ديدو أن تلحق بها بعدما ترتب أوضاعها هناك ، أكتفت ديدو بأبتسامة باهتة وأدخرت الإجابة لنفسها. كانت تعلم أنها لا تستطيع الأستغناء عن موعدها فى الأول من كل شهر لزيارة أبنتها، بالرغم من اعترافها لها بأن مرة تلو الأخرى، تسوء حالتها كثيراً حتى إنها فشلت فى التعرف عليها .

سلمها الرئيس فى موعدها الأخير معه ميدالية ذهبية تقديراً لجهودها التى بذلتها معهم لخدمة البشرية ، كما طلب منها التكتم التام عن كل ما حدث. غادرت مصر ذات نهار بارد وهى تحمل معها حقيبتها السوداء و أوراقها التى دونت فيها كل شيء. تخفي قتامة حزنها تحت معطف وقفاز من الأبيض مطرز بفصوص من اللؤلؤ ، غزلتها لها ديدو من خيوط صوفية ، ودعتها ديدو بدموع محتشدة وبحضن عميق وظلت تراقب التاكسي الذى استقلته من خلف النافذة و تلوح بيديها مودعة حتى أختفت عن نظرها تماما .

نقلتها الطائرة فوق السحاب ، تنظر من النافذة تشاهد الغيمات والتى تجمعت كتلال من القطن ، وترى وجوه من أحبتهم من فوق تلك الغيمات ، تنظر لهم مبتسمة وتلوح لهم بكفها الصغير ، مما جعل الراكب المجاور لها يعتقد أن من تشاركه رحلته فتاة بها مَس من الجنون .

ها هي وقد وصلت إلى باريس اخيراً لم يمسها شعور بالفرح أو بالحزن، بعدما أصبحت كل المدن سواء، وبعدما أصبحت مسافرة عن نفسها داخل كل الأوطان التى تنسب هويتها لها .كان الخراب واضحًا على كل شيء ولكن خرابها الداخلي كان أكثر سطوعاً، فيجعل كل تلك المساحات الشاسعة من الخراب غير مرئية . أستقلت سيارة أجرة لتصلها للفيلا التى تسكنها . و فى طريقها لهناك كانت تذهب وتأتي بها كل الاحتمالات .هل مازال مسكنهم على حاله أم نُسِف تماماً ؟ وهل كان مرتعاً لجنود الأحتلال الألمانى كأكثر شقق باريس أم أنه ظل مغلق على اسراره ؟ وشت لها حديقة المسكن فور وصولها بأن المكان مهجور . السائق لم يتوقف عن الحديث عن الحرب والدمار الذى أصاب فرنسا منذ استقلالها للسيارة حتى وضع لها حقيبتها أمام بوابة الفيلا . أزاحت الباب الحديدى فأصدر صوتاً وكأنه يرحب بها ، ألقت نظرة سريعة على الحال السيئة للحديقة ، بينما وهي فى طريقها لمدخل الفيلا كانت تسمع صدًى لأصوات من الماضي البعيد ، مياه النافورة الرخامية التى تتوسط الحديقة وهى تنثر ماءها من فم تمثال على هيئة عروس البحر ، صوت المقص الكبير في يد البستاني وهو يهذب به الأشجار ، تعليمات أمها اليومية للخدم حول اعداد مائدة الغذاء. اصوات متداخلة تسمعها بوضوح .

تسرع فى خطواتها وتصعد الدرجات الخمسة للدرج الرخامي التى تقف بها امام الباب الخشبي تماماً . تكة ثم أثنتان للمفتاح فى الباب وتعود بها عقارب الزمن للوراء لعدة أعوام . عندما اجتاحت قوات النازية المسكن وقاموا بتفتيشه قطعة، قطعة. قدم لهم أبوها الهويات المزيفة التي حصل عليها، ودون فيها أمام خانة الديانة أنهم من الأقباط، حتى أسمائهم بُدلت لتصبح ملائمة لكونهم من الأقباط ولكن تلك الحيلة التي أستعملها أغلب يهود فرنسا وربما العالم ونجحت مع الكثير منهم لم تنجح معهم لسبب بسيط بأن ابوها شخصية يهودية معروفة فى الوسط السياسي الفرنسي، فما كان منهم سوى بأنهم مزقوا تلك البطاقات ثم أصطحبوهم معهم لرحلة طويلة فى القطار الليلي ، رحلة الذهاب فيها بلا عودة . وكذبًا كانوا يجيبون على أسئلة أمها المشوبة بالبكاء ، اخبروها أنهم سوف يُرحلوهم لمدينة جديدة أنشئت لليهود فقط . طلب منهم ابوها أن ياخذوا كل شيء ويتركوهم ولكنه فى الحقيقة كان يجهل أنهم لا يريدون سواهم .

خطوة بعد أخرى فى أنحاء المكان كان الزمن ينقلها لصدى اصوات سيارة مدرعة و رجال ببذلاتهم البنية العسكرية معلقين عليها شارة النازية وبعيون مخيفة لم ترحم توسلات وتضرعات أمها لهم أو تستوقفهم صرخاتها هى وأخيها بأن يتركوهم .

ذهبت بها خطوتها الأخيرة و توقفت بها امام فراشها تماماً . كان كما تركته منذ سنوات طويلة مضت .دميتها الصغيرة متربعة فوقه بهدوء . تلك الدمية التى كانت أهدتها لها جدتها لأبيها في ذكرى عيد ميلادها السابع ومن يومها ولم تفارقها ابداً . تتذكر أن دميتها بشعرها الأشقر وعيونها الزرقاء ورائحة البلاستيك المطاطي المحببة إليها التى صنعت منه هي أول ما حرصت على أن تصطحبه معها أثناء سفرهم لفرنسا .

دميتها التى ظلت على وفاءها لها طيلة كل تلك السنوات .كانت تثرثر لها بأسرارها الخاصة فلم تجد خيراً منها مستمعاً اليها و اميناً عليها. أنها الوحيدة الباقية لها من أفراد أسرتها و من منزل كان يضج يوماً بالصخب والحياة لذلك أنتشلتها بلهفة وضمتها لها وهي تبكي وكأن لسان حالها يقول أنتظري ما سوف أقصه عليكِ من محن ومصائب .

حَشر ابوها فرنكاته الذهبية الكثيرة داخل إسفنج الحشو ، و وضعها كما هي على فراشها ، الذي لا يزال مرتب بيد مربيتها الإيطالية تدخر اجرتها لترجع مرة أخرى لإيطاليا وهناك تؤسس مطعم للبيتزا التى تجيد صنعها .ترك أبوها تلك الدمية ورائهم ظناً منه أنهم سيعودون مجدداً . وأن لم تكن تلك المعجزة التى حدثت لإقاذها فى ذلك اليوم فأي مصير كان لتلك الأموال ؟

صنع أبوها معروفاً لها بتخبئته لهذه الفرنكات الذهبية ، أما عن باقي الأموال التى حصل عليها مقابل بيعه لممتلكاته ومصانعه عندما علم بأنهم قادمون لا محالة وسيجردوهم من كل شيء، فقام بوضعها فى بنوك سويسرا قبل تلك المأساة بعدة أيام و حتى تستطيع الحصول عليها فَستدبر أمرها بتلك الفرنكات المخبأة هنا.

كان المكان كجثة من الذكريات ترقد تحت ركام الغبار. فأخذت فى تنظيف البيت من كل ذرة غبار به ، حتى اصبح كل شيئاً به نظيفًا و يلمع ثم فتحت حقيبتها وأخرجت الأوراق التى خزنتها فى دفتر كبير .

غادرت البيت بعد أسبوعين على وصولها لفرنسا ، لم تكن تبرحه وقتها سوى للذهاب للسوق لشراء ما تحتاجه ، كانت الشوارع والبيوت تحاول أن تمحي الخراب والدمار وتعيد تشكيل نفسها من جديد .وهي ايضًا كانت تحاول أن تفعل ذلك ، ترتدي ملابسها فائقة الأناقة ،تضع عطرها المثير تجمل أذنيها بقرط من اللؤلؤ، ومنذ وصولها لباريس لم ترتدي الشعر المستعار تركت رأسها الحليقة كما هى لم تحاول أن تخفي الحقيقة فى بشاعتها . حتى فى باريس بلد الحريات لم تكن لتسلم من العيون التى تظل معلقة فوق رأسها ،البعض يعتقد أنها موضة جديدة و الأخر يعتقد أنها من هؤلاء غريبي الأطوار ، وبالرغم من أعتقادات الجميع ،لم تشعر بالحرج أمام نظراتهم المعلقة فوق رأسها .

كانت تتابع الأخبار التى تأتي يوماً بعد أخر والتي تُطمئَن العالم بالسلام المقبل على عجل والأنتقام لكل ما يمت للنازية بصلة .حتى كان يوم تتصفح فيه جريدة الصباح وصادفها حديث صحفي مرفق بصورة لمحامٍ فرنسي شهير وأستاذ القانون السابق الذى كان يقوم بالتدريس لها . كان حديث الرجل يُدين الأنتهاكات النازية التي أُرتكبت فى حق العالم و قرر التبرع بالدفاع عن كل من أُصيب جراء تلك الوحشية العنصرية . لذلك وبدون تفكير وجدت نفسها تحمل الأوراق وتذهب اليه . أرتدت للقائه الأول تايير التويد من قطعتين وأحكمت غلق ازار معطفه الذهبية الكبيرة و شدت جوربها من الفوال الأسود على ساقيها وحملت حقيبة اوراقها الكلاسيكية من الجلد الأسود . و قبل أن تغلق الباب ،ألقت نظرة أخيرة على مظهرها فى المراة . أبتسمت ومسحت على النبت الخفيف الذى كسا رأسها . توقفت أمام أحد البنايات الكبيرة لتتأكد من العنوان ،كانت البوابة مغلقة ويتعين عليها أن تضغط على لوحة للمفاتيح برقم الشقة ، وقتها أصدرت الألة المعلقة بجوار الباب فى شقة المحامٍ رنينها . فضغط على زر وسألها :

-من ؟

جاءها صوت أجش ذا بحة متداخلاً مع وشيش الألة:

ـــ أيفلين سركسيان .

ـــ بأى شيء أستطيع مساعدتك؟

وللوهلة أخذتها الحيرة هل كانت تخبره بأنها أحد الفارين من معسكر نازي أَم أنها خريجة حقوق السوربون التي تتلمذت تحت يديه ؟ لأى سبب كانت تزوره وبأى صفة؟ كشاهد عيان وأحد الضحايا أم كمحامية قد خصصت الكثير من الأوراق جمعت فيها الكثير من المعلومات للقصاص من هؤلاء الناس؟

ـــ في حوزتي الكثير من المعلومات عن الجرائم التى كانت قد ترتكب من النازية .

دعاها للصعود ، كان كما هو طويل القامة بعينين زرقاوين يكتسي شعره بالكثير من الشيب و وجهه بالكثير من التجاعيد . دعاها لحجرة مكتبه ، بعدما ألقى نظرة سريعة على مظهرها ولم يتوقف كعادة الناس عند رأسها . تحتل مكتبة كبيرة من خشب الأبنوس الغرفة بعدد

وافر من الكتب والمجلدات بينما على مكتبه تناثرت الكتب بشكل فوضوى وفاحت من المكان مزيج من رائحة تبغ غليونه و الاوراق المصفرة .

أخبرته أنها خريجة حقوق اسوربون وأنه كان استاذها ، طالت الجلسة لعدة ساعات حكت له فيها عن كل شيء منذ خروجها من مصر في المرة الأولى وخروجها منها في المرة الثانية والأحداث المرعبة التى حدثت ما بين المرتين ، كان يسمعها بتركيز واهتمام شديدين وقطع حديثها أكثر من مرة الخادم وهو يقدم القهوة وأكواب الماء ، واخيراً تركت له الأوراق ليطلع عليها وطلب منها معاودة المرور عليه بعد ثلاثة أيام.

فى اللقاء التالي تحولت غرفة المائدة لغرفة اجتماعات لأثني عشر فرد من الناجين والفارين سواء من معسكرات الموت أو ممن تعرضوا للعنف النازى اثناء أحتلال الضباط والجنود البلاد ، كلٌ منهم حكى قصته مع الرعب الذى شاهده ، كانت هي تدون وتسأل كما يحتم عملها الذى كلفها به ، برفيسور "انطوان بالتريك " فقد أصبحت مساعدته فى تلك القضية المهمة و لم تكن تتابع معاناة اليهود فقط بل العالم كله . حتى تلك الدول التي لم تكن واقعة تحت الأحتلال الألماني ولكنها عانت من خرائب النازية . حول المائدة جلسوا كلاً منهم يحكي حكايته .

حكت لها التوءمتان النجيتان من المعكسر كيف كان الطبيب مينجيل غريب الأطوار ، يجمع التوائم ليقوم بتجاربه عليهم ، في حين تحدثت امرأة اخرى بصوت واهن عن أنها تعرضت لاستئصال مبيضها وحقن رحمها بأشعة أكس , وهذا الشيء ذاته تم حدوثه مع زوجها ،اسئصلت خصيتيه وحقن عضوه الذكري بالأشعة ، كانت التجارب تجري دون تعقيم او تحذير والكثيرون من الذين تجرى عليهم التجارب يموتون بعدها بعدة أيام .

بينما حكت شوشان كوهين عن مسيرة الموت وكيف كانت تمشي فى طوابير طويلة من شارع لأخر، وقرية لأخرى كل يوم مسيرة سير خمس وعشرون كيلو متر وسط هطول الأمطار والثلوج حيث ممنوع التوقف وممنوع الخروج عن الصف ، و سألت احد ظباط النازية أثناء مروره إلى اين نحن ذاهبون ؟فأجابها : لا وجهة لنا كل ما نأمله هو موتكم اثناء المسيرة .

أما هيرتا قضت طيلة الأربعة سنوات متنقلة من معكسر لاخر وعند علمها بنجاتها لم تسعد بل كانت تريد أن تموت حيث لم يتبق لها احد من عائلتها أو صديقاتها الكل اتجه بناحية اليسار وكانت تعلم أن ذلك الاتجاه هو الذهاب بلا عودة .

توالت اللقاءات بعد ذلك يوم بعد اخر يزيد عدد الموجدين ، الذين اصبحوا كما لو أنهم بملامح واحدة وقامة متخاذلة تكاد تصلب طولها حتي اوزانهم كانت تتزواح ما بين 28 و32 ، وحكي لها أحد الشهود من مواطنين فرنسا مصاب بعاهة مستديمة بعد انفجار قنبلة على منزله وفقده لعائلته جميعها ،أن نقص العذاء و الجوع أنتشر بفرنسا كلها وعلى أثره لقي الكثير من الفرنسيين حتفهم جوعاً وبرداً .

أصبحت لا تغادر مكتب مسيه" انطوان " تؤدى جميع الأدوار ، من مخبرة لمحققة وشاهدة واخيرا دورها الأهم كمحامية . تبرعت بمنزلها لجمعية مساعدة منكوبي الحرب.التى بدورها حولته لملجأ للذين بلا مأوى.و قامت هي بأستجئار شقة صغيرة لها بالقرب من ساحة الشانزلزيه كما اضمتِ لعضوية أكثر من جمعية حقوقية تنادي بانتهاكات النازية فى العالم كله وليس لليهود فقط ، أصبحت صورتها تعرض فى الجرائد يومياً وهى تعتلي المنصات فى انعقاد المؤتمرات الدولية والشعبية وفى كل الأحوال لم تحاول يوماً أن تخفى صلعة رأسها .كثير من الأطباء

تبرع بعلاجهما على نفقته الخاصة ولكنها رفضت ، تخطو فى الأماكن مشهرة رأسها ومشهرة معها الجرم الذى أرتكب فى حقها ، وخاصة أنهم عند تفتيش معسكرات اليهود وجدوا الكثير من الأجولة ممتلئة بالشعر الأدمي. كانت تبعث لألمانيا لتدخل فى الكثير من الصناعات كألياف صناعية وأحبال الغسيل ... فترى أى حبل جُدلت به خصلاتها!!!؟

لم يكن الأمر بالسهولة التى تعتقدها فكان الأمر يتطلب الكثير من جمع الحقائق واقوال الشهود والأدلة والمستندات واخيراً تشكلت محكمة نومنبرج الدولية لمحاكمة النازيين كما تشكلت المحكمة الدولية العليا لمحاكمة أهم النازيين الذين ارتكبوا جرائمهم فى بولندا ، بالإضافة للأنتهاك الأخلاقي والذهني وتدنيس موتى الحرب خلال الحرب العالمية الثانية .

أفردت اوراقها لقضية الحارسة التى قتلت تسعين امراة يهودية، كما أفردت اوراقًا أخرى لأدانة الأنتهاكات التى كانت تجرى فى البلوك رقم 10 هذا البلوك الذى كان يرأسه الطبيب "مينجيل" المهووس عقليًا ، والذى كان يؤمن بأهمية الجنس الأري فلم يتوان عن فعل أبشع ارتكاباته فى ذلك البلوك المعتم الملحق به مشرحة لقطع أعضاء من لقي مصرعه بغرف الغاز قبل ذهابها للمحرقة، وكانت تلك الأعضاء التى تجري عليها التجارب توضع فى محاليل خاصة بقوارير زجاجية يلصق عليها ختم " مادة حربية " فترسل بالبريد على الفور لألمانيا . أخبرتها إحدى الأمهات بأنه قام بتخيط توائمين كلٌّ منهما فى الأخر كالتوائم السيامية بما فى ذلك العروق والشرايين مما أدى لموتهما بالغرغرينة, و كل ذلك كان تحت اشراف" ردولف هوس" قومندان المعسكر بوحشيته وقساوة قلبه والذى كان اسمه وحده مصار للرعب فى معسكرات الموت لإدراته إياها باقتدار فى الوقت الذى كان يعطف بشكل مبالغ فيه على حيواناته الأليفة!

وفي أحد الأيام دعت أحد جمعيات حقوق الأنسان رجلاً عربياً كان له دور كبير في نجاة حياة الكثير من اليهود وهو " قدور بن غبريت " كان فى السابق حارس للقنصلية الجزائرية وعمل فى خدمة القنصل واسرته وأنتقل معهم عند عودتهم لفرنسا , تعلم الفرنسية وقدمه القنصل للمجتمع الفرنسي كعلم من اعلام المسلمين ، فأنتهز تلك الفرصة واشترى قطعة ارض صغيرة واخذ يتجول في العالم الإسلامى لجمع التبرعات لبناء مسجد عليها، وقد بنى بالفعل اول مسجد كبير يضم الجالية المسلمة فى باريس كما ساعد الكثير من اليهود بأستخراج اوراق رسمية لهم لتثبت أنهم مسلمون و وإيواء البعض الأخر منهم فى المسجد، ولولا ما فعله هذا الرجل فقد كان مات الكثيرون من الأطفال والعجائز والمرضى ، صعد الرجل للمنصة بزيّه العربي الذى يعود الي اصوله الجزائرية ، تُظهِر ملامحُهُ البشاشةَ والتقوى كأي رجل دين ،بدأ الشيخ حديثه بأيات قرأنية ثم أخذ يحكي فى حديث طويل عن مساعدته ليهود فرنسا حتي يتثنى لهم الهرب من الموت المحقق على يد النازيين مستعيناً في ذلك بعدة احاديث وأيات قرأنية اسلامية تقر بأن العقيدة الأسلامية السمحة لم تسمح بمثل تلك الأرتكابات ، وأن مساعدته لليهود كانت واجبًا يحتمه عليه إنسانيته ودينه ، نالت كلمة الشيخ الكثير من الأستحسان من جميع الحضور ، الذين اخذوا فى التصفيق له بقوة وخاصة أثناء تسلمه الميدالية وشهادة التقدير اللتين سلمتهما له بصفتها إيفا بصفتها رئيسة الجمعية.

أعتادت ألا تبرح منزلها الصغير الذى يطل من نافذة جانبية على نهر السين، إلا وحقيبتها السوداء الجلدية الممتلئة بالأوراق والحجج والبراهين وعدد لا بأس به من الجثث التى أوكلت للدفاع عنهم وكأنها وحدها تتحمل مصيرهم .

وسط كل هذا ، كانت تبحث عن تلك السيدة وتتابع أخبار المائة حارسة المانية اللاتى كن يدرن المعسكر ، وعند إعلان هزيمة ألمانيا هرب اكثرهن . بعد فترة من الوقت بعث لها قاضي "محكمة نومبنرج" الدولية عدد من أسماء الحارسات اللواتى تم القاء القبض عليهن مؤخراً و طلب منها أن تأتى لتتعرف على تلك الحارسة بنفسها ، وقتها لم تسعها الفرحة وذهبت لمنزل البروفيسور "انطوان" لتبلغه بالأمر فأخبرها أن عليها السفر فوراً لهناك .

ديدو المسكينة منذ سفر إيفا و أصبحت أكثر حزناً و وحدة، حتي افراد عائلتها الذين كان يمرون عليها احياناً بعد صلاة السبت، أخذوا في السفر من مصر لأرض الميعاد أورشليم الواحد بعد الأخر ، وخاصة بعد أن وافقت الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخري فلسطينية فمنذ ذلك الحين وقد جمع أكثر يهود مصر والعرب واوربا أنفسهم وهُرعوا لهناك ، قرروا أن يجتمعوا فى مكان واحد وما فعله فعله هتلر بهم زادهم اصراراً وتصميماً في البحث عن عن مأوى لهم , واصبح الأن بإمكانهم الحصول على جواز سفر إسرائيلي .كانوا يأتون لوداعها و بعيونهم الكثير من الدموع و تظل تراقبهم من خلف النافذة الخشبية وهم يقطعون الطريق بخطوات مسرعة. كثيراً ما طلبوا منها الذهاب معهم، ولكنها كانت ترفض بشدة ، مؤكدة أنها منذ ولدت لم تعرف لها وطناً غير مصر. حتى وهي تجلس في أحد ايام مايو لعام 1948 تدير مؤشر الراديو الكبير على اذاعة القاهرة الكبرى التى أعلنت أنتهاء حرب 1948 وأعلان قيام دولة اسرائيل لم تفرح أو تشعر بأن عليها حزم أمتعتها للسفر بل أستهجنت قيام دولة على أنقاض دولة أخرى وأعتبرت أن ذلك جريمة لا تغتفر لم يكن هذا هو رأيها وحدها بل رأى هؤلاء النسوة العجائز اللاتي كانت تلتقى بهن عند صلاة السبت فى معبد بوابات السماء .

كانت إيفا تراسالها بين الحين والأخر برسائل مطولة ومفصلة عن كل ما تقوم به منذ ذهابها لفرنسا، وفي ذيل الرسالة الأخيرة لها سألتها هل ستغاردين إلى اسرائيل ؟

إيفا التي كانت تعرفها أكثر مما تعرف نفسه، كانت تعلم أن ديدو لن تغادر مكانها ابداً ، حتي بعد أن تبدل سلوك المصريين مع اليهود منذ تلك الحرب و أتهامهم بأغتصاب فلسطين وطرد أهلها منها .كانت عيون المصريين بها تساؤل واحد:

_ها وقد اغتصبتم ارضاً وأصبح هناك لكم وطن لماذا تشاركونا وطننا ؟

وفي ظهيرة يوم من بداية عام 1952 ، أعلنت الأخبار أن القاهرة تحترق بيد الجماهير الغفيرة التى أضرمت النار بشوراع وسط المدينة بالبنوك ، والمقاهى ، ودور السينما ، والمتاجر الكبيرة الضخمة ، وشركات الطيران ،والملاهي الليلية ، تلك الأماكن التى مجرد المرور امامها يعد بمثابة ترف للمواطن العادى، و جعلته يشعر بالغربة داخل موطنه ، فهي اماكن مخصصة لعليا القوم والاجانب ام المواطن العادى فغير مرحب به فيها ، حتى حلوانى جروبى الشهير لم يسلم من تلك النيران أو ربما كان هو بعينه أكثر الأماكن إثارة لحنقهم فلم يرتده يوماً سوى صفوة القوم والجاليات الأوربية المنتشرة داخل البلاد والجنود الأنجليز، لذلك اشعلوا النار في جروبي بعد أن سمحوا للعاملين فيه بالخروج ، مسكت النيران في كل شيء فيه و وصلت للمخزن واحترق السكر وانتشر في الجو دخان اسود كثيف برائحة السكر المحروق فحمل الجو معه رائحة السكر المحروق .كان كل هذا كافي حتى تعلن الصحف كلها أن القاهرة تحترق .كان ملك مصر فاروق يجلس وقتها على مائدة عامرة هو وضيوفه المدعوون لحضور حفل عيد ميلاد ابنه ولم يكن يعلم ما الذى يجري ؟ وما سبب تلك الدوامات من سحب الدخان الأسود الكثيفة التى يمتلأ بها الجو؟ احترقت في هذا اليوم أكثر من أربعمائة بناية متفرقة واطلق عليه السبت الأسود.

وايضًا لقي فيه أكثر من أثنى عشر شخص أنجليزيًا مصرعهم حرقاً فى نادى تارف وهو نادى بريطاني خاص بالصفوة من الأنجليز ،كما أحترقت شابة يهودية كانت قادمة من الأسكندرية وتقطن بفندق شبرد ،كانت تلك الحرائق بمثابة إنذار للجاليات الأجنبية وخاصة الإنجليزية واليهودية تخبرهم أن وجودهم فى البلد غير مرغوب فيه ، اختبأ اليهود فى مساكنهم ولسان حالهم يردد هل اصبحوا حقاً من الغرباء فى تلك

البلاد التى سكنوها منذ الأزل ؟ ولماذا أصبحت نظرات الجميع لهم ولكأنها تستعجلهم الرحيل؟ احترقت أكثر متاجرهم شعبية وشهرة فى هذا الوقت كمتجر شكوريل كما أحترقت البنوك والمصارف التى يملكها يهود ، بالرغم أن عدد كبير من اليهود المصريين لم يكن يميلون للدولة الصهيونية ولا للرحيل الي اسرائيل بل أقيمت الجمعيات اليهودية المعادية للصهيونية ولكن أخذ الطيب بالجاحد ولم يعد يفرق ما بين الوطني حقا ومدعي الوطنية . بعد عدة أيام أعلن الملك تطبيق الأحكام العرفية ليستطيع السيطرة على البلاد، أشارت أصابع الأتهام إلي مرتكبي الحريق وهو تحالف ما بين جماعة الأخوان المسلمين وبعض ظباط الجيش . وبعد ستة اشهر على تلك الحادثة أقامت مجموعة من الظباط أنقلابًا عسكريًا على فاروق ووضعت سيطرتها على امور البلاد ليترك بعدها فاروق مصر ويتخلى عن قصوره وسياراته وسهراته واصدقائه تخلى عن كل ذلك ولم يبكه أثناء خروجه سوى الرعايا الأجانب والأقلية اليهودية التى كانت تحتمى به.

و فى صباح أحد الأيام أصطفت العربات الملكية ماركة رولزرويس الحمراء فى صفاً طويلاً تسير ببطء وكأنها فى موكب جنائزي بشوراع القاهرة، تنقل الملك و افراد الأسرة المالكة ومقتنياتهم، خرج يومها الكثير من جموع الشعب البعض فى وداعه والبعض للتفشي منه . لوحت له بحزن الجالية اليهودية التى كانت تعتبر الملك فاروق أحد أنصارها وأروقة القصر الملكي لم تكن تخلى من اليهود الذين يعملون فى مختلف الوظائف .

وصلت بها الطائرة صباحاً إلي مطار برلين الدولي، قام باستقبالها فى المطار وفد رسمي من هيئة الدفاع عن ضحايا الحرب ، واتخذت طريقها فوراً للمحكمة ،كانت تنظر من نافذة السيارة لتطالع مدينة خرج من رحمها الرجل الذى أحبته .. شعرت أن تلك المدينة كانت حقًا تشبهه لقد سربت اليه كبرياءها الشامخة وعنفوانها . تمنت لو كانت أول زيارة لها فى تلك المدينة ،لتلتقي به فى مسقط رأسه يذهب ويأتى بها في أرجاء مدينته ، مرتدٍ بساطته تماماً كما نكون فى أوطاننا ، يحدثها عن تاريخ وماضي بلده، يصحبها في رحلة على متن يخت في نهر الراين يدعوها لتناول وجبة المانية شهية ، يحاول يردد على مسامعها بعض الكلمات الألمانية لتحفظها، ولكنه لم يعد هُنا ، لقد حاول أن يتخلص من هتلر حتى تظل تلك البلاد رافعة رأسها دوماً ، ولكن كانت خطط القدر مختلفة، رجل ذهب اليه ليرديه قتيلاً فارتدت هو قتيلاً، ولكن يبقى فرق كبير بين قتيل عظمه التاريخ وأخر وصمه التاريخ ، أخيرًا فتح لها السائق باب العربة السوداء وبخطوات تملؤها الثقة وبحقيبتها اوراقها السوداء كانت تشق طريقها وسط زحام الكثيرين من ضحايا الحرب من الألمان ممن هم ضد النازية ويدينون ارتكابات المانيا فى الحرب ، والكثير من رجال الصحافة و الكثير من ومضات فلاش كاميرات المصورين الفضولية .

ساءت حالة البروفيسور انطوان الصحية ومنعه ذلك من السفر معها لألمانيا ولكن ثقته بها كانت كافية . دخل القاضي وأعلن بدء الجلسة . جلس الجميع وساد الهدوء وأمر بدخول الحارسات ، كن حوالي خمس عشر حارسة بملابس السجن البيضاء ، يدخلن الواحدة تلو الأخرى منكسات الرأس وبعيون منخفضة ترفض المواجهة .

فردت اوراقها امامها وبدأت مرافعتها قائلة "احتار الكثيرون فى فهم النفسية النازية التي سمحت لنفسها بممارسة أبشع الجرائم فى تاريخ الجنس البشرى وهل هم شواذ أم مرضى أم مجانين ، و بخاصة تلك الكتيبة التى تحمل رقم 101 والتى توالت الإجهاز على اليهود بشكل يومي .كان رجال وحدة البوليس الخاصة يستعينون برجال ونساء من سجناء ألمانيا يطلق عليهم اسم الكابو ، وهؤلاء الناس توكل اليهم مهام تهذيب السجناء بضربهم ، وحتى إن أدى الأمر بهم إلى قتلهم ، فلن يسألوا وقتها عن ظروف وفاة أى سجين . لذلك وقفت ذات يوم حارسة ألمانية كانت تشرف على عمل تسعين سيدة من عجائز يهود فرنسا .كن قد أمرن بأداء عمل شاق فى إحد المزراع ولسوء الطقس وقتها وشدة الإرهاق توقف البعض منهن عن العمل والبعض الأخر تخاذل من فرط التعب ، فما كان من تلك السيدة سوى أنها هوت علي رءوسهن بفأس من حديد الواحدة تلو الأخرى ، وكنت أنا من بين هؤلاء النسوة .

علت همهمات الجماهير فى القاعة ، فدق الرئيس بالمطرقة على المنصة ، ويسود الهدوء مرة أخرى , وتستكمل هى مرافعتها :

- أفقدتني الضربة الوعي . فظنوا أني من جملة من تم قتلهن ثم تخلصوا منا بوضع الجثث فى شاحنة كبيرة كانت تحمل روث الماشية، وعند إقرب حفرة للقمامة تم إلقاؤنا فيها . بعد أن عدت لوعيي مرة أخرى، أفقت لأجد نفسي وسط القمامة محاطة بالجثث وروث البهائم .كانت رأسي ينزف بشدة وقتها . وبالكاد استطعت الهرب، وعلى مشارف أحد القرى وجدت نفسي وقد انهارت قواي و فقدت الوعى لأفيق تلك المرة واجد نفسي على فراش نظيفة وبملابس نظيفة , فى أحد بيوت الفلاحين الذى ساعدني دون حتي أن يسألني ما الذى أصابني ولكن كان الوشم (نجمة دواد) وحده كافي ليعلم أنى فارة من معسكر أوشويتز الذى لا يبعد الكثير عنه ...

كم كان يلزمها من الوقت ومن الكلام لترد على السؤال تلو الأخر ؟ وكم كان يلزمها من شجاعة لتخفي باللغة دموعها ؟ اخيرًا أنهت مرافعتها مؤكدة ، أنها اليوم لم تأتِ إلي هنا لتدافع عن حقها ، ولكن عن حق هؤلاء النسوة العجائز اللاتى أخذن فى الصراخ والتوسل لتلك المجرمة وعلى قسوتها لم تستوقفها دموعهن ولا عجزهن ، لم يكن هناك شهود على تلك الواقعة كما اختفي السجل الخاص بأسماء هؤلاء السيدات ولم يكن من أدلة سوى ذلك الندب فى مؤخرة رأسها وتقرير الطبيب بأنه يرجع لضربة قوية بمقبض من حديد .

سألها القاضي :

_هل تتذكرين ملامح تلك ا لمرأة ؟

أجابته:

_ طيلة تلك الأيام ، لم أغف إلا وصاحبتني كوابيس تلك الحادثة وهذه المرأة لم تمحِ ملامحُها ابداً من مخيلتي.

أمرها أن تدخل وتلقي نظرة على هؤلاء النسوة فى القفص الحديدي . أقتربت بخطوات ثابتة وصوت كعبها العالى يطرق خشب الأرضية. توقفت تماماً أمام القفص كانت البعض منهن تخفض نظرهن لأسفل، بينما أُخريات تنظرن بعيون فارغة من كل شيء إلا القسوة . مرت على وجوه خمسة من الحارسات وعند السادسة توقفت ، ثم خطت خطوتين للامام على وقع دقات قلب السجينة , ثم تراجعت خطوتين للخلف وتراجعت معها الذاكرة لتنقلها للحادث ، وجه تلك السيدة وصراخ النساء والدماء وصوت طرقات الفأس الحديدى فوق الرءوس وقفت أمامها مباشرة وأشارت اليها بصوت مرتعش قائلة :

_ أنها هي .

نظرت لها المرأة بعيون جامدة ، فارغة من أي تعبير .كانت هي تمامًا كما طبعت ملامحها في ذاكراتها . بشعر أشقر مائل للأحمر وبشرة بيضاء يكوسها النمش وفم كبير يفتح على أسنان بفراغات واسعة .

أمر القاضي بحضورها، وقفت على منصة صغيرة على الجانب الأخر، سألها:

_ ما اسمك ؟

ردت بدون تردد :.

_ مارى أندرسون.

فتح القاضي أوراقه ليتحقق من الاسم وعندما تأكد منه ، سألها :

_ ما قولك فى التهم المنسوبة إيك ؟

وللمفاجأة أجابت بدون تفكير أو تردد بإيماءة خفيفة من رأسها بما يعنى الإيجاب، ولكنه طلب منها التحدث بنعم أو لا .

فأجابت بصوت قوى لا يدل على ندم او خجل :

ـــ نعم لقد فعلت تلك التهم المنسوبة إلّي، لقد قتلت هؤلاء النسوة في ذلك اليوم ، لتأديبهن على تخاذلهن فى العمل .

علت الهمهمات من الموجودين بينما كانت نظرة إيفا ممتلئة بالفرح وبالانتصار .ثم قال القاضي :

ـــ إذن أنتِ تُعلنين مسئوليتكِ عن قتل هؤلاء النسوة وتقدمين اعترافاً علنيًا أمام محكمة نورمنبرج ، أَم تريدين توكيل محامٍ للدفاع عنكِ ؟

ـــ لا سيدي القاضي، لا اريد محاميًا للدفاع عني ،فأنا مذنبة، وقد قتلت هؤلاء السيدات بكامل قواي العقلية بنية أن أقضي عليهن .

ـــ أتعلمين عقوبة فعلتكِ تلك؟

لم تجيب وناب هو بالأجابة عن سؤاله :

ـــ الأعدام صعقاً بالكهرباء .

لم تتحدث وقتها ولم يصدر منها أى أنفعال بأى شيء لم يتعال صراخها ، لم تبكي, أو تنتحب ، تماماً بذات الهدوء والثقة اللذين قتلت بهما هؤلاء النسوة أستقبلت خبر إعدامها .

غاردت إيفا القاعة وذهبت مباشرة لغرفة فندقها ، دون أن تتوقف لتجيب على أسئلة حشود الإعلاميين و الصحفيين ،الذين حضروا لتغطية أخبار المحاكمة ،فلم تكن تبتغي الشهرة أو الأموال ،فقد القصاص العادل لهؤلاء السيدات. تَصدر الخبر صحف اليوم التالي وأبتسم "بروفيسور انطوان" وهو يقرؤه وتأكد أن ثقته التي وضعها فى تلك المرأة كانت فى محلها . بينما رسمت إيفا ابتسامة حزينة على شفتيها النحيفتين وهي تشاهد نفسها فى الصحف تقف امام المنصة امرأة تمتلئ بالأنوثة فى تايير يرسم خطوط الجسد وحذاء من الأسود اللامع عالي الكعب وقرط من اللؤلؤ و لكن برأس حليقة.

غادرت تلك المدينة بعدما زارت مقبرة فون ودمعت عيناها وهي تقرأ شاهد القبر الرخامي الذى نقش عليه(هنا يرقد جثمان الكولونيل فون ستنافنبرج) نثرت باقة الزهور فوق المقبرة وذهبت .

لم تهمد يوماً أو تستكين ، فتوالت الدعاوى الواحدة بعد الأخرى، وخاصة عند إقامة المحاكمات الدولية التى عُقدت فى جميع أنحاء اوربا، كثيرا ما كانت تُشاهد وهى ذاهبة لهناك بحقيبتها السوداء ورأسها الحليق . أغلقت كل نوافذ حياتها ولم تجعل شعاعًا من ضوء ينفذ إليها. بعدما توفي برفيسور أنطوان، تاركًا لها المكتب لتديره، بالإضافة لمنصبها الجديد أستاذة القانون فى جامعة سوربون .

كانت تخطو من نجاح لأخر وعندما يمسها الحنين للحياة الأسرية الدافئة كانت تتطلع فى صورة تجمعها مع أهلها لقطت في عيد الغفران، عندما تجمعوا جميعهم يتوسطهم أبوها ببذلته من الصوف الأنجليزي و فوق رأسه طربوشه الأحمر رمز الأرستقراطية المصرية في ذلك الوقت، وأمها بفستانها من القطيفة الزرقاء بملامحها السمراء الفاتنة ، بينما عقد أخوها على رقبته البوبيون الأزرق وحرص على أن يفرق شعره من المنتصف ،في حين جمعت هي شعرها فى شرائط من الساتان الأبيض . الابتسامة على شفاه الجميع عدا مربيتها الإيطالية التى كانت نادراً ما تبتسم . لم تكن تلك الأبتسامة مصطنعة كالتي نرسمها على وجوهنا كلما وقفنا امام الكاميرا ولكنها كانت ابتسامة حقيقة نابعة من القلب .

الصورة كانت مثالاً لعائلة يهودية ثرية تعيش فى مصر فى أوائل الأربعينات من القرن ألتقطها لهم قبل مغادرتهم لباريس بشهور قليلة الخواجة "يني " فى استديو تصويره الشهير بحي السكاكيني، تتذكر جيداً كيف أخذ وقتًا طويلًا فى ترتيبهم حتي تظهر الصورة بشكل أنيق واختفي بعدها تحت الستارة السوداء ، وعلا صوته وهو يصيح" 1-2-3- " ثم جاء صوت الفلاش ووميضه القوى ليداعب أعينهم . وبالرغم من أن كل من بالصورة يبدو مبتسماً فإن هناك شيئًا ما تبثه الصورة، كحدث ما او مأساة قادمة فى المستقبل تشي بقدر حزين مقبل على عجل . بين الحين والاخر كانت تسحب الصورة من فوق سطح المدفأة الخشبية وتتأملها وهي مستلقية على الأريكة وتنعس وهى تطوقها . فنادراً ما كانت تقضي ليلتها على فراش حجرة النوم ، كان فراش بارد وحزين للحد أنها لم تستطع أن تبيت فيه يوماً.

توالت القرارت بعد ثورة 1952 التي تعادي الملكية بكل ما تحمله معها من عادات وتقاليد , بدءًا من ألقاب البك والباشا ونهاية بالطربوش رمز التركية، وأقتصر مع الوقت ارتداؤه على عمال بوابات وسفرجية الفنادق الكبرى . وأصبح اليهود ضحايا لتلك الكراهية الصهيونية على المستوي العام من مختلف طوائف الشعب ،وأدى ذلك لاتجاهات وطنية معادية للاستعمار، رأت أنه فى اليهود تكمن منفعة عامة فى تداخل رأس المال الأوربي فى البلاد ، وأنهم الأنصار الكامنون لدولة صهيونية يساندها الغرب الكافر على أرض الوطن العربية . و خاصة بعد أن توالت الخطط الجاسوسية الأسرائلية الواحدة بعد الأخرى ومنها تفجير عدد كبير من السفارات الأجنبية مما جعل وجود اليهود فى مصر به الكثير من الشك والريبة وعدم الترحاب. ثم جاءت الضربة القاضية والحاسمة مع العدوان الثلاثي على مصر بمشاركة كلاً من بريطانيا وفرنسا واسرائيل . وفي ليلة 31 أكتوبر من أول نوفمبر تم أعتقال عدد كبير من اليهود ووضعهم تحت الحراسة وعهد إلى جهة خاصة بالمراقبة الرسمية على أملاك الطوائف اليهودية بالبلاد ، ثم جاء طرد حاملي الجنسيات الفرنسية والبريطانية والأعداد الكبيرة من اليهود الذين توافدوا على البلاد أثناء الحرب العالمية الثانية .و حمل الكثيرون منهم متاعهم لمغادرة البلاد ، الأكثر فقراً ذهبوا لإسرائيل وتفرق ميسورو الحال فى دول اوربا واصبحوا موزعين بين شتي أنحاء العالم . حرص يهود مصر على تسمية أنفسهم "يهود من مصر" وليس "يهود كانوا يعيشون فى مصر" .لذلك اصبح بعدها من المعتاد أن تسمع هذا الرجل فى إنجلترا يتحدث عن سوق الصاغة بالإسكندرية حيث كان يملك متجرًا هناك، بينما على طاولات مقاهي نيويورك بإمكانك أن تسمع صياح رجلاً ما يقول بأنه كسب اكثر من 500 قرش بدلاً من دولار ، وفى لوزان بسويسرا يجلس أحد البكوات يتصفح جريدة الشمس المصرية الخاصة بيهود مصر متذكراً الماضي، فى فرنسا أعلنت مجموعة من السيدات تأسيس رابطة خريجى مدرسة ليسيه مصر ، وكانت إيفا من بين عضواتها ، أمَ في إيطاليا كان يحكي برتو تاجر الميني فاتورة عن اولاده الثلاثة وكيف كان أحدهم وفدًّيا والأخر صهيونيًا والثالث عضواً فى العصبة اليهودية ضد الصهيونية . ذهب اليهود لينتشروا فى كل مكان يحمل المؤمنون منهم مخطوط " اسفار موسى الخمسة " الواردة فى أغلبها من مصر ويتلونها وهم يقومون بالغناء والرقص والتصفيق على كفوف أيديهم لتختلط الأغاني والضحكات بالصلوات وعند نهاية الاحتفال يتولى البعض غناء النشيد الديني مصاحبًا للنشيد الوطني المصري.

كانت إيفا حزينة لما حدث ليهود مصر ، تتساءل ما مصير حارة اليهود اليوم ؟و هل أصبحت خاوية على عروشها هل هجرها الترزي عزرا والإسكافي يعقوبيان وأغلق مخبز عيد الفصح أبوابه ولم تعد تلك الصواني الفضية التي تحمل مخبوزات " ودان هامان ، و سنان هامان والبوريك والفطير"يحملها الخدم فوق روؤسهم و من شارع لأخر وحي لأخر يطفون بها لتوزيعها فى يوم الهدايا ؟ هل أغلقت المعابد ولم تعد تعج بأصوات المصلين في ايام السبت والأعياد ؟ هل لم يعد يرى أى يهودي يتسكع فى الأسواق عشية عيد الغفران لشراء الخضار والفاكهة ويساعده فى ذلك التاجر المسلم الذي يعلم تمامًا ما يتناوله اليهود فى عشية يوم رأس السنة الخاص بهم فيقدم له اللوبيا والرمان والسلق والبلح الطازج .

بمرور الوقت حصلت إيفا على الكثير من الأوسمة وشهادات تقدير لتفانيها فى خدمة المضررين من الحرب. كم من أسرة قد فقدت عائلها وموارد رزقها ؟ وكم من اسرة قد انهدم العقار الذى يؤويها ؟ ترأست عددًا من الجمعيات الخيرية لمساعدة منكوبي الحرب و وفرت لهؤلاء الملجأ والمال .كانت تواسي نفسها بمساعدتهم وكأنها تعوض بعطائها لهم ما تفتقده من الأمان و السعادة ولكن تلك الجراح المستقرة في الأعماق كانت من الصعب أن تندمل يوماً ، حتي جاء ذلك اليوم الذى بدل كثيراً من قناعاتها الخاصة .كانت يومها فى طريق عودتها من مكتبها للمنزل فكرت أن تجلس على مقهي صغير بتقاطع شارع سان ميشيل وديز إيكول، تتناول مشروبها المفضل من القهوة بالحليب . حضرت إليها شابة صغيرة من السهل التكهن بأنها عربية من النظرة الأولى التى تنظر فيها بوجهها .كانت سمراء ، تطلق شعرها الأسود بخصلاته الممتموجة ليتطاير مع نسمات الهواء بخطوات واثقة أقتربت منها قائلة :

ـــ هل انتِ مدموزايل إيفلين سركسيان ؟

أبتسمت ا قائلة :

ـــ نعم أنا .

وبنبرة بها الكثير من التحدى :

ـــ أهنئُكِ على النجاح الذى حققتهِ فى قضيتكِ للأنتهاكات النازية ضد اليهود .

ـــ أشكرك .

ـــ ولكن ماذا عن الانتهاكات التى ترتكبها إسرائيل ضد الفلسطنيين ، ألم تسمعي بها ؟

كانت إيفا تبحث عن كلمات لتجيبها بها ولكنها سبقتها قائلة :

ـــ أليسُت أنتِ نصيرة المظلومين ومن تنادي ضد الظلم والطغيان ؟ لماذا إذن لم تنددي بتلك الارتكابات الوحشية التى تقوم بها إسرائيل ضد عرب فلسطين، أو ليست تلك بمثابة هولوكست جديد!؟ أذهبي إلي هناك وأنصتي إلى هؤلاء المساكين الذين تركوا ديارهم ظلماً تحت تهديد البنادق والمدافع من قري يافا والناصرة والمجيدل والكويكات، تلك المدن التى نزح عنها اهلها قسرًا .كم سيدة كانت حاملًا وأنجبت فى العراء؟ كم شخصًا منهم مات فى الطريق ودُفِن حتى دون أن يتمكنوا من الصلاة عليه؟ و أكتفى أهله بألقاءه في أحد الحفر كما هو بحذائه وثيابه وحتى بالغطاء الذى على رأسه وردموا فوقه التراب وابتعدوا مسرعين خوفاً من اليهود القادمين باتجاههم ،وبالرغم من ذلك كانوا فرحين به فيكفيه أنه عاش ومات ودفن فى فلسطين ، أمَّا هم فلم يعلموا بعد فى أى أرض سيموتون ! أناس كرام لهم بيوت وأملاك وأعمال تركوا كل ذلك ورائهم وهاموا فى الأرض على وجوههم ينتظروا الغذاء والكساء وخيام الايواء كالشحاذين .

ثم وضعت يدها فى حقيبتها وأخرجت جريدة كان فى صفحتها الأولي خبر يقول: الأسرائليون يدخلون قرية حيفا بعد أن تركها أهلها وهربوا خوفاً من بطشهم، والأغرب أنهم وجدوا الشاى والقهوة ساخنة و لاتزال مصبوبة فى الأكواب وصورة كبيرة بمصاحبة الخبر لهذا المشهد .

ـ لقد تركوا كل شيء وراءهم وذهبوا عدا مفاتيح الدار التى حرصت كل أم على تعليقها فى حبل حول رقبتها على أمل الرجوع مجدداً . قرى بأكملها قد هدمت تمامًا ، ولم يكفهم ذلك حتي أسماء القرى والبلاد بدولها ، ساحة الحناطير بحيفا أسموها باريس، ومرج ابن عامر ابدلوه لسهل يزراعيل وعين جالوت لعين حارود!

ثم وهى لازالت فى قمة انفعالها أخرجت ملفًا من الأوراق قدمته لها قائلة :

ـليس اليهود وحدهم هم من ذهبوا للمحارق، أنظري فى تلك الأوراق لتعرفين، أنها توثق ما ارتكبه الأسرائليون فى قرية الطيرة وهي تقع على بعد سبعة من الكيلومترات جنوب حيفا, لقد دخلها الأسرائليون،و قَتلوا من أهلها من قتلوا وأعتقلوا من أعتقلوا ،ولم يتبق بها سوى العجائز والمرضى والأطفال الذين اصطحبوهم في أتوبيسات خاصة تحت حراسة يهودية حتي وصلوا لمنطقة شرق اللجون، وهناك أخلوا الأتوبيسات منهم ، وأمروهم أن يلتفوا فى شكل دائرة فى حقل قمح محصود ، وتركوهم هكذا حتى أشتد العطش بهم فطلبوا المياه فأمروهم بالأنتظار، وبعد قليل عادوا بجالونات من البنزين، فى البداية هلل الأهالي، ظنًا منهم أن ما في الجالونات ماء , و لكنه كان البنزين الذي صبوه على الأبرياء الجالسين على صررهم فوق الحصاد الجاف ، وبقسوة ما بعدها قسوة أشعلوا فيهم النيران ، أخذت النيران تأكلهم والمساكين على ضعفهم وعجزهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ، تلك القصة رواها احد الضحايا الذى استطاع أن ينجو و يهرب من الحريق والأن ما رأيك، أوليس النازيون أرحم منكم ؟ على الأقل كانوا لا يتخلصوا منكم بالحرق وأنتم لا تزالون أحياء ولكن بعد أن يقتلوكم اولًا بغرف الغاز.

لم تتوقف لحظة لأتقاط أنفاسها وبنفس الحماسة التى بدأت بها الحديث واصلت قائلة :

ـ أولستِ أنتِ من تقول أنها تدافع عن الأنسانية بأجمعها وليس عن اليهود فقط ، إذن عليكِ الذهاب إلي فلسطين أو الأردن أو بيروت حيث مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وهناك تتكوم الأجساد بعضها فوق البعض بينما تهطل الأمطار من بين شقوق صفيح المخيم فوق رءوسهم .

نطقت ايفا اخيراً لتوضح رؤية الكثير يجهلها :

ـ ارجوكِ لا تخلطي ما بين اليهودية كديانة والصهيونية كحركة سياسية ، أنا يهودية من مصر ولا أعرف ماذا تعني إسرائيل ولا الصهيونية وإلى ماذا يطمح هؤلاء الناس ؟ وإن كان كما يزعمون إن في التوراة فلسطين هى ارض الميعاد فهذا ليس معناه يغتصبون دولة أخرى .مؤكد أنا غير راضية عن تلك الأفعال و فى العالم كله جماعات يهودية تعادي الصهيونية وضد تلك الارتكابات الوحشية .

ـ ولكن دورك كمسئولة عن حقوق الإنسانية ضد الظلم والعدوان يُحتم عليكِ أن تساعدي هؤلاء الناس هذا أن كنتِ حيادية حقًا كما تزعمين .

واخيرا وهي تسعد للذهاب وبنبرة اخفت وقعًا :

ـ ولا تنسي أن من ذهب لتعمير دولة إسرائيل الجديدة هم يهود العالم والنسبة الأكبر منهم من تعرضوا لمخاطر وتهديد النازية إذن فكأنهم يعاقبون الأخرين، بما عاقبوا هم به بل وأشد قسوة ، أى حقارة تلك !

ثم تركتها وذهبت بخطى واسعة و لكن صوتها ظل يرن فى أذنها وهى تؤكد قائلة :

_ أى حقارة تلك ..!!!؟

لم تنتظر حتى النادل ليحضر يأخذ حساب ما تناولته , وضعت اسفل طبق الفنجان ثمن القهوة بالحليب وقامت مسرعة بعدما أخذت الملف الذى تركته الفتاة لها ، لم يكن هنالك وجهة لخطاها .. فقط كانت تسير على وقع كلمات تلك الفتاة التي وكأنها شريط تسجيل يعاد تلقائياً من نفسه على مسامعها !

كان الجو ربيعيًّا بنسمات باردة ، خرجت من شارع سان ميشيل، متجهة لشارع اميل زولا ثم وصلت لشارع سان ديجول الواسع العريض مرت امام قوس النصر ثم عرجت بعد ذلك لساحة الشانزلزيه .كثيراً ما كانت تحب السير فيه، تتأمل فى مبانيه القديمة ومقاهيه واشجاره العجوز التى تظلل طرقاته ، أخذت تسير وتسير بمحاذاتها الأسئلة:

_ لماذا يفعل اليهود ذلك فى الفلسطينين العُزل الأبرياء وهم أنفسهم من شربوا َمن تلك الكأس مسبقاً ؟ ولماذا يؤخذ اليهود جميعهم بمثل تلك الفعلة الشنعاء و منهم الكثيرون غير راضين عن هذه السياسة القذرة ؟ ولماذا لم تستوقفها تلك الجرائم مسبقًا وهي التى تنادي دومًا بالعدوان ضد الاسانية ؟ هل كان تنتظر تلك الفتاة لتنبهها أن هناك هولوكست جديد ضد الفلسطينيين ؟ وإن كان هناك تسعون من عجائز يهود فرنسا قد لقين حتفهن غدرًا فهناك مثلهن الاف من عجائز الفلسطينيات ؟

أخذتها افكارها ركضًا حتي وجدت نفسها فجأة فى شارع ريفولي ومنه لشارع سان مارتا ثم منطقة بيجال لتقف امام المولان روج، أخذت تتأمل فى مجسم الطاحونة الحمراء الذى صمم كشعار فوق المبني ، واستغربت أنها منذ قدومها لباريس لم ترتاد أيًّا من الحانات الليلية الشهيرة كالمولان روج , والفولي بيرجير وغيرهم الكثير حتى الأوبرا والمسارح و.. و...

حتى أنها منذ قدومها مجدداً لهنا لم تمر على غابة بولينا مكانها المفضل ، لقد سجنت نفسها فى القضايا والمرافعات حتى ينال المظلوم حقه ولكن لماذا غضت البصر عن ما يفعله قومها فى الفلسطينيين ؟

رجعت أدراجها بعدما تأكدت أنها قاربت على الساعتين وهى تتجول, عرجت على محل البقالة وأشترت احتياجتها اجبان وحليب وخبز الباجيت . وقفت أمام بوابة البناية الخشبية المغلقة حاولت أن تضغط الكود على لوحة المفاتيح حتى يُفتح الباب ، ولكن الكيس الورق فتح و بعثرت محتوياته ارضاً . ثم حضر هو لتُهب على أثر قدومه رياح باردة ويتدفق ضوءه المباغت فى أنحاء المكان . و ساعدها هذا الجنتلمان فى جمع الأشياء و حمل الأكياس عنها ، بينما بيد مرتعشة ضغظت الأرقام ليفتح الباب، شكرته وعندما كانت ستهم بغلق الباب أستوقفهاقائلا :

ـــ هل التقينا مسبقاً ؟

لم يكن فى حسابنها أن رأسها الحليقة ربما تجعل رجلاً ما يوماً يعجب بها ، رجلاً على قدر كبير من الوسامة والأناقة . ولكن هل تراه أعجب بها حقًّا أم فضولًا حول أن تظهر سيدة تقطن باريس برأس حليق ؟ ترك لها بطاقته الورقية مدونًا بها أسمه وعدد من ارقام التيلفونات . ظلت عيناها معلقتين بوسامته حتي الطرف الأخير منه . أطالت النظر لنفسها فى مراة المصعد وهي التي منذ الزمن لم تهتم بأن تنتظر لنفسها في مراة.

بصعوبة أدارت المفتاح فى كالون الباب لثقل أحمالها . حضر قطها مسرعاً يرحب ويتمسح بها. تركت الأكياس فوق منضدة المطبخ الرخامية وخلعت حذاءها بإهمال فى منتصف الصالة، فتحت صنبور المياه الساخنة وتركت المغطس يمتلئ بينما كانت تتصفح رزمة الخطابات التي وجدتها فى صندوق البريد الخاص بشقتها فى بهو البناية . اعادت أن تستلم عددًا لا بأس منه من الخطابات، من المنظمات والمؤسسات ولكن اليوم حُشرت ما بين الرسائل، رسالة من ديدو تلك التى تأتيها بروائح البلد التي تحبها كثيراً بدفء شمسها ومذاق نيلها، لذلك وجدت نفسها تفض الرسالة بلهفة لتقرأ ما قصَّته عليها .

أخبرتها عن اشتياقها للأحاديث التى كانت تجمعها معًا وحنينها لمائدة الطعام التى كانت تعدها وتنتظر في تمام الثالثة والنصف من عصر كل يوم لتناول الغذاء معها . كما أكدت لها أن اليهود فى مصر اصبحوا عددًا قليلًا جدًّا، ومن بقي منهم فهو اليهودي المصري الأصيل مثلها تماماً ، فضل البقاء حتى يدفن تحت ثرى تلك البلاد رافضًا أى إغراءات صهيونية ليترك بلده لإسرائيل .

أعادت الرسالة للظرف مرة أخرى وهى تحدث نفسها قائلة :

ـــ من حق الكراهية أن تملأ قلوب المصريون تجاه اليهود تماماً، كما ملئت الكراهية قلوب يهود العالم تجاه كل ما هو المانى ، حتى وأن كان لا يمُت للنازية بصلة . هي نفسها أليست فى بداية معرفتها بفون ، كانت تشعر بامتعاض تجاهه ،حتى أفصح لها بمدى كراهيته لهتلر وللنازية وبكل المصائب التى تحدث بسببها.

أصبحت فى حيرة من أمرها قرابة النصف ساعة وهي تجلس على مكتبها أمامها عدد لا بأس منه من القضايا ،وللمرة الأولى فقدت حماسها للدفاع عن الحق ،فأي حقوق تلك هي التى تحاول إعادتها لأصحابها , وهم الذين يغتصبون حقوق الغير ؟! أليسوا هم من جمعوا متاعهم لينصبوه هناك فوق متاع أناس أخرين، ليس من أمرهم شيئاً غير الضعف والخيبة ، ترك كلاً منهما شجرة زيتونة عجوز فى حديقة منزله وفر هارباً وكلما مضى كانت تحيط به روائح الزعتر البرى تستحلفه للمكوث .

أزاحت كل الأوراق التى أمامها وجلست تكتب لديدو وهى تبكي، ثم حكت لها عن لقائها بتلك الفتاة وفى نهاية الرسالة :" طلبت مني تلك الفتاة أن اذهب إلي هناك إن كنت كما يطلقون عليّ فى الجرائد والمجلات نصيرة المظلومين لأرى بعيني واقع الظلم عليهم . ويجب أن ادافع عنهم تماماً كما فعلت ضد النازية، خالة ديدو بحق الرب .. أنصحيني ماذا أفعل ؟"

تركت الرسالة جانباً لتاخذها فى طريقها غدًا لتضعها فى صندوق البريد ، ليصطدم نظرها بالبطاقة الشخصية التى وضعها هذا الرجل في يديها منذ ما يقارب الأسبوع ، لقطته سريعاً و قبل أن تدير رقمه جلست لتخطط ما الذي سوف تقوله :

_ بونسوار أنا تلك المرأة التى قابلتها وجمعت لها حاجياتها المبعثرة .

_ بنسوار أنا التى وضعت فى يديها أرقام هاتفك ومضيت .

_ بنسوار أنا تلك البلهاء التى أوقعت مشترواتها فى ذلك اليوم .

كل مرة كانت ترتب الجملة وتعيدها على نفسها بصوت جميل وكأنها فى إحد البروفات لتقديم دورها فى مسرحية ، وبالرغم من كل شيء عندما جاءها صوته عميقًا وهادئًا ، تلعثمت وهى تخبره أنه التقي بها منذ أسبوع مضى على ناصية شارع 15، عندما كان الطقس شديد الرياح وكانت تحمل الكثير من المشتروات و .....

قطع تلعثمها قائلاً :

_ أنتظرتك طويلاً !

وبتلك العبارة اختزل المسافة فيما بينهما . اتفقا على لقاء قريب فى أحد المقاهي بساحة الشانزليزيه .بعدما أنهت المكالمة معه ذهبت إلى المراة تطالع قوامها فيها ، أحكمت شد ردائها حول خصرها ليبرز تفاصيله وأخذت تلتف يمنة ويسرة لتتأكد بأنها ماتزال تملك قوامًا شهيًّا جميلًا .

فى اليوم التالي من المكالمة كانت تتجول داخل أروقة متجر شانيل وهي تفكر أى ثوب يمكنها أن تختار للقائه.لقد سئمت مظهرها فى تلك الملابس الكلاسيكية من قطعتين وبأزرارها الكبيرة ،كانت تريد أن تبدل مظهرها لاخر أكثر انوثة و أكثر جمالاً ، لذلك وقع أختيارها على ثوب من الجيرسيه الأسود صمم بشكل بسيط وأنيق فى ذات الوقت .أتجهت بعد ذلك لقسم الشنط والأحذية وأختارت برتقيه وحذاء عالي الكعب وكأنها لم يصمما إلا لأرتدائها مع هذا الفستان , ثم اخيرا كانت في قسم التجميل تقف امام البائعة التي على دراية كبيرة ما يلائم لون بشرتها من ادوات التجميل ، أبتسمت وهى تخبرها أن كل علاقتها بمثل تلك الأمور لا تتعدى معرفتها بالكحل الشرقي الذى أعتادت أن تكحل به عيناها كما هن نساء الشرق فهي شرقية ومهما حملت من هوية لن تؤمن يوماً إلا بأنتمائها لمصر . أنهت جولتها الشرائية فى متجر شانيل متعدد الأدوار بقارورة كريستالية من عطر شانيل رقم 5 .

وفي الموعد جاءها يسبقه عطره بعدما ارتدى للقائها أناقته ، هي التى لم ينبض قلبها منذ الزمن حتى أنها أعتقدت أنه مات ودفن بدفن الرجل الوحيد الذى نبض له ، لماذا تسمعه الأن ينبض بقوة بين ضلوعها؟ لماذا هي مرتبكة متلعثمة وهي التى تقف أمام أعتى القضاة تنضال بعلو الصوت ضد الظلم؟ ولماذا للمرة الأولى تمنت لو أن ينبت شعرها مجدداً ؟

وكأي جنتلمان أنحني ليطبع على يديها قبلة بينما بنظره كان يعانق كل جزء فيها مردداً :

ـــ ما كل هذه الأناقة والجمال ؟

طالت جلستهما معاً كان مفتاح للبوح ادراه فى قفل صمتها الذى اعتادته، لذلك حكت له بالتفاصيل من هي وكيف قدمت إلى هنا وحنينها لبلدها وأهلها فى مصر فرت دمعة على خدها وهى تخبره بصوت خفيض وكأنها تتحدث به لنفسها :

ـــ أنها تعيش فى شتات روحى، تبحث عن جزء منها هنا وجزء اخر تركته هناك ، هؤلاء اليهود الذين عاشوا حياتهم فى مصر وأثروا وتأثروا فيها كيف لهم أن ينسوا تاريخهم الطويل؟ كيف لهم أن ينسوا أو يتناسوا أن فى هذه البلد لهم هناك بيت ومعبد ومدفن ؟

ثم اردفت :

ـــ تماماً مثلما ما يتعرض له الفلسطنيون على يد إسرائيل أنه هولوكست أخر. لقد أحترت كيف أن البشرية تحلم بعالم يسوده السلام وهي نفسها تبتكر فنون الحروب والقتال .

كان يجلس امامها مأخوذاً بتلك الأنثي الممتلئة بالحماسة والرفض . إنها نوع اخر مختلف عن هؤلاء النسوة اللاتى تعرف بهن و ليس هناك ما يشغل عقولهن سوى أحدث خطوط الموضة والسفر و ثرثرة المجتمع ، لا يصدق حتي أن الأنثي التى يقاسمها طاولة في أول لقاء تقص له أمر الموت والقتل لذلك أحترم أفكارها وقضيتها .

نظرت فى ساعتها صائحة :

ـــ يا الله لقد مر أكثر من الساعتين ونحن نجلس هنا .

بملامح سادها الأستغراب :

ـ وما في ذلك ؟

ـ ولكن ليس من عادتي أن أجلس على مقعد كل ذلك الوقت ، بل والأدهي أني لم أتوقف عن الثرثرة . هيا بنا نتريض قليلاً فالجو جميل .

قام بدفع الحساب وسارا بمحاذاة كلاً منهما للاخر سألته:

ـ حدثني عنك ؟ أنا لا اعرف عنك شيئاً !

ـ أعمل طيارًا على الخطوط الفرنسية وأعيش بمفردي في حي سان جيرمان . وأنا لا أميل للعلاقات الأجتماعية لذلك لا أملك الكثير من المعارف أو الأصدقاء ، أقضى أغلب أوقات حياتي فى الجو أو ما بين مطار وأخر ومدينة وأخرى .

ـ يالها من حياة متجددة .

ـ نعم أنها كذلك .

ـ ولكن هل تعتقد أن هناك ما يجمع بين رجل طيران يعيش فاردًا جناحيه محلقًا ، وامرأة كل همها النضال ضد الظلم والعبودية تعيش بين صفحات الكتب الضخمة التى تشرع القوانين والدساستير ،رجل لا قانون يحكمه سوى النشرات الجوية وامرأة مهنتها القانون ؟

ابتسم لحديثها فأخذتها أبتسامته لهناك فى تلك الليلة فى البوريفاج منذ سنوات مضت فى مدينة الأسكندرية ، عندما كان أجمل ما يملكه هذا الرجل وقتها هى أبتسامته . بينما هو أجابها عن سؤالها الذى لا أجابة عليها إلا بذلك العناق القوي التى داهمها به . عناق لا شاهد عليه سوى بعضاً من المارة و نهر السين وبرج ايفل وسماء كانت تمطر رذاذًا خفيفًا ذلك المطر الربيعي الخفيف الذى ينذر بمتعة ما فى طريقها اليك . غادرا على وعد بلقاء ولكن متي واين ؟ تركا تلك المهمة للقدر، أوليس هو الذى يقود دفة حياتنا صوب ما يريد ؟ فلما الترتيب إذن هو وحده القادر أن يرتب مفكرة أيامنا مثلما شاء . و لم تكن فى مفكرة حياتها يوماً أن تلتقيه فقد وضعه لها فى طريقها على باب منزلها ذات يوم كصندوق للهدايا ملفوف بورق مزركش قد فجأك به صديق وتركه لك على عتبة منزلك لتتعثر به فرحاً اثناء دخولك لمسكنك، إنه كذلك تماماً هدية من القدر لها .

مرت الأيام ببطء شديد امتنعت عن الذهاب لمكتبها فقد كانت تحتاج لإجازة فمنذ متي لم تحصل عليها ؟ أبلغت السكرتيرة أنها لن تحضر للمكتب لعدة أيام . كان كل تفكيرها يحثها على الخوض فى تلك الارتكابات ضد الفلسطنيين، شغلت بالها تلك القضية ، جمعت أكبر قدر من الجرائد والكتب والمعلومات التي تخصها حتي تعرف أكتر عنها . كان هناك شيء ما يدفعها لذلك واخر يثنيها عنه واصبحت لا تستطع أن تتخذ قرارًا مناسبًا . ففكرت أن تسافر للجنوب الفرنسي لبعض الوقت خصوصاً أن الطقس ربيعي جميل وفي مثل ذلك الوقت تصبح المدن الجنوبية مثل كان ، نيس ، سان رافييل ، انتيب ، غاية فى الروعة ..

طلبت من سكرتيرتها أن تقوم بحجز تذكرة للطيران وللفندق و أكدت عليها أن يكون (الجراند اوتيل) فقد أقامت فيه اثناء رحلتها للريفيرا مع عائلتها عندما توجت ملكة جمال الشاطيء، هذه الرحلة التى لم تغادر ذاكرتها بعد ، وضعت فى حقيبتها ملابس ربيعية خفيفة بألوان مزهرة وقبعة خوصية كبيرة وحذاء خفيف للمشي، اخيرا تخلت عن صلابة الأناقة من أجل بساطة البحر .

لم تنسى قبل أن تغادر أن تطلب رقم " أدريان "ولكنه كان دومًا لا يجيب، تذكرت عندما أخبرها أنه يقضي وقته ما بين مطار وأخر ومدينة وأخرى، فكيف إذن بإمكانها أن تمسك به حتي لو عبر هاتف .

بعدما هبطت بها الطائرة ، أستقلت السيارة من المطار للفندق وسريعًا شرعت النافذة الجانبية لتستمتع برائحة المدينة.

أخرجت رأسها من النافذة وأغمضت عينيها وملأت أنفها برائحة الجو وكأنها تريد أن تمتلأ به . وصلت للفندق القديم الذي كان كما هو منذ اخر زيارة لها به ، وربما منذ مئات السنوات عندما بني على الطراز الروماني، بنوافذه العالية وثرياته الضخمة كل شيء به يدعو للثراء والفخامة . أوصلها العامل إلى غرفتها وأجزلت له العطايا وأغلقت الباب خلفه لترمي بنفسها على الفراش وتستعيد ذكرى مر عليها أكثر من خمسة عشر سنة . خمسة عشر سنة أنقلبت فيها حياتها راسًا على عقب ، وجوه أختفت من الحياة وقرى ومدن هدمت تماماً من على خارطة العالم ، دمار شمل العالم كله، موت جماعي قنابل صوتها يدوى ، دماء تنسكب على الجليد و تتكسد جثث الجنود الواحدة فوق الأخرى .خمسة عشر عاماً تبدل فيهم الكثير مثلما تبدلت هي فيهم، لم تعد هذه الفتاة الخجولة التى قُدمت من الشرق لفرنسا على متن سفينة للحزن ، الفتاة التي كانت يوماً بسنواتها السادسة عشر تذهب وتجئ شاهرة أنوثتها باستيحاء على شاطئ الريفيرا ، بمايوه من الجيرسيه المطاطي الأسود تصميم مدام شانيل بنفسها .

عندما أقترب منها رجل عرفها بنفسه بأنه منظم لمسابقة ملكة جمال الشاطيء، يتجول فى أنحاء المكان ليقع اختياره على اكثر من فتاة ويقدمهن للجمهور الذى بدوره يرشح الفتاة الأجمل من بين المتسابقات ،تتذكر أنها لم تتحمس للفكرة يومها لا هي ولا أمها وحده أبوها الذى أصر على أن تخوض المسابقة، حتي كانت الثامنة مساء عندما كانت تقف على المسرح الذى أقيم على الشاطيء بملابس البحر كما طلب منها منظمي المسابقة وسط أكثر من 20 فتاة بملامح أوربية جميلة ، وحدها كانت تحمل عبق الشرق فى ملامحها وفى أستدراة جسدها وفى شعرها المنسدل كشلال على ظهرها، كانت تحمل رقم 10 الذى جمع أكبر نسبة اصوات ، وفجاءة ومضت فلاشات الكاميرات فى عينيها و التفت اطواق الورود حول عنقها ، وخلعت ملكة جمال شاطيء الريفيرا للعام الماضي التاج المرصع باللؤلؤ والقواقع البحرية من فوق رأسها وتوجتها به ، وتفرقع فى الهواء الألعاب النارية و تلون السماء المعتمة، وتمتلىء هى بالورود و الأوراق المزركشة للزينة التي أنسكبت عليها من الجمهور، وأزدحمت بالمهنئين وبالشباب الذين تراصوا يطلبون مراقصتها. اليوم وبعد مرور كل تلك السنوات كل شيء تبدل واختلف . كانت تقف مسبقاً بملابس البحر وسط فلاشات

الكاميرات والجمهور لتتوج كملكة جمال الشاطيء ، اليوم هى الكاميرات نفسها وهو الجمهور نفسه ولكن شتان ما بينها وبين الأخرى . اليوم تقف فى كامل وقارها وحشمتها امام منصة القضاء و برأس أصبحت حليقة وبروح معتمة لتنادى بالحق .

بعد أن تناولت الغداء فى مطعم الفندق ذهبت فى جولة على الأقدام في حذاء الريفيرا "كوت دازير" حيث الشاطيء يمتد على شكل حدوة حصان و الأضواء تنير الأشجار الممتدة على طول الساحل ، أشجار بقامات عالية من النخيل والمارون والكستناء ، وتزدحم المياه بالقوارب واليخوت وعلى الجانب الأخر تتلألأ الفنادق المطلة على البحر جراند اوتيل ، نيجركسو ، كارلتون ، تلك الفنادق القديمة التى بنت على طراز النيو باروك ، حيث المداخل والشرفات تزينها المنحوتات والأعمدة الرخامية ، أقتربت للشاطيء وخلعت حذاءها الذى كان خفيفًا كأحذية راقصات الباليه ووضعت قدميها فى الماء، وأكملت جولتها على الرمال بطول الشاطئ كان البحر واسع كبير مزدحم بالأسرار والحكايا .

بعد تلك الجولة وصلت للفندق اكثر استرخاءً، فوجدت نفسها تنعس للمرة الأولي بمجرد وضع رأسها على الوسادة على وقع صوت الموج و وتتزاحم الرؤى فى عقلها الباطن ، برجال كانت قد التقتهم يومًا ، رجال يأتون ويرحلون مسرعين ، يقتحمون حياتها بكل هذا العنف، ويغادرون بكل هذا الأسى .

استيقظت مشرقة تناولت إفطارها فى الشرفة وبدلت ثيابها مسرعة ، ارتدت ثوبًا زهريًا ليتماشى مع لون البحر ووضعت قبعتها الخوصية الكبيرة واختفت وراء نظارة شمسية بيضاء.

ركضت على (جان ماديسا) تتريض وسط تلك المحلات الصغيرة التى تعرض التحف والأنتيكات فى شوارع غاية فى الضيق متعرجة ومرتفعة وصلت لنهاية الطريق لشارع (فكتور هوجو) المزدحم بمحلات المقاهي والباتسيري التى تخبز الحلوى الفرنسية والخبز الشهي
وجدت نفسها تزيح البوابة الزجاجية لأحد المحلات وتقف أمام السلال التي مُليئت بالمخبوزات الطازجة الشهية تختار من بينها .
واخذ العامل بمريوله ناصع البياض وبقبعة الشيف العالية فوق رأسه يعبئ لها فى كيس ورقي من الورق . بعدما أنتهت عرجت

المكتبة كانت للتو تفتح ابوابها . أشترت بعضًا من الكتب وعدد من الجرائد ، وخرجت وهى مثقلة بالمشتريات فكرت أن تذهب لأول مقهي تصادفها فى طريقها، لتحتسي قهوتها وهي تقضم الحلوي وتتصفح الجرائد .ثم كان هو ، لم تلمحه حتى اقترب منها ونطق لتشي به نبرة صوته :

_ أهكذا أنتِ دوماً مثقلة بالمشتريات ؟

لم تتخيل يوماً يجمعها لقاء هنا :

_ وهل أنت دوماً رجل المصادفات ؟

_ ليس هناك من صدف! هناك فقط وهم الصدف كل ما يحدث لنا هو مقدر ومكتوب منذ الزمن .

_ ولكن عندما لا تكون فى مفكرة يومى موعد معك وألتقيك ماذا تسمي هذا ؟

اجابها وهو يتناول منها الكيس :

_ أنه مخطط من القدر

_ و هل يا ترى مخططًا سعيدًا أم تعيسًا ؟

_ ربما الأثنان معاً !

لم تحاول أن تسأله ولماذا سيكون تعيسًا.

كان هو ايضاً يرتدي بساطة المكان قميص أزرق ، وبنطلون أبيض ، وحذاء مطاطيًا يجمع اللونين .

_ ولكنك تشعين نضارة وطفولة في هذه الملابس .

ـ كلاً منا يخبئ بداخله طفلاً يظهر احياناً .

ـو لَم أنتِ هنا ؟

ـ أحتاج لبعضاً من الراحة والأستجمام وأنت ؟

ـ أنا مع مجموعة سياحية نقلتهم صباحاً الى نيس وغداً صباحاً سنقلع لباريس مرة أخرى.

ـ أين تقمين وإلى متى ستمكثين ؟

ـ أقيم فى الجراند اوتيل أما إلى متى سأمكث فلم أحدد بعد ربما إقامتي تطول لبعض الوقت .

ـ وعملك ؟

ـ أنا هنا من أجل عملي. هناك قرار هام يتحتم علَّى فيه أن افكر جيداً ، لذا أنا هنا .

تمشيا معاً كلٌ منهما بجوار الأخر حتى وجدا أنفسهما امام الشاطيء مباشرة .كانت الشمس مشرقة فى هدوء ونسمات الهواء باردة ومنعشة في نفس الوقت ، وطيور النورس تنتشر على طول الشاطيء . وعلى مقعد خشبي امام البحر جلسا . فتح الكيس الورقي ليكشف عن أى شيء تنبعث منه تلك الرائحة الشهية فصاح قائلاً :

ـ يا ألله ما كل هذه الحلوى !!!

ـ أنا ضعيفة امام المخبوزات الفرنسية و لا أستطيع أن أمنع نفسي من الشراء .

مد يده لها بفطيرة الدانش بينما قضم هو من قطعة اكلير الشكولا .

اخذا يقضمان ، ويتحدثان ، ويضحكان ، حكى لها سفرياته وعن حبه للشرق وخاصة مصر وكيف أن جده كان فنانًا فرنسيًا شهيرًا، ذهب لمصر فى منتصف القرن التاسع عشر ورسم مجموعة كبيرة للحياة هناك منها لوحته الشهيرة " شارع فى القاهرة " وهي ضمن مقتنيات متحف اللوفر. حكى لها أنه زار مصر فى احد رحلاته الجوية وشاهد شوارعها ومبانيها ، أستغرب كيف ضاهي جده الحقيقة في لوحاته بمثل تلك القدرة المذهلة. ثم نظر يتأملها قائلا :

ـ أتعلمين أن بك شيئاً من اللوحة !

ـ كيف ؟

ـ ملامحك تشبه روح اللوحة . روح الشرق التي تمتلكينها وتطفو لتطغي على مظهرك ولهجتك الفرنسية .

ثم نظر بعيداً للبحر الواسع قائلاً :

ـ كان جدي فى نهاية السبعينات من عمره ، عندما كنت أنا هذا الصبي الذى تم لتوه الخمسة عشر عاماً. وكان هناك شيئاً ما خفي يجمع بيننا . كنت أحبه بذقنه الغير مرتبة وبغليونه القديم وبأصابعه المغموسة بألوان أبت أن تخرج منها لتشي بمهنة كانت له ، وبحة صوته الدافئة كان يجلس ليحكي لى رحلته للشرق. وماذا شاهد وماذا فعل ؟ مؤكداً أنها أجمل أيام عمره ، كان يحتفظ بعدد من اللوحات رفض بيعها لأنها خاصة به وحده ، منها بروتريه لامرأة كان قد وقع في حبها ارتبط بها بعلاقة حب من طرف واحد فالشرق المتزمت وقتها بعاداته وتقاليده منعه حتى من مصارحتها بذلك ولأنه لم يكن يملك من امره شيئًا فأكتفى بأن أحبها في صمت .

ـ ولكن كيف شاهد جدك هذه المرأة ؟ والنساء فى مثل ذلك الوقت كن نادراً ما يكشفن وجوههن !!!

ـ هو رسمها وهي ترتدي خمارها، لم يظهر منها سوى عينيها .عيون سوداء واسعة ساحرة . أجمل عيون يمكنك أن تريها فى حياتك . لقد اكتفى بأن قبض عليها فى لوحة و وضعها داخل أربعة أضلاع ، كان يذهب ويجيء بها معلقة فوق جدار قلبه . كثيراً ما أثارت تلك السيدة غيرة جدتى خاصة عندما كان يجلس بالساعات امامها ينفس فى غليونه و يتأمل فيها . و رفض أن يبيعها ، بالرغم أن متعهد بيع لوحاته عرض عليه مبلغ خياليًا ثمناً لها ، ولكنه رفض وظل متمسكاً بها لأخر نفس بحياته . تخيلي.. بعد موته رفضت جدتي عرض المتعهد واغراءاته لشراء اللوحة وهي التى كانت تكرهها كثيراً و تتمني أن جدي يتخلص منها ! ولأني كنت الحفيد الأقرب له سلمتني إياها وهى تحتضر، ووصتني ألّا افرط فيها هي ودفتر كبير كان يكتب فيه يومياته في الشرق .

ـ وهل قرأت ماذا كتب ؟

هز رأسه نافيًا

ـ بالطبع لا . فمطالعتك على يوميات الأخرين فى نظرى كتلصصك على عوراتهم أو تصنتك على أحاديثهم .

ـ ولكنه لم يعد هنا .

ـ ولكنه كان هنا . وكنت أحبه وكان بمثابة مثل أعلى لي ، لا أحب أن اكشف نزواته أو ضعفه ما بين السطور،واجد تلك القامة العالية والمكانة التي يحتلها بداخلي تهتز . كثيراً ما وقعت تلك الأوراق فى أيدي أبناء كان أباؤهم مثلًا أعلى لهم . ليكتشفوا بعدها أن أباهم قد بدأ عمره لصًا أو مرتشيًا، وأن أمهم متعددة العلاقات وطالما خانت أباهم . تخيلي وقتها تلك المكانة العالية كيف أنها ستهُدم ويحل محلها شعور بخزي وأحتقار، لا لن أفعل ذلك وإن كلفني الأمر حرقها لأتخلص منها وخاصة أنها تتحرش بى كثيرًا لقراءتها ولكني اقاومها !

بصوت خافت اضاف:

ـ احيانًا أستغرب حال هؤلاء الناس المولعين بكتابة يومياتهم، أين ذهبوا ، ماذا شاهدوا ، و ماذا تناولوا و من قابلوا؟ ما قيمة أن تسجلي لحظة ماضية ؟

ـ إنهم يعيشون وهم القبض على اللحظة والإمساك بها حتي لا تفلت منهم ربما بعدها بعدة سنوات يلجئون لقراءتها عندما يمسهم الحنين لماضيهم ولسعادة كانت قائمة يوماً .

اخيراً كان قد حول نظره اليها وسألها :

ـــ وهل تفعلين ذلك ؟

هزت رأسها بقوة نافية :

ـــ لا ، لم أفعل بالرغم أنى عشت حياة مليئة بالأحداث التى تستحق أن تدون .

بعد برهة من الصمت أضافت بنبرة اكثر حزناً :

ـــ ما حاجتي للتدوين ، إن كانت كل تلك الأحداث ماثلة أمامي وكأنها قد حدثت للتو . أنا أملك ذاكرة نشطة متحمسة، ما أن تهل ذكرى صغيرة حتى تستدعى معها جبال من الذكريات ، احداث ، وجوه ،اماكن ، روائح ،محادثات ، مشاجرات .

فجأة صمتا معاً ، وتوغل كل منهما أكثر فى ذكرياته ، ذهب كل منهما بعيداً هناك لأيام وأماكن كانت قد صنعت سعادة ما أو حزناً ما . ثم قام منفوضاً وكأنه تذكر شيئاً :

ـــ هيا بنا.

ـــإلى أين ؟

ـــ إلى التلال .

قالها وهو يشير عبر البحر على الضفة الأخرى حيث تظهر التلال من بعيد .

ـــ ولكن كيف؟

ـــ سنستقل اليخت ومنه للجهة الأخرى .

وقبل أن تنطق كان قد قبض بقوة على كفها وأسرع الخطي بها يقودها للمارينا . قام باستجئار يخت صغير وذهبا معاً .وقفت على قمة اليخت تراقب المياه وطيور النورس محلقة فوقها بينما تظهر التلال على الضفة الأخرى وتقترب شيئاً .. فشيئاً

أقتربت منه فى قمرة القيادة ،كانت الشمس صبغت لونه للذهبي ، فأبرزت لون عينيه اللتين هما بلون العسل الصافي ، وأكتسى وجهه بالنمش فزاده ذلك جاذبية ووسامة. كان صوت "اديث بياف" يأتي عبر المسجل في أغنيتها الشهيرة " الحياة وردية " وهي التي تؤمن بالمقولة الفرنسية الشهيرة " الحياة ليست دائماً وردية " فأي منهما تصدق ؟ حنجرة اديث القوية وصوتها الذى يعلو مردداً الحياة وردية ، ربما هي كذلك في هذه اللحظة بالذات . أو هو الجانب المشرق من المقولة التي لم تنفي أن الحياة وردية، أخبرتنا فقط أنها فى بعض الأحيان تتلون بالوردي .

_ كنت أعلم انك تجيد قيادة الطائرات. أمَّا عن قيادة اليخوت فهذا يدهشني !

_ الأمر غاية فى السهولة .ما دمت بعيدة عن صلابة الأرض فتأكدي أن أى قيادة هي الأسهل وقتها .

_ كيف !؟ والأرض صلبة لتتمكن من السير فوقها . أمَّا عن الماء والهواء فأعتقد أن الأمر أكثر صعوبة .

_ نعم الأرض صلبة ولكنها هي أكثر عنادًا صدقيني .

بعد أقل من عشر دقائق صاح قائلًا :

_ ها قد وصلنا . توقف باليخت فى الميناء ، بجوار جسر خشبي قديم كان عليها عبوره .كان الجسر قديم للحد أنها كانت تسمع صرير الخشب تحت قدميها كلما خطت . لذلك كانت تمشي بتمهل وحيطة .

وهُناك كان المشهد حقاً يستحق العبور إليه. تلال متدرجة ، بحر ، وعشب . يظهر البحر وكأنه فى عناق أبدي مع الجبل . اشار لطريق جبلى غير ممهد ويحتاج لمشقة لصعوده . تذمرت و لاحظ ذلك فأبتسم قائلاً :

_ ما الضرر في أن نتعب بعض الوقت إذا كان ينتظرنا الأجمل بعدها كل الوقت .

أبتسمت له وصعدا معاً وهى تردد جملته وتتساءل من إين يأتى هذا الرجل بهذه الحكمة؟

اخيراً وصلا فصاحت قائلة :

_ يا الله ما أجمله مشهد .

كانت المروج الخضراء تحيط بالتلال الجبلية ، بنيت اكواخ الفلاحون بمحاذاة قصور الأثرياء الذين يأتون لهنا لقضاء الصيف ، وفي المروج الخضراء كانوا رعاة الغنم يرعون عنزاتهم وأغنامهم التى تركض يمنة ويسرة ،كان مشهد البحر من أعلى غاية فى الروعة والهواء منعش وصحي . أشار بيده للاكواخ المتناثرة بدء من السفح وحتى قمم التلال :

_ انظرى لتلك الأكواخ أنها ملكاً لرعاة الأغنام من الفرنسيين الفقراء . يقطن هنا أناس لم يعرفوا فى حياتهم سوى رعي الأغنام والعيش على ريح البانها وأجبانها ،كل صلتهم بالعالم الاخر هو أنهم ينزلون" لنيس" حيث يبيعون جبن الماعز المشهورين بصناعتها ، للسكان والسائحين .

ثم أمسك يديها ا قائلاً :

_ هيا بنا سذهب لزيارة بعض الأصدقاء .

طرق باب كوخ صغير عدة طرقات فتحت الباب لهما فلاحة عجوز واخذت تمعن النظر تارة فيه واخرى فيها واخيرا صاحت بأسمه وهى تقترب منه وتعانقه

_ أدريان ، معقولة كل هذا الوقت ولم تزورنا

_ عذراً لاميه فقد كنت على سفر دوماً .

صافحتها بعد أن عرفها بها، ورحبت بهما السيدة فى مسكنها المتواضع، وعلى طاولة خشبية صغيرة بمقاعد ممن الخيرزان جلسا .كانت تحضر لضيافتها و تقص عليه أخبار زوجها واولادها . ثم جاءت لهما بكوبين من الفخار بهما لبن الماعز و وضعت لهما خبز كانت قد خبزته بنفسها صباحًا و قدمت معه صحن به جبن الماعز وتمنت لهم شهية طيبة وغابت عنها.

ثم رجعت مجدداً بقارورة من النبيذ أخبرتها أنها صنعتها وعتقتها منذ زمن . ولن تخرجها من مخبئها إلا للمناسيات الخاصة جداً.

هزت رأسها إيفا بالرفض قائلة :

_ شكراً سأكتفي بشرب الحليب .

كانت تراقب يديها وهى تقوم بفتح غطاء القارورة تدل على معاناتها عبر السنين في حياتها المجهدة ولكن لها ابتسامة طيبة وسمحة لم تغادر وجهها .

_ هل تعرفها منذ وقت طويل ؟

_فى السنوات الأخيرة من حياة جدي ، اصابه مرض بالأعصاب يسمي بالشلل الرعاش وقد منعه من ممارسة الرسم . ترك باريس وأشتري منزل ليقيم فيه هنا للأستجمام ولرسم المروج الخضراء تلك التي لا تحتاج جهدًا لرسمها ، كنت اخرج معه باكراً للحقول ونحضر إلي هنا .كان هو يفرد اوراقه ليرسم بينما اراقب الفلاحين ورعاة الغنم . وتوطد علاقتي بهذه الأسرة البسيطة ، كانت ما إن ترانا حتي تهرع الينا باقداح فخارية من لبن الماعز الساخن ليمنحنا الدفء . بعد موت جدي قلما جئت لهنا ولكن فى المرات البسيطة التى جئت فيها كنت حريص للمرور عليهم .

_ أنها حياة بسيطة وجميلة .

كانت تجول بنظرها تمعن النظر فى البيت القروي وتلك المرأة التى تقف على مقربة منها بعيون بلون زرقة البحر الذي يطل منزلها عليه ، ويدين أنهكها التعب والشقاء وابتسامة لا تفارق وجهها .

ودعا المرأة التى ألحت عليها كثيراً لتناول الغذاء وهى تعلن بفخر فى وجهها عن الطبق المميز الذى كانت سوف تعده خصيصاً للترحيب بها

ـــ سأعد لكما أمعاء البقر المحشية بالأرز واللحم .

أبتسمت إيفا بينما امتعض هو وكان يردد و هما ينزلان التل ويضحكان

ـــ أمعاء البقر المحشوة !!!

ـــ أنه طعام شهير ولذيذ نطبخه فى مصر ، عليك بتذوقه ربما تغير من رأيك .

ـــ وهل تذوقتيه ؟

ـــ نعم كثيراً أنه شهى جداً .

ـــ لا .. لا مهما يكن لا أستطيع أن أصدق أننى أتناول أمعاء البقر .

فى طريق عودتهما كانت الشمس توشك على المغيب سألها :

ـــ ماذا تنوين أن تفعلِي ؟

ـــ لا شئ سأغفو قليلاً وهناك الكثير من الأوراق على مراجعتها .

قال بأندهاش وتساؤل

ـــ اوراق !

ـــ نعم اوراق مهمة تخص القضية الفلسطنيية .

ـــ على ما أعتقد أنك إسرائيلية .

ـــ عذرًا .. أنا يهودية أمَا إسرائيل فلا تمت لي بصلة .

ـــ وقراءتك فى تلك الأوراق هل هي لصالح الطرف الأسرائيلي أم الفلسطيني ؟

ـــ لا أعرف بعد . علَّى القراءة فى الكثير من الأوراق ومراجعة الكثير من المعلومات والأحداث وفهما جيداً .

ـ ولكنك يهودية وتدافعين عن أرتكابات النازية ضد اليهود فكيف بالله عليك تقفين لتدافعين عن العرب الفلسطينيين فهل ستكونين مقنعة فى وقتها ؟

ـ أنا مصرية وعربية ايضًا أمَ نسيت هذا .كما أني لا ادافع عن اليهود بشكل خاص أنا ادافع عن الحق قبل كل شيء .

أبتسم فقد كان يحب فيها دومًا شموخها وإصرارها .

اقترب اليخت من الشاطيء فسألها :

ـ حسناً وماذا عن المساء ؟

ـلم أقرر بعد .

ـ ربما يمكننا أن نتناول العشاء معاً قبل سفري فجراً .

ـ موافقة

ـ سأمر عليك فى التاسعة .

ـ سأكون فى انتظارك فى بهو الفندق .

كان يكفيها من الأوراق التي قرأتها أن تعلم إلى أي مدى وقع الظلم على الفلسطنيين . وتأكدت أنها ستكون فى طريقها لمناهضة القضية الفلسطينية والدفاع عنها . فهؤلاء الأطفال والعجائز والمرضى الذين قهروا ظلمًا هم دوماً ما تحمله معها من هموم .

كان مؤشر الساعة يشير للثامنة والنصف، إذن ليس أمامها سوى ثلاثين دقيقة لتستعد للقاء ادريان ، أنتبهت وهى تقف امام خزانة ملابسها أنها لم تضع فى حقيبتها فستان للسهرة فما حاجتها إليه هنا ، لذلك أمتدت يدها لأكثر الملابس ملائمة لهذا العشاء ،كان فستان من الجيرسيه الوردي ، وضعت من كل شيء أقله ، وضعت دبوسًا من الألماس في جانب شعرها لتزينه به ،كانت سعيدة لأن شعرها بدأ فى النمو مجدداً و وصل لنهاية عنقها ، شعرها الذى رفض كل ذلك الوقت أن ينمو ، ها قد نما بعدما التقت به ، فقد وضع ابتسامة على حياتها و ازال عتمة روحها، ليتسلل الضوء مرة اخرى إليها . وطوقت عنقها بعقد من اللؤلؤ فأضفى عليها مظهر من البراءة والرقة واصبحت انيقة كما ينبغي أن تكون لتلبية الدعوة التي حملها لها الحب للعشاء . و فى التاسعة تماماً عندما كانت فى بهو الفندق، لمحته يجلس على أحد المقاعد فى زواية جانبية ، يبدو وسيمًا فى بدلة صيفية من اللون الأزرق بدون ربطة عنق .

ما إن شاهدها حتي ابتسم وتقدم إليها وكعادته أنحني ليقبل يديها وتأبط ذراعها وغادرا. يسيران على وقع مزيج عطره صاخب الرجولة بعطرها شديد الأنوثة فكأنهما يحلقان معاً فى عالم من النشوة . لم تسأله إلى أين سنذهب ؟ ولم يسألها إلى إين تريد أن تذهب ؟ فقط أطلقا لساقيهما العنان حتى وجدا مطعماً عائمًا على ضفاف الماء . نظرا لبعضهما وأتفقا صمتاً في الذهاب إليه .كانت الموسيقى تقترب إليهما كلما أقتربا من درجاته الخشبية الحلزونية التى أجتازاها بهدوء فقادتهما للطابق الأعلى من سطح المركب. رصت الطاولات بشكل يحرص على الخصوصية وحميمية المواعيد . فأختار لموعدهما طاولة تنيرها الزينات الكهربائية التى علقت لتزين المركب بالخارج ، فكانت تسرب ضوئها الحالم اليهما ازاح لها المقعد ثم جلس فى مواجهتها .

الأن ها هي تجلس على طاولة مستديرة فى مركب عائم ، و تنبعث من المكان أنغام شوبان ، و يجلس في مقابلتها رجلاً باذخ الرجولة . فترى هل كانت القضايا المحملة بها أن تنزوى ولو قليلًا من الوقت فى زواية من الذاكرة ؟ وضع النادل قائمة الطعام امامهما ، القى عليها نظرة خاطفة و أغلقها بعدما اختار طعامه

_ اسريعًا هكذا أخترت طبقك ، أمَ أنك تعلم ماذا يقدمون ؟

_ تعلمُت أن الوقت من ذهب . فكيف لى أن اجلس امامك وأضيعه هباءاً فى النظر فى قائمة اطباق ، يكفيني أن أكون معك لأشعر بالشبع .

ابتسمت وشعرت بالحرج فأغلقت هى الأخرى القائمة .

_ سأطلب مثلك الأن لا فرق بين طعام وأخر .

طلب من النادل كأسين من النبيذ الأحمر وطبقان من كبد الإوز(بصوص دمي جلاس) ثم أشعل سيجاره وأخذ يتأملها من بين دوائر دخانه .

_ تسمحين لي بطلب يدك ؟

نظرت لهناك للساحة المخصصة للرقص كان بها بيانو انيق تعزف عليه سيدة انغام لشوبان

_ ولكن لا من أحد يرقص كما أن هذه المقطوعة الموسيقية لا تشجع على الرقص .

قهقه عاليًا ثم قال وهو يشد اصابعه على كفها :

_ أنا لا اطلب يدك للرقص ، أنا أطلب يدك لتشاركيني بها العمر كله !

ضاقت حدقة عينيها استغراباً ثم اتسعت اندهشاً :

_ العمر كله !

_ نعم أنا أطلب يدك للزواج .

فاجأتها كلماته ، هل كان يقصد حقًّا الارتباط بها ؟ هي التي لم تفكر يوماً أن أمراً كذلك سيحدث فضحكت بسخرية حتى لا يفضحها استغرابها .

_ لماذا تضحكين ؟

بنبرة باردة :

_ ابداً ولكن قد سبقك أحدهم .

_ حقاً ومن هو ؟

_ الهموم والقضايا .

ارتخت عضلات وجهه التى كانت قد تقلصت منذ قليل وابتسم ثم أشعل تبغه مجدداً .

وضع النادل الأطباق وتناولا العشاء و كل منهما متخماً بأفكاره .يتبادلان بين الحين والأخر نظرة أو ابتسامة . تفكر في عرضه للزواج بها فهل أدخره لها القدر ليهديها به فى النهاية ، ولكن أى نهاية تلك ! ربما إذا لم تلتقِ تلك الفتاة التي صرخت فى وجهها تطالبها بمناهضة الفلسطينيين ومناصرة قضيتهم اذا كانت بالفعل كما يطلق عليها نصيرة الحق و المظلومين.

رفع النادل الأطباق وسألها :

_سأغادر فجر اليوم لباريس ومنها لرحلة طويلة لأمريكا يمكنك أن تفكرين في هذه الفترة .

_ أنا ايضًا سأغادر لرحلة طويلة للشرق. حيث بأمكاني أن أرى بنفسي ما يحدث للظلم الواقع على الفلسطينيين فى مخيمات اللاجئين.

_ لقد قررتِ إذن ؟

_ لقد تعودت دوماً أن أفعل ما يمليه علّى ضميري.

أبتسم وهو يربت على كفها الصغير بحنان ، أوصلها لبهو الفندق و وضع قبلته على كفها كعادته. ودعته بكل ما أوتيت من نظرٍ واخيراً غادر ولم يقل سوى :

_ سأنتظرك.

راقبته وهى يغادر بخطوة واسعة كمن يسرع نحو قدره. وبهذه الكلمة غادر احلامها فهي لا تعلم متي سوف تعود من رحلتها ؟

وهل سيجمعها لقاء مجدداً ؟ باتت ليلتها وهي عاقدة عزمها على السفر وكلما جاء عرض ادريان للزواج بها وتتخيل نفسها ترتدي فستان الزفاف الأبيض ويخطوان معاً على وقع الدفوف، تبتسم وتطرد الفكرة من مخيلتها، فهي لم تأت لهذا العالم , لتؤدي دور الزوجة والأم هناك دور أخر أدخره القدر من أجلها . أى فتاة عادية بإمكانها أن تؤدى دور الزوجة والأم ، ولكن كم منهن تستطيع أن تؤدى دورها هي؟

فى الصباح غادرت الفندق بعد أن علمت أن هناك رحلة طيران فى طريقها لباريس ستقلع عند الحادية عشرة صباحاً . ابتسمت وهى تصعد سلم الطائرة وألقت نظرة اخيرة على المدينة التى دوماً يحلو للحياة أن تفاجئها فيها . أفرغت اشياءها ومن حقيبة لأخرى كانت أكبر حجماً . حقيبة أعدت لرحلة طويلة غير مخطط لها. تاريخ رحلتها ، رقم بوابتها ، رقم مقعدها ،كلها ارقام رتبها القدر لها فى رحلة لم تحسب حسابها يوماً ولم تخطط لها . فيا ترى ؟ هل ستفتح لها الأبواب أمَ ستغلقها ؟ وهل ستعود منها رابحة أم مهزومة ؟

وفى المطار كانت الإذاعة الداخلية تنادى على رقم رحلتها المتجهة الى بيروت . جمعت اشياءها وقامت مسرعة. وهى بين السماء والأرض و كما اعتادت الذاكرة دوماً فى نصب شباكها لها لتبدأ فى محاسبة نفسها على كل ما تركته خلفها ومضت .

أخرجت رسالة ديدو التي وجدتها فى صندوق بريدها وهي في طريقها للمطار هذا الصباح، لم تكن تملك متسع من وقت لقراءتها لذا وضعتها فى حقيبة يديها حتى يتسني لها قراءتها وهى بالطائرة ،كانت رسالة مطولة ومفصلة تصف لها فيها مشهد الخروج الثاني لليهود من مصر :

"لم يعد هناك الكثير من اليهود القليل منهم حتى إن عددهم لا يتعدى الثلاثمائة شخص ولم تعد للجمعيات الخيرية التى تقدم الإعانات أي وجود كما أغلق المستشفي الإسرائيلي وتحول لمستشفي ناصر العسكري . فقط كل ما تبقى دار العجزة لليهود بمصر الجديدة و عنبر اليهود فى السرايا الصفراء. أما عن الأصدقاء والأقرباء لم يعد أحد منهم فى الجوار لقد ذهب الجميع وللمرة الأولى فى حياتي أعد مائدة العيد ولا يشاركني فيها أحد . استقلوا جميعهم البواخر لتقلهم لشتى أنحاء العالم بعدما باعوا كل أملاكهم للخروج بل عودة . الأموال والمجوهرات كانت تندس بين حشو قطن الوسائد أو فى حواشي الملابس، وضعت كاتيا خاتمها الألماس المرصع بفصوص الباجيت داخل برطمان المربة ،بينما دست كريمة الجنيهات الذهبية داخل فرو معطفها، ولم ينس الرئيس السابق لطائفة القاهرة حمل " السيفر"اللازم لبناء معبد جديد فى الجهة الأخرى من العالم ولكن على نهج الطقوس المصرية . تصورى أن راشيل قد أصطحبت معها وابوار الجاز البريموس وكنكة القهوة فى حقائبها حتى يتسنى لها أن تتذوق قهوة كتلك التى تشربها فى مصر . أعتقد أن كل شيء قد تم حمله على عجالة السفر سيفجر يوماً بحر من الذكريات , لقد تم خروج اليهود من مصر إيفا وليس هناك أمل فى العودة مجدداً ولكني واثقة من أن هؤلاء اليهود سيصرون على أنتمائهم لمصر فى كل بلدان العالم التي ذهبوا لها سيحملوا معهم طقوسهم ولغتهم والأمهم وأحزانهم وستورث للأجيال القادمة حتى و إن لم تطأ اقدام هذه الأجيال مصر ابداً ، وربما يكتب احدهم يوماً " مذكرات يهودي مصرى ولكن ولد في فرنسا "

هل كانت تبكي ، وهى تكتب تلك الكلمات وإلا لماذا كانت بعض الأحرف ممحية بفعل سائل ما ؟

" أنا باقية إيفا لن أغادر منزلي ولن أسمح لهم بأن يوقعوا لي على استمارة الخروج بل عودة لأني لن أغادر ابداً سأظل هنا وقد أوصيت جارتى عند رحيلي أن تقوم بدفني مع أبي وأمي فى مقابر اليهود بالبساتين وقد تركت لها المفتاح ورقم المقبرة . اليوم هو موعد الزيارة الشهرية للسرايا الصفراء لقد أستيقظت باكراً لصنع المربة التي تحبينها ، أتمني لو أنكِ هنا لتتذوقيها . سأتركِكِ الأن وسأحمل معي الرسالة حتى أقوم بوضعها فى صندوق البريد وأنا فى طريقي للمشفي أتمني أن لا أنسى ذلك . لقد أصبح النسيان هو جليسي الوحيد , أحترسِي لنفسكِ إيفلين "

أغمضت أيفا عينيها وتخيلتها وهي فى طريقها للمشفي تعقد الإيشارب الحريري حول رأسها وترتدي معطفها الصوفي وتتشبث باليد العاجية لحقيبتها التي غزلت من خيوط الكانفاه ، تسير ببطء منحنية الظهر قليلاً وتلفح الرياح الباردة وجهها بقوة .بينما تحترس من عدم الغوط فى برك المياه الصغيرة التى تصنعها الأمطار التى لا تتوقف عن الهطول فى مثل هذا الوقت من العام ، وبيد مرتعشة وعيون ضعيفة النظر تحاول أن تتحسس مكان ثقب الصندوق لتلقى فيه برسالتها إليها ...

تمت بحمد الله

القاهرة فى 12-2-2013

رشا عدلى محمد

كاتبة وباحثة في تاريخ الفن

حاصلة على دراسات حرة فى تاريخ الفن التشكيلي من معهد ليوناردو دافنشي للفنون

دبلوما عليا في تاريخ الفن اكاديمية لايم للفنون الجميلة

عضوة فى الرابطة العالمية لمؤرخى الفن التشكيلى

صدرت لها رواية صخب الصمت 2010

كتاب القاهرة المدينة الذكريات 2012

رواية الحياة ليست دائماً وردية 2013

للتواصل مع المؤلفة

Rasha-adly@hotmail.com

https://www.facebook.com/gallery.art.n.history/

العنوان

الوشم
(رواية)

تأليف

رشا عدلي

إشراف عام

دالیا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-4893-8
رقم الإيداع: 9726 / 2014
الطبعة الأولى: مايو 2014

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com